

الدّولة الموحّديّة بالمغرب

في عهد عبد المؤمن بن على

تأليف

الدكتور عبد الله على علام

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الشريعة بالرياض



دار المعارف بمصر

بفضل الله أولا
ثم بفضل أستاذنا الدكتور محمد بركات البيلي
تم توفير هذا الكتاب النادر بصيغة إلكترونية
فجزاه الله خيرًا كثيرًا.
ناهد قرني عبدالحميد

الدّولة الموَحّديّة بالمغربْ

في عهد عبد المؤمن بن علي

مكتبة الدراسات التاريخية

الدّولة الموحّدية بالمغرب

فى عهد عبد المؤمن بن على

تأليف

الدكتور عبد الله على علام

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الشريعة بالرياض



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م

كلمة تقدير

أتقدم بالثناء العاطر إلى السيد المشرف الأستاذ الدكتور إبراهيم على شعوط ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الأزهر ، على حسن إرشاده وحكيم نصحه ، وإمداده إياى بطائفة من المصادر النافعة مما اشتملت عليه مكتبته الخاصة ، وكرم استقباله لى بمنزله آناء الليل وأطراف النهار .

وكذلك أشكر المؤرخ القدير الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، رئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية ، فقد قرأ هذا الكتاب وهو ماثل للطبع ، وكان له فضل لا ينكر فى تنظيم أبوابه مما أضفى عليه الكثير من حسن التنسيق .

عبد الله على علام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يكشف هذا البحث عن حالة الأندلس ، وأقطار المغرب العربى — : المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا — فى أحرج فترة مرت بالمسلمين فى العصور الوسطى ، ألا وهى فترة الحروب الصليبية ، إذ استطاع عبد المؤمن بن على الموحدى — خليفة المهدى ابن تومرت — أن ينظم هذه الأقطار فى سلك إمبراطوريته الواسعة ، وكان عبد المؤمن بالمغرب يعاصر نور الدين زنكى بالمشرق ، وكان هذان القائدان يكافحان الصليبيين المتطلعين إلى إزالة النفوذ الإسلامى فى المشرق والمغرب على السواء .

وقد استطاع عبد المؤمن بن على قهر الصليبيين بالأندلس ، وتطهير شمال أفريقيا منهم ، ولولا تمرد شرقى الأندلس عليه — بزعامة محمد بن مردنيش حليف النصارى — هـذا التمرد الذى امتص وقت الموحدين لاستطاع عبد المؤمن أن يحرر الأندلس نهائياً من النصارى ، وأن يسبق الأيوبيين فى ضم أملاك الخلافة الفاطمية إلى المغرب، محققاً بهذا حلم المهدى ابن تومرت فى إنشاء خلافة موحدية قوية تستطيع إعادة مجد الإسلام الأول .

كما يثبت هذا البحث بما لا يدع مجالاً للشك أن فترة الموحدين كانت نقطة انطلاق الحضارة المغربية الأصيلة ، وبدء ظهور الثقافة القومية المصطبغة بالطابع المغربى الأصيل ، وقد كانت الثقافة المغربية قبل الموحدين يغلب عليها الطابع المشرقى والأندلسى .

وقد عنى هذا البحث عناية خاصة بإبراز معالم الثقافة والحضارة فى فترة عبد المؤمن ، كما عنى بإبراز معالم المجتمع المغربى فى هذه الحقبة ، ونرجو أن نكون بهذا الكتاب قد أسهمنا فى ملء فراغ المكتبة العربية فى هذه الفترة الهامة . والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل .

عبد الله على علام

القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٦٨

التعريف بالمصادر الرئيسيّة

١

كتاب أخبار المهدى بن تومرت للبيذق

اسم هذا الكتاب كاملا : « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » واسم مؤلفه كاملا : « أبو بكر بن على الصنهاجى الشهير بالبيذق »[١] وهذا المؤلف يعتبر من أتباع المهدى ابن تومرت ، ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية ، التى قام بها المهدى ، كما أنه من أكثر الناس إعجاباً بالخليفة عبد المؤمن بن على ، لذلك كان من واجب القارئ لكتابه المذكور ، أن يضع فى الاعتبار ، أن البيذق يركن كثيراً إلى المبالغة والتهويل فى المدح ، وإلقاء كثير من الأمور الخيالية على مواقف المهدى مع أمراء الدولة المرابطية وعلمائها ، وعلى ما قام به المهدى وخليفته (عبد المؤمن بن على) من أعمال بطولية فى الغزوات التى قاما بها مع المرابطين — بصفة خاصة — وعلى سبيل المثال ، ينسب البيذق إلى المهدى أموراً لا يكاد العقل يصدقها ، عند مقابلته للسلطان « على بن يوسف » إذ يقول البيذق : « . . . لما دخل "ابن تومرت" مراكش ، نزل بها بمسجد صومعة الطوب ، فمكثنا بها إلى يوم الجمعة ، ثم أقبل "ابن تومرت" إلى جامع على بن يوسف ، فوجد "السلطان" على بن يوسف

---

(١) يبدو أن البيذق من مواليد مدينة تونس ، إذ قابل ابن تومرت بهذه المدينة ، وانخرط فى سلك الطلاب الذين التفوا حول ابن تومرت ، يستمعون إلى دروسه ، ولم تذكر المصادر الأخرى شيئاً عن حياة البيذق ، ولكن القرائن تعين أنه كان أكبر سناً من الخليفة عبد المؤمن ، غير أنه كان من التلاميذ المغمورين ، إذ كان خادماً للمهدى ، يحمل أمتعته . ويقود بغلته ، ولم نره قد شغل منصباً من مناصب الدولة على الرغم من سبقه عبد المؤمن فى الانخراط فى سلك الدعوة الموحدية ، وكان حظ البيذق من العلم قليلا ، ويبدو هذا فى أسلوبه وأخطائه الكثيرة ، ويغلب على الظن أن البيذق قد عاش بعد عبد المؤمن لأنه ذكر جميع تاريخه .

قاعداً على غفارة[١] ابن " تيزمت " والوزراء واقفون ، فقال له — أى لابن تومرت — الوزراء : رد الخلافة على الأمير . فقال " ابن تومرت " لهم : وأين الأمير ؟ إنما أرى جوارى منقبات[٢] ، فلما سمع ذلك " على ابن يوسف " ، حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق . فلما رآه المعصوم قال له — أى للسلطان على بن يوسف — الخلافة لله وليست لك يا على ابن يوسف ، ثم قال له المعصوم : يا على قم عن هذه المغيرة تكون[٣] — كذا بالأصل — إمام عدل ، ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة فأزالها ، وأعطاها لمولاها[٤] ، وقال له : — أى لابن تومرت — لم تغيرها ؟ قال له : لأنها تعقد بالنجاسة ، ثم خرج المعصوم إلى باب المسجد وقعد حتى خرج الناس من المسجد ودخل مع الفقهاء بالمذاكرة ، حتى قهرهم القهر كله »[٥] .

ولا يخفى مافى كلام البيذق هذا ، من مبالغة وتلفيق ، فمن المحال أن يدور مثل هذا الحديث السوقى بين ابن تومرت وبين سلطان المغرب . فهل يتسع حلم السلطان لعبارات السخرية به وبوزرائه على مرأى ومسمع من رعيته فى حفل صلاة الجمعة ، كقول البيذق الذى ينسبه لابن توموت : « وأين الأمير ؟ إنما أرى جوارى منقبات » .

ويفهم من كا م البيذق أيضاً ، أن ابن تومرت لم يؤد صلاة الجمعة ؛ فقد خرج إلى باب المسجد ؛ وقعد حتى خرج الناس من المسجد ؛ ودخل مع العلماء بالمذاكرة ، وهذه تهمة ألصقها البيذق بابن تومرت

---

(١) الغفارة — غطاء من صوف يتلفع به .

(٢) كان من عادة المرابطين أن يتلثم رجالهم بالنقاب ، ويكشف نساؤهم عن وجوههن .

(٣) الصواب « تكن » لأن الفعل مجزوم فى جواب الأمر .

(٤) أى لصاحبها ، وهذا التعبير موجود الآن بالمغرب .

(٥) أخبار المهدى . ص ٦٧ .

من حيث أراد مدحه .

ولا يخفى أيضاً مافى النص المذكور من ركاكة وخطأ نحوى ، وخطأ تاريخى — وقد أشرنا بالهامش إلى هذه الأخطاء — فيما سبق — وعلى الرغم من هذا فقد انفرد البيذق بذكر بعض الأحداث التى لا نراها واضحة فى المصادر الأخرى وضوحها عنده . من ذلك ترتيب عودة ابن تومرت من المشرق — ابتداء من تونس التى قابل البيذق ابن تومرت بها — حتى وصل إلى أهله ببلاد السوس ، وترتيب غزوات المهدى التسع ، التى يزعم البيذق أنه اشترك فيها ، وإمدادنا بصورة كاملة للغزوة الكبرى التى قام بها عبد المؤمن ابتداء من سنة ٥٣٤ هـ من جنوبى المغرب الأقصى حتى نهاية شماليه ، ثم اتجه بها نحو المشرق فأوقع بالمرابطين وسيطر على بلاد الجزائر ، ثم رجع وفتح « فاس » و « مكناس » وأسقط الحكم المرابطى بمراكش سنة ٥٤١ هـ ، ومما انفرد به البيذق ؛ ذكر أولاد عبد المؤمن وضبط إسناد ولاية الأقاليم إليهم وهكذا .

وليس لنا بعد أن ذكرنا نصًّا للبيذق أن نكرر القول عن أسلوبه ، ومنهجه الذى لا يتقيد بالتنظيم التوقيتى .

وقد تكلم البيذق عن المهدى بن تومرت ابتداء من دخوله مدينة « تونس» فى عودته إلى المغرب ، فذكر دخوله بجاية وملالة ؛ التى التقى فيها المهدى بتلميذه المحظوظ عبد المؤمن بن على ، ثم دخول ابن تومرت مدينة وجدة (أول مدينة مغربية بشرقى المغرب) ثم دخوله مدينة فاس ثم مدينة مكناس ثم مدينة سلا ، ثم مدينة مراكش حيث اصطدم ابن تومرت بعلماء المرابطين ، الذين تآمروا عليه ففر هارباً إلى قومه بالسوس .

وهكذا يظل البيذق فى سرد الأحداث التى وقعت للموحدين فى عهد المهدى بن تومرت ، ثم يتناول الكلام عن الأحداث التى وقعت فى عهـــد الخليفة عبد المؤمن بن على .

« وكتاب أخبار المهدى بن تومرت » المذكور ظل حبيس مكتبة

الأسكوريال بإسبانيا حتى أخرجه المستشرق ليڤى بروفنسال إلى عالم النور فنشره بباريس سنة ١٩٢٨م ، وربما لا نملك من نسخه سوى نسخة المعهد الإسلامى بمدريد ، إذ أضحت النسخة التى كانت كائنة بمكتبة كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى حكم المفقودة .

وخليق بالذكر أن ليڤى بروفنسال قد طبع مع كتاب البيذق فى مجلد واحد كتاباً آخر يدعى « كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب » تأليف إبراهيم بن موسى بن محمد الهرغى المتوفى سنة ٧١٤ هـ .

٢

كتاب المن بالإمامة
لابن صاحب الصلاة

اسم الكتاب كاملا « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين [١] وظهور الإمام المهدى بالموحدين على الملثمين وما فى مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخيراً "بعض الخلفاء الراشدين" .

بهذه العبارة الطويلة عنون المؤلف كتابه .

أما المؤلف فهو « عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى » [٢].

ويبدو أن كتاب المن بالإمامة ثلاثة أجزاء ، وذلك حسبما ورد فى عبارة ختم بها المؤلف كتابه إذ يقول : « كمل السفر الثانى من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله يتلوه الثالث بحول الله ، سنة تسع وستين وخمسمائة ، "وأوله" خبر وصول العلج الطاغية » .

والذى وصل إلينا من هذه الأجزاء الثلاثة التى يتركب منها الكتاب هو الجزء الثانى [الذى يبتدئ بأحداث سنة ٥٥٤ هـ وينتهى بأحداث

---

(١) أخذ المؤلف هذه التسمية اقتباساً من قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » .

(٢) لم يشر المؤلف إلى شىء من تاريخ حياته كما لم تشر المصادر إلى مولده أو وفاته ، وإذا كان لنا أن نجتهد فى تعيين مولده ، فإننا نستند إلى أن ابن صاحب الصلاة قد حضر حفل جبل طارق الذى أقيم للخليفة عبد المؤمن سنة ٥٥٥ هـ . ووصفه وصفاً دقيقاً ، فلو افترضنا أنه كان يبلغ من العمر حينئذ خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين عاماً ، فإننا نستطيع أن نضع ميلاده حوالى ٥٢٥ هـ ، ثم إنه ذكر فى كتابه وصفاً لاحتفال الخليفة يعقوب المنصور بإتمام صومعة جامع إشبيلية الأعظم سنة ٥٩٥ هـ فتكون وفاته إما فى نهاية القرن السادس الهجرى أو مطلع القرن السابع .

سنة ٥٦٨هـ . ويكون مقتضى ذلك أن الجزء الأول قد عرض أخبار المهدى ابن تومرت ؛ وعرض شطراً عظيماً من أعمال عبد المؤمن بن على ، حتى نهاية سنة ٥٥٣ هـ ، أما الجزء الثالث — الذى لم يصل إلينا — فقد ابتدأ بأحداث سنة ٥٦٩ هـ حتى قبيل وفاة المؤلف ، فى نهاية القرن السادس أو مطلع القرن السابع الهجرى .

أما الجزء الثانى — وهو الوحيد الذى وصل إلينا — فقد صورته الخزانة العامة بالرباط عن نسخة تحتفظ بها جامعة أكسفورد المسماة بالمكتبة البودلية ، ثم قام زميلى الأستاذ عبد الهادى التازى المغربى بتحقيق هذا الجزء من الكتاب ونال به درجة الماجستير من كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الرباط فى أواخر سنة ١٩٦٢ م ، ولم أستطع الاطلاع على ما صنعه من تحقيق . وهذا الجزء — على صغر الفترة التى عرض لها من تاريخ الموحدين — يعتبر مصدراً هاما لهذه الحقبة ، فقد اشتمل على كثير من الرسائل المتبادلة بين عبد المؤمن وبين ولاة أقاليم مملكته الكبيرة وقد عرض — بصفة خاصة — للإنتاج الأدبى من شعر ونثر فيما اتصل برجال الحكم ، ومما يجعل لهذا المخطوط قيمة خاصة أن ابن صاحب الصلاة كان شاهد عيان لما ذكره .

وكان ابن صاحب الصلاة أديباً ، فاستطاع أن يكتب ما كتب بأسلوب عذب لم يعكر صفوه سوى ما فيه من سجع متكلف فى كثير من الأحيان .

ولم يلتزم ابن صاحب الصلاة طريقة التوقيت بالسنين ، فهو ينطلق وراء تسجيل الأحداث مقيداً هذه الأحداث بتواريخها .

أما عيوب ابن صاحب الصلاة فهى بعينها ، تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدى ، من عبارات الإجلال والتعظيم للخلفاء والأمراء والانتقاص من المرابطين الذين كثر ذكرهم عند كلامه عن بنى غانية المرابطين الذين استقلوا بجزائر ميورقة ومنورقة ويابسة . وصاروا — ومعهم النصارى — شجى فى حلق الموحدين زمناً طويلا .

٣

المعجب للمراكشى

اسم هذا الكتاب كاملا : « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » وقد وضعه المراكشى[1] بمدينة « بغداد » تلبية لرغبة وزير الخليفة « الناصر »

---

(١) هو الفقيه المؤرخ الأديب « محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى المراكشى ». ولد بمدينة « مراكش » — حاضرة الدولة الموحدية — فى يوم ٧ من ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ ، فى مطلع حكم الخليفة « يعقوب المنصور » بن يوسف بن عبد المؤمن. ولما بلغ التاسعة من عمره ، ارتحل إلى مدينة فاس — حاضرة المغرب العلمية — فحفظ القرآن ، ودرس القراءات والنحو وعلوم الأدب ، والتاريخ ثم رجع إلى مراكش، وفى سنة ٦٠٣ هـ عبر إلى الأندلس واتصل بعلمائها المشهورين ، ثم قدر له فى سنة ٦٠٥هـ أن يتصل بالأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور . وكان هذا الأمير والياً على أشبيلية — حاضرة الحكم الموحدى بالأندلس — وقد ابتدره المراكشى بقصيدة جاء فيها قوله :

لكم على هذا الورى التقديم وعليهم التفويض والتسليم
الله أعلاكم وأعلى أمره بكم وأنف الحاسدين رغيم
أحييتم المنصور فهو كأنه لم تفتقده معالم وعلوم
ومحابر ، ومنابر ، ومحارب وحمى يحاط وأرمل ويتيم

وفيها يشبه الأمير إبراهيم بسيدنا إبراهيم الخليل — عليه السلام — ويشبه مدينة أشبيلية التى كانت تسمى « حمص » بالسيدة « سارة » زوج الخليل . كما يشبه مدينة « طليطلة » التى اغتصبها النصارى بهاجر . فيقول :

فكأنما حمص جمالا سارة وكأن إبراهيم إبراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أثرها سيزفها الأدفنش وهو ذميم . . إلخ

ثم خرج المراكشى من الأندلس فى ظروف لم تكشف عنها المصادر واتجه إلى المشرق حوالى سنة ٦١٣ هـ فزار مصر ومكث بها مدة وخرج من مصر إلى بغداد عاصمة العباسيين واتصل بوزير الناصر العباسى الذى كلفه بتأليف « المعجب » .

العباسي (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) . ويشير المراكشي إلى هذا بقوله في خطبة الكتاب مخاطباً هذا الوزير : « . . . أيها السيد الذى توالت على نعمه ، وأخذ بضبعي من حضيض الفقر والخمول ، اعتناؤه وكرمه ... سألتنى بوأك الله أعلى الرتب ، كما عمر بك أندية الأدب – إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب[١] . . . وشيء من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة "الموحدين" بنى عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا – سنة ٥٢١ هـ – وأن ينضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيته ، أو لقيت من لقيه ، أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء ، وأنواع أهل الفضل فلم أر بدًّا من إسعافك ، و ... إلخ » .

وكتاب المعجب هذا يعتبر من المصادر التى كثر الاستشهاد بها فى هذه الرسالة وقد بنيت ثقتى به على أمور منها : أن المراكشي قد كتبه بالمشرق بعيداً عن المؤثرات التى كثيراً ما تضل أفهام المؤرخين فتصرفهم عن الحقيقة لرغبة أو رهبة ، فلو قدر للمراكشي أن يؤلف كتاب « المعجب » بين أحضان الدولة الموحدية ، لما استطاع أن يعطى ملك المرابطين العظيم « يوسف ابن تاشفين » حقه من التقدير والثناء[٢] . ومنها أن الكتاب على وجازته قد ضرب بسهم وافر فى مواضيع الأدب وغيره بجانب مهمته التاريخية . وقد قرأت الكتاب عدة مرات لأهداف أدبية ، إذ كان لى عوناً فى تدريس الأدب المغربى بمعاهد المغرب ، بل ربما كان كتاب المعجب هذا من الحوافز التى دفعت

---

(١) كان المراكشي يستعمل كلمة المغرب ويريد بها الأندلس والمغرب معاً .

(٢) يشيد المراكشي بذكر مؤسس دولة المرابطين فى إنقاذ الحكم الإسلامى بالأندلس فيقول : « ... لم يزالوا كذلك – أى ملوك الطوائف – وأحوال الأندلس تضعف ، وثغورها تختل ، ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم . إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة المسلمين وقطع طمع العدو بيمن نقيبة أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبى يعقوب . يوسف بن تاشفين (المتوفى سنة ٥٠٠ هـ) رحمه الله (المعجب ص ٥٦) .

بى إلى ميدان التاريخ السياسى . وكان احتفائى بالكتاب على هذا النحو سبباً فى قدرتى على سبر غوره ، وعاملا على شدة إدراكى له ، وحسن استعمالى إياه فى بحثى هذا .

ويشتمل كتاب المعجب على اثنين وثلاثين فصلا عدا الخطبة ، تناول المراكشى فيها الكلام عن حدود الأندلس وفتح المسلمين إياها ، وسير خلفاء الدولة الأموية بها ، وما أعقب هذه الدولة من ظهور عهد ملوك الطوائف وما استتبعه من ضعف الحكم الإسلامى بالأندلس ، وتطلع النصارى إلى استردادها ، واستذلالهم لملوكها المسلمين . وما نتج عن هذا من استنجاد هؤلاء الملوك بملك المرابطين « يوسف بن تاشفين » ، الذى عبر إلى الأندلس وهزم ملوك النصارى شر هزيمة ، ثم ضم الأندلس إلى المغرب .

ثم تناول المؤلف الكلام عن ظهور ابن تومرت — صاحب دعوة الموحدين — وصراعه مع الدولة المرابطية ، وخلافة عبد المؤمن للموحدين ، وخلافة أبنائه وأحفاده حتى سنة ٦٢١ هـ . وبذلك لم يتناول كتاب « المعجب » تاريخ الموحدين حتى نهاية دولتهم بالمغرب فى سنه ٦٦٧ هـ

وفى خلال الأحداث التاريخية والشذرات الأدبية عرض المراكشى لبحوث جغرافية وجيولوجية واجتماعية . فمن الجغرافيا ما ذكره ، عن حدود الأندلس فى مطلع الكتاب ، وما ذكره عن أنهار الأندلس وأنهار المغرب . وأهم مدن الأندلس ثم المغرب فى نهاية الكتاب[1] .

ومن الجيولوجيا : ما ذكره عن معادن المغرب كالفضة والحديد والرصاص والزئبق والكبريت وأماكن استخراجها[2] .

ومن المسائل الاجتماعية : كلامه عن سير قبائل المصامدة وأحوالهم فى طعامهم وإقامتهم وصفتهم فى صلاة الجمعة وخطبتها[3] .

---

(١) المعجب ص ٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ .

(٢) المعجب ص ٢٤٢ .

(٣) المعجب ص ٢٢٣ — ٢٤٣ .

وأسلوب المراكشي شائق خلاب . لم يشب باستعمال المحسنات البديعية المتكلفة ولكن استعماله للعبارة الأدبية لم يسئ إلى الأسلوب العلمى . فأسلوبه من النوع الذى يسميه البلاغيون المحدثون « بالأساوب العلمى الميسر» وقد جوز البلاغيون استعمال هذا الأسلوب فى كتابة التاريخ .

أما منهج المراكشي : فى الكتاب المذكور . فهو سرد الأحداث دون التقيد بالسنين، وعلى نهجه سار ابن الآبار فى كتاب الحلة السيراء، وابن خلدون فى كتبه ، والمقرى . وعلى هذه الطريقة أيضاً يسير المحدثون الآن . وقد حدثنا المراكشي عن مصادره التى اعتمد عليها فى تأليف كتاب المعجب فقال : « ... ولم أثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها ، إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعاً من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحريت الصدق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت فى ألا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه »[1] غير أن المراكشي يقول فى « خطبة الكتاب » إنه أملى الكتاب من الذاكرة . وهذا قد أوقعه فى بعض الأخطاء . من ذلك : أنه ذكر أن عبد المؤمن فتح بجاية سنة ٥٤٠ هـ[2] . والحقيقة التى تواضع عليها المؤرخون أن عبد المؤمن فتح بجاية سنة ٥٤٧ هـ. ومنطق الأحداث يؤيد التاريخ الأخير ، إذ كان عبدالمؤمن فى سنة ٥٤٠ هـ ، يجهز على الدولة المرابطية بالمغرب . وكان يحاصر مدينة فاس فى هذا التاريخ ولا يتأتى له أن يفتح بلاداً خارجية ، وهو لم ينته بعد من السيطرة على المدن التى بداخل المغرب . ومن ذلك أيضاً أن المراكشي جعل عبد المؤمن بن على قائداً لموقعة البحيرة التى هزم فيها المرابطون الموحدين سنة ٥٢٤ هـ[3] . وقد أجمع المؤرخون على أن قائد الموحدين فى هذه المعركة هو أبو محمد البشير الونشريسى الذى قتل فى المعركة . كما قتل فيها أكثر صحابة المهدى العشرة .

* * *

(١) المعجب ــ ص ٢٢٣ . (٢) المصدر السابق ــ ص ١٣٢ .

(٣) المعجب ــ ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

٤

كتاب نظم الجمان
لابن القطان

اسم الكتاب كاملا : « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان »
أما اسم مؤلفه ، فقد اختلف فيه المؤرخون . فالترجمة التى تحمل اسم ابن القطان بكتاب التكملة لابن الأبار (ت سنة ٦٥٨هـ) تذكر أنه هو : على بن محمد ابن عبد الملك بن يحيى بن إبراهيم الكامى الحميرى الفاسى ، أبو الحسن ابن القطان . ويزيد ابن الأبار قائلا : وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، وأنه كان يشرف على طلبة العلم بمراكش ، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة . وله تواليف عديدة . واشتغل بالتدريس والقضاء . وتوفى قاضياً بسجلماسة فى ربيع الأول سنة ٥٢٨ هـ[١] .

والترجمة التى دونها ابن عبد الملك المراكشى (ت سنة ٦٦٩ هـ) . بكتابه « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » تذكر ، أن ابن القطان ، فاسى الأصل ولكنه سكن مراكش ، وأن ابن القطان كان ذاكراً للحديث ، متبحراً فى علومه معظماً عند الخاصة من آل عبد المؤمن ، ومن الناس جميعاً . وقد حظى عند يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر ثم ابنه المستنصر . وكان يعقوب المنصور[٢] يؤثره على غيره من أهل طبقته . ويخصه بالرجوع إليه فى أمور الفتوى .

---

(١) التكملة رقم ١٩٢٠ .

(٢) الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣ وراجع كتاب « دولة الإسلام بالأندلس — الفصل الثالث — الجزء الموحدى ص١١ » للأستاذ محمد عبدالله عنان .

وقد قامت الأدلة على أن الترجمتين المذكورتين — وهما ترجمة ابن الأبار وترجمة ابن عبد الملك المراكشي — ليستا لابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان وإنما هما لوالده . إذ ورد بكتاب نظم الجمان نفسه عبارات تشير إلى عهد الخليفة المرتضى الذى حكم المغرب من سنة ٦٤٦ هـ — ٦٦٥ ؛ على حين يذكر ابن الأبار أن ابن القطان مات سنة ٦٢٨ هـ . . كما أورد ابن عذارى أن الخليفة المرتضى كان محبًّا للعلوم، مقبلاً على القراءة فألف له «ابن القطان» جملة من الكتب الحفيلة الجليلة فمنها : « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » وكتاب شفاء العلل فى أخبار الأنبياء والرسل ... إلخ .

وقد عين صاحب كتاب « نبذ تاريخية فى أخبار البربر »[1] أن اسم ابن القطان هو أبو على حسين بن القطان . وأنه كان فقيهاً حافظاً حسيباً . ولا غرو ، فوالده على بن محمد بن القطان . كان رجلا فاضلا على ما ذكر آنفاً .

وكتاب نظم الجمان . موسوعة كبرى فى تاريخ المغرب . من بدء الفتح الإسلامى حتى قبيل سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ[2] .

والجزء الذى وصل إلى أيدينا منه . هو السفر الثالث عشر من الكتاب . وقد اشتراه معهد الدراسات الإسلامية بمدريد من أرملة المستشرق الفرنسى المرحوم ليفى بروفنسال . ووقف على تحقيقه ونشره الأستاذ الدكتور محمود على مكى ، وكيل المعهد المذكور حينئذ . وقد تفضل فأطلعنى على المخطوط بعد تحقيقه فى سنة ١٩٦٢ ونحن بالمغرب . كما أطلعنى على الكتاب بعد نشره .

وهذا الجزء على صغره يحمل أحداثاً هامة، ولا سيما فى الفترة التى اخترناها لرسالتنا هذه — فقد تكلم عن المهدى بن تومرت وعبد المؤمن بن على وأتى بوثائق للمهدى بن تومرت مكتوبة بخطه . منها رسالة كتبها المهدى إلى

---

(١) ص ٦٥ (نشر ليفى بروفنسال) طبعة الرباط .

(٢) انظر المقدمة التى وضعها الدكتور محمود مكى للكتاب (نشر جامعة الرباط) .

صديقه القاضى على بن أبى الحسن الجذامى سنة ٥١١ هـ .

ثم رسالة عبد المؤمن بن على التى وجهها إلى الموحدين بالأندلس سنة ٥٤٣هـ — وقد كتبنا نصها وألحقناه بهذا البحث لأهميتها — ثم رسالة « الكافية فى براهين الإمام المهدى » التى أرسلها عبد الرحمن بن طاهر المرسى إلى الخليفة عبد المؤمن . ثم كتاب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى أهل تونس سنة فتحه « قفصة » سنة ٥٧٥هـ . وفضلا عن هذه الوثائق التى ذكرها ابن القطان. والتى ربما قد حصل عليها من مكتبة الخليفة المرتضى . فإنه قد ذكر طبقات حكومة المهدى بنظام دقيق . وذكر أسماء مجالس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس السبعين كاملة فى حين ذكرها المؤرخون الآخرون ناقصة متناقضة .

وقد أخذ ابن القطان عن كثير من المؤرخين الذين سبقوه فيما كتبه عن تاريخ المغرب ، السابق للحقبة التى كتب فيها كتابه فى عهد الموحدين .

فمن الكتب التى أخذ عنها[١] . كتاب فضائل المهدى لأبى القاسم المؤمن المصرى ، وكتاب لابن الراعى لم يورد اسمه . وكتاب المغرب فى محاسن أهل المغرب لليسع بن عيسى بن حزم بن اليسع الغافقى . وكتاب « المقياس فى أخبار المغرب والأندلس وفاس » لعبد الملك بن موسى الوراق ، وكتاب « النبذ المختارة من أخبار صنهاجة » لأبى الحسن على بن حمادة الصنهاجى . وكتاب « أخبار المهدى بن تومرت للبيذق » . وكتاب « المن بالإمامة » لابن صاحب الصلاة .

وقد أخذ كثير من المؤرخين عن ابن القطان . من بينهم ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية وابن الخطيب . كما أخذ عنه — من المستشرقين — المستشرق الأسبانى « أويثى » فى كتابه تاريخ الدولة الموحدية[٢] .

---

(١) عرفنا هذه المصادر عن الجزء المنشور الذى ذكرناه فقط ، وبالبداهة كان لكل عصر مصادره .

(٢) تاريخ الدولة الموحدية ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٦٦ .

وفى كتاب نظم الجمان عيوب . هى بعينها تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدى . منها : شدة التعصب للخلفاء الموحدين وعبارات الإجلال والتعظيم والملق . التى يكررها فى كل فقرة من فقرات الكتاب . ثم ركونه إلى غمط الدولة المرابطية حقها . ورميها بالتجسيم والكفر سيراً لنغمة المهدى التى استعملها لضرورة الدعاية بالبداهة، وكان المرابطون من أكثر دول المغرب بذلاً وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام بالأندلس . وكفاهم فخراً موقعة الزلاقة الخالدة التى نوهنا عنها بالبحث .

٥

التكملة لابن الأبار

اعتمدت كثيراً — فيما أوردت من تراجم — على كتاب التكملة لابن الأبار[1] الذى يعتبر من أعظم المؤرخين المحققين فى القرن السابع الهجرى ، وهذا الكتاب الجليل ، هو تكملة لكتاب الصلة الذى وضعه ابن بشكوال (ت٥٨٧) ليكمل به كتاب تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ، وقد انتهى ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » عند سنة ٥٣٤ هـ . فابتدأ ابن الأبار

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى. ولد ابن الأبار بمدينة بلنسية سنة ٥٩٧ هـ وكان أبوه « عبد الله » من علماء الأندلس ، فتلقى العلم عليه ، كما أخذ عن طائفة من علماء الأندلس وأدبائها منهم أبو الربيع بن سالم (ت سنة ٦٣٣ هـ) الذى لازمه ابن الأبار مدة طويلة لغزارة علمه وعلو مقامه وأبو الربيع هذا هو الذى حمل ابن الأبار على أن يضع كتاب « التكملة » وظهر فضل ابن الأبار بين الفقهاء ، كما اشتهر بين الأدباء ، كما عد أعظم مؤرخ فى عصره .

وقد تولى ابن الأبار قضاء مدينة « دانية » ولما سمع بشهرته الأمير أبو زيد الموحدى والى بلنسية استقدمه وأسند إليه منصب الكتابة ،وحين غلب على بلنسية « أبو جميل زيان بن مردنيش ، اتخذه كاتباً له أيضاً . ولكن القدر شاء أن تسقط بلنسية فى أيدى النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، فظل ابن الأبار بجانب الأمير « زيان » ووضع بيده شروط التسليم . بعد أن عجز ابن الأبار فى إثارة حمية الحفصيين بتونس لإنجاد بلنسية باسم الإسلام والإنسانية بقصيدته التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

ثم التحق ابن الأبار بخدمة الحفصيين بتونس . حيث تولى منصب الكتابة للسلطان أبى زكريا الحفصى ، ثم لابنه المستنصر بالله الذى اشتغل وزيراً له . ولكن نجمه ابتدأ فى الأفول إذ حسده الواشون . ودسوا إلى السلطان المستنصر بالله بعض أقوال وأبيات من الشعر فيها طعن فى السلطان وتحريض به . فأمر المستنصر بجلده ثم بقتله . وحملت كتبه فأحرقت بموضع قتله فى المحرم سنة ٦٥٨ هـ . يناير ١٢٦٠م.

فى كتاب « التكملة » من سنة ٥٣٥ هـ ، وانتهى به عند سنة ٦٣٦ هـ .
وقد طبع كتاب التكملة بمدريد فى مجلدين سنة ١٨٨٧ م كما طبع بالقاهرة
سنة ١٩٥٥ م .

ومن كتب ابن الأبار التى استعملتها فى بحثى هذا : كتاب « الحلة
السيراء » . وهو أيضاً يشتمل على طائفة كبيرة من تراجم رجال الثقافة
بالأندلس والمغرب ، ابتداء من القرن الأول الهجرى حتى أوائل المائة السابعة ،
ويمتاز كتاب الحلة بأنه يعرض كثيراً للأحداث التاريخية ، والمعارك الحربية
وقد عنى ابن الأبار فيه بذكر الأدباء واتباع تراجمهم بشيء غير قليل من
إنتاجهم الأدبى شعراً أو نثراً . ومن هنا اعتبر كتاب الحلة السيراء ضمن
مصادر الأدب الأندلسى بجانب كونه مصدراً تاريخيا . وهو فى هذا الاعتبار
شبيه بكتاب المعجب للمراكشى .

وقد طبع كتاب الحلة السيراء ، أخيراً بعناية المؤرخ المحقق الدكتور
حسين مؤنس . (القاهرة سنة ١٩٦٣ م) وأسلوب ابن الأبار فى كتابيه :
التكملة والحلة السيراء أسلوب أدبى وعلمى فى آن واحد . أما منهجه فهو التحرر
من اتباع الحوليات .

ولابن الأبار[١] آثار علمية سوى الكتابين المذكورين . منها : « درر السمط
فى أخبار السبط » وهو كتاب لم يصل إلى عصرنا ولكننا عرفناه بطريق المقرى
الذى كثيراً ما يقتبس منه . وكتاب « اللجين فى مراثى الحسين » وكتاب « تحفة
القادم » وهو تراجم لطائفة من الشعراء. وكتاب « إيماض البرق فى أدباء الشرق» ،
وهذه الكتب قد ورد ذكرها فى كتاب الحلة وكتاب التكملة .

---

(١) راجع ترجمة ابن الأبار فى نفح الطيب . وعنوان الدراية . والزركشى وغيرهم
فقد عنى به أكثر المؤرخين عنايتهم بابن الخطيب لتشابه حياتهما .

٦

القرطاس لابن أبي ذرع

استعملت هذا الكتاب كثيراً فى هذه الرسالة باسم: « القرطاس » اختصاراً. اما اسم الكتاب كاملا فهو: « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » كما جاء بالنسخة التى قرأتها[١].

وقد عنى رجال التاريخ بالمغرب الأقصى، كما عنى المستشرقون بترجمة هذا الكتاب ونشره[٢]، أما اسم المؤلف فقد أثبت على النسخ الأصلية والمترجمة

---

(١) وهى تلك التى حققها ونشرها الأستاذ محمد الهاشمى الفيلالى بالمطبعة الوطنية بالرباط سنة (١٣٥٥هـ–١٩٣٦م) وهذه التسمية قد اختارها الأستاذ الفيلالى من بين التسميات التى حملتها النسخ الخطية التى اطلع عليها. وهى النسخة التى نشرها المستشرق السويدى تورنبرج (Tornberg) وقد راجع الأستاذ الفلالى النسخة التى نشرها بكتب: نفح الطيب للمقرى. والعبر لابن خلدون. والمسالك والممالك لابن حوقل انظر (ص) حرف (ن) بالجزء الأول من القرطاس طبعة الرباط (١٩٣٦).

(٢) عنى مؤرخو المغرب بكتاب القرطاس. وجعلوه ضمن الكتب التى تدرسها جامعة القرويين وطبع على الحجر بمدينة فاس أربع مرات أولاها سنة ١٣٠٣ هـ.

وعثر به المستشرقون فترجموه ونشروه، واحتفظوا به فى مكتباتهم. وكان من أسبقهم إلى هذا بتس ديلكروا (Petis Delacroix) الذى ترجمه إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٩٣ م وترجمه إلى الألمانية (فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) فرانز فون. وترجم إلى البرتغالية وطبع فى اشبونه سنة ١٨٢٨ م. وفى سنة ١٨٤٣–١٨٤٦ م نشره المستشرق نورنبرج السويدى إذ اعتمد على عدة مخطوطات موجودة بمكتبات أوربا. فالمخطوط الأول وجده بمكتبة بمدينة أبسالة بالسويد (وتاريخ نسخه ١٠ من ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ) والمخطوط الثانى وجده بالسويد أيضاً تحت عنوان القرطاس فى عجائب فاس.

والمخطوط الثالث وجده بمكتبة جامعة ليدن بهولندة، وكان نسخه فى (١٥ شعبان سنة ٩٨٩هـ).

والمخطوطان الرابع والخامس بباريس. والمخطوطان السادس والسابع بجامعة أكسفورد=

باسم « ابن أبى زرع » غير أن النسخة المخطوطة التى تحتفظ بها جامعة أكسفورد تكشف لنا كثيراً عن اسم المؤلف . إذ يقول ناسخها : « يقول الفقيه الأصفى ، المؤرخ الأنتى ، الأريب أبو الحسن بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى الدار والقرار » وإنى أرى أن هذه النسبة ناقصة . فكلمة « أبو الحسن » كنية لاسم « على » كما هو متواضع عليه بالمشرق والمغرب . وعلى هذا يكون الاسم كاملا « أبا الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع » . وقد أسقط الناسخ الاسم اكتفاء بالكنية لشهرة المؤلف بها أو سقطت سهواً فى النشر أو فى النسخ . وقد وضع الكتاب فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان المرينى الذى تولى حكم المغرب فيما بين سنتى ٧١٠ هـ و ٧٣١ هـ ولكن المؤلف وقف بكتابه عند أحداث سنة ٧٢٦ هـ .

وكتاب القرطاس من الكتب التى ألفت فى عهد الدولة المرينية لذلك كان الاستشهاد به ضرورياً لتمحيص ما جاء به مؤرخو البلاط الموحدى فهو وكتاب المعجب للمراكشى سن الكتب التى يستند إليها الباحث فى شىء من الاطمئنان .

وليس من اليسير الحكم على أسلوب قدامى المؤرخين ، باعتبار أنهم ينقلون عن غيرهم فى أكثر الأحيان عبارات نصية . ولكنه قد بدا لى أن أسلوب ابن أبى زرع من الأساليب التاريخية الأدبية استناداً إلى ما ورد فى خطبة هذا الكتاب . فالخطبة قطعاً من إنشائه الخاص . وفيها يقول مثلا : « أطال الله بقاء مولانا الخليفة الإمام ، معلى الإسلام ورافعه ، ومذل الكفر وقامعه . تاج العدل وناشره ، وماحى الظلم وهاتكه ، ملك الزمان وسراج الإسلام .... لازال للخلافة يحيى أثرها ويجدد إظهـــارها ، ويرفع منارها ويجاو أنوارها . . . إلخ »[1] ، فإذا تجاوزنا عيب السجع وتكلفه ، باعتبار أن

= أحدهما تحت عنوان كتاب روض القرطاس فى تاريخ مدينة فاس ـ تلخيص الأنيس المطرب فى أخبار المغرب .

والثانى تحت عنوان الأنيس المضروب على روض القرطاس .

(١) القرطاس ج ١ ص ٣ .

السجع كان ميزة الأدب فى هذه العهود فإن عبارة الكاتب مختارة ، ومعانيه حسنة .

أما منهج الكتاب . فهو السير على طريقة سرد الأحداث دون التقيد بالحوليات فى أغلب الأحيان وفى بعض الأحيان نراه يلتزم الحوليات . ويكثر هذا فى الجزء الثانى الخاص بالمرابطين والموحدين وكتاب القرطاس . لايتناول تاريخ المغرب الإسلامى من بدئه . ولكنه يبتدئ بذكر الدولة الإدريسية التى حكمت المغرب ابتداء من سنة ١٧٢ ﻫ . وينتهى كما ذكرنا آنفاً عند أحداث سنة ٧٢٦ . ﻫ فهو يعالج التاريخ المغربى نحو خمسة قرون ونصف قرن من الزمان تناول فيها الكلام عن : ملوك الأدارسة الحسنيين ، وبناء مدينة فاس . وبناء جامعة القرويين . ثم جامع الأندلس بمدينة فاس . واستيلاء العبيديين (الفاطميين) على المغرب . ثم ثورة الحسن الحجام على العبيديين . وتنازع الأمويين والعبيديين على المغرب وعن إرجاع القائد جوهر الصقلى سلطان العبيديين بالمغرب .

ثم الكلام عن دولة زناته (دولة المغراويين واليفرانيين) بالمغرب ثم استدعاء المنصور بن أبى عامر حاكم الأندلس للأمير زيرى بن عطية ثم خلع زيرى ابن عطية . ثم بناء مدينة وجدة . ثم ذكر خلفاء زيرى بن عطية . ثم الكلام عن الدولة المرابطية فى نشأتها فى عهد يوسف بن تاشفين . وذكر جواز يوسف إلى الأندلس وهزيمته النصارى فى موقعة الزلاقة الحاسمة . ثم جوازه الثانى . ثم جوازه الثالث وضم الأندلس إلى المغرب . ثم الكلام عن القائد سيرى بن أبى بكر اللمتونى وملوك الطوائف ، وحادثة المعتمد بن عباد ثم الكلام عن علىّ بن يوسف والأحداث التى تمت فى عهده — ثم الدولة الموحدية وقيامها على يد المهدى ابن تومرت — ثم رحلة المهدى إلى المشرق . ورجوعه وشروعه فى الدعوة والجهاد. وبيعة المهدى وغزواته ووفاته ، وسيرته . ثم عن الخليفة عبد المؤمن بن على وغزوته الطويلة التى استولى فيها على المغربين الأقصى والأوسط ثم فتح الأندلس. ثم ثورة محمد بن هود الماسى . ثم ثورة أهل سبتة . ثم غزوة أفريقية . وفتح

مدينة بجاية . ثم إيقاع عبد المؤمن بأخوى المهدى . ثم نكبة الوزير أبى جعفر ابن عطية . ثم تخليص المهدية من أيدى النصارى وفتح غيرها من مدن أفريقية. ثم جواز عبد المؤمن إلى الأندلس ثم إنشاء عبد المؤمن الأساطيل البحرية . وصفة عبد المؤمن وسيرته . وينهى ابن أبى زرع الجزء الثانى بذكر عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وذكر موقعة شنترين التى طعن فيها يوسف طعنة سببت موته سنة ٥٨٠ هـ .

أما الجزء الثالث الذى لم أستعمله فى هذه الرسالة . فقد ذكر فيه بقية خلفاء الموحدين والكلام عن ابتداء الدولة المرينية والسير بأحداثها حتى سنة ٧٢٦ هـ .

ويذكر ابن أبى زرع مصادره التى اعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب قائلا : « فألفت هذا المجموع المقتضب ، وانتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمد على صحتها ، والمرجوع إليها ، سوى مارويته عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب . وقيدته عن الرواة الثقات الأنجاب ... إلخ .

وهذه العبارة المقتضبة لاتكشف لنا عن أسماء المؤلفين الذين اعتمد عليهم. غير أننى استطعت أن أتصيد بعض أسماء هؤلاء المؤلفين فمنهم محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى . صاحب كتاب الإكليل فى الدولة الحميرية . ومنهم ابن الكلبى . والبرنسى . وابن مطروح وابن الفياض . ولم نعرف شيئاً عن ميلاده أو مماته . على أننا نرجح أنه ولد فى النصف الأخير من القرن السابع وأنه توفى حوالى سنة ٧٣٦ هـ وهى السنة التى وقف بكتابه عندها .

٧

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى

ومن الكتب الجامعة التى استعملتها فى كثير من مواضيع الرسالة . كتاب نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب للمقرى[1] ويعتبر هذا الكتاب خير

---

(١) هو الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيش ابن محمد المكنى بأبى العباس المقرى التلمسانى المالكى نزيل فاس ثم القاهرة . المؤرخ المحدث المفسر الأديب .

ولد بتلمسان من أعمال الجزائر ، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم ودرس الدين وعلوم اللغة والأدب والتاريخ ومن أساتذته عمه الشيخ الجليل أبو عثمان بن سعيد بن أحمد المقرى مفتى تلمسان . وكانت مدينة تلمسان حين نشأ المقرى فى يد الأتراك العثمانيين . فضاق المقرى بها ذرعاً ، وارتحل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى . وأخذ يدرس لطلبته ما يريدون من أدب أو تاريخ أو حديث ، ولما ذاع صيته ولاه السلطان المنصور السعدى منصب الفتوى بمدينة فاس ، ولكن الفوضى شملت بلاد المغرب بعد وفاة المنصور سنة ١٠١٢ هـ فترك المقرى بلاد المغرب ، وخرج إلى المشرق ليحج بيت الله . وظل بعد الحج ينتقل بين دمشق ومصر ، ثم رأى أن يستقر بمصر . ويقول فى ذلك « ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور » (ج ١ ص٧٥ نفح) وتزوج من السادة الوفائية ، ويبدو أن المقرى لم ينعم بالإقامة بمصر إذ يقول :

يا أهل مصر وجدت أيديكم ... فى بذلها بالسخاء منقبضة
لما عدمت القرى بأرضكم ... أكلت كتبي كأننى أرضه

ثم أنشد يتحسر على ماضيه قائلا :

تركت رسوم عزى فى بلادى ... وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتها بالذل فيها ... وقلت لها عن العلياء صومى
ولى عزم كحد السيف ماض ... ولكن الليالى من خصومى

وتوفى المقرى بالقاهرة ودفن بها فى سنة ١٠٤١ هـ .

مؤلف قديم تناول الأندلس الإسلامية بالإيضاح والتفصيل فى جوانب عدة ، ومن محتوياته وصف الأندلس وفتح المسلمين إياها ، ثم وصف مدنها الكبيرة مثل قرطبة ، وسرقسطة وأشبيلية ، ومالقة ، وأشبونة ، والمرية ، ووادى آش و . . إلخ . ثم الكلام عن زوال ملك بنى أمية بالمشرق ، وقيام دولة بنى مروان أو الخلافة الأموية بالأندلس ، والتحدث عن هؤلاء الخلفاء ، ثم عن دولة بنى عامر . ثم عن قيام دول ملوك الطوائف . مثل دولة بنى حمود العلويين ، ودولة بنى عباد ، ودولة بنى ذى النون ودولة بنى هرد . . إلخ ؛ ثم تكلم المقرى عن قيام دولة المرحدين بالأندلس ، وتحدث بإسهاب عن الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب وتلاميذه ، وتناول دولة بنى الأحمر ، ولم يغفل ذكر الحياة الاجتماعية بالأندلس ، إذ تكلم عن قصور قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، وعن مجالس الأنس بها ومنتديات الأدب . ومحافل الشراب كما وصف كثيراً من الحالة الفنية . فوصف المدن ولاسيما قرطبة ومساجدها ومبانيها ومدينة الزهراء وقصرها ومسجدها ، وزخارف صندوق عثمان بن عفان — رضى الله عنه — الذى نقله عبد المؤمن إلى الغرب كما ترجم المقرى لطائفة من رجال الدين والأدب والعلم ، من بينهم : يحيى بن يحيى الليثى راوى الموطأ عن مالك . (ورائد مذهب مالك بالأندلس) والإمام ابن حزم الأندلسى ، وأبو الوليد الباجى وابن دحية الكلبى ، والصوفى العظيم محيى الدين بن عربى ، والعارف بالله عبد الحق بن سبعين ، كما ترجم لأسرة بنى زهر الذائعى الصيت فى عالم الطب ولأسرة بنى سعيد ، التى تداول منها خمسة أجيال فى وضع كتاب : المغرب فى حلى المغرب ، والمشرق فى حلى المشرق .

وتناول المقرى — بجانب كلامه عن الأندلس والمغرب — بعض المواضيع الشرقية ، فوصف مدينة دمشق ، كما شاهدها ، وكما ذكرها بن جبير فى رحلته . كما ذكر موازنة أدبية شعرية بين الشام ومصر .

وقد نهج المقرى طريقة الكلام عن الأحداث فكان يسير وراء الحادثة حتى تنتهى ، وإن استوعبت عدة سنوات ولم يتبع طريقة الحوليات .

أما أسلوبه فكان متحرراً من المحسنات البديعية ومن ذلك قوله : « وأما أهل الأندلس فى فنون العلم فتحقيق الإنصاف فى شأنهم أنهم أحرص الناس على التميز . فالجاهل الذى لم يوفقه الله فى العلم يجهد نفسه فى أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس » ، وقد ينقل تعبيراً أدبياً عن بعض المؤرخين كقوله : قال الشقندى : « غرناطة دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل » .

وقد أخذ المقرى عن كثير من المؤرخين الأصيلين مثل : ابن صاحب الصلاة ، والبكرى ، وابن أبى زرع ، وابن خلدون ، وابن رشيق ، وابن الفرضى ، وابن دحية ، وابن بسام .

وللمقرى كتب كثيرة سوى كتاب نفح الطيب مثل : « عرف الطيب فى أخبار ابن الخطيب » و« فتح المتعال » الذى وصف فيه نعل النبى – صلى الله عليه وسلم – و« إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » . و« أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » و« عرف النشق فى أخبار دمشق » و« روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » ، و« الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين » .. إلخ .

وقد اختلف عدد أجزاء « كتاب نفح الطيب » باختلاف الطبعات ، فمثلاً كان عدد أجزائه أربعة فى طبعة مصر سنة ١٢٧٩ هـ ١٧٦٢ م ثم طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعى سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م مصر أيضاً فى تسعة أجزاء كما طبع فى سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ فى عشرة أجزاء .

٨

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : للسلاوى

هذا الكتاب من بين الكتب التى ورد ذكرها كثيراً فى البحث ، ويعتبر السلاوى[1] رأس طبقة المؤرخين المحدثين بالمغرب وكتابه « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » يعتبر المورد الأول لمؤلفى التاريخ المدرسى بخاصة ؛ ويكاد هذا الكتاب يغنى رواد التاريخ بالمغرب عما سواه من المصادر القديمة . ويرجع السبب فى هذا إلى أن السلاوى قد أورد فى كتابه المذكور آراء مشاهير مؤرخى المغرب فى العصور الوسطى مثل ابن أبى زرع ، والمراكشى . وابن خلدون . وابن عذارى وابن الخطيب ثم ابن الأثير وابن خلكان . وصاحب الحلل الموشية وأصحاب البحوث لايكفيهم أن يقفوا عند حد ما يورد السلاوى للمحدثين ، إذ يرون من واجبهم الرجوع إلى المصادر الأصلية ، ولكنهم يستفيدون من السلاوى مجرد التنبه إلى أن الفكرة التاريخية كائنة بمصدر معين ، ومن هنا كان الاستشهاد بالسلاوى محدوداً ، إذ أنه مؤرخ ناقل فى أغلب الأحيان . ولكنه كذلك يبدو صاحب رأى أصيل فى بعض المسائل ، ولاسيما

---

(١) هو الشيخ أحمد بن خالد الناصرى السلاوى (نسبة إلى مدينة سلا أقدم مدن المغرب الأقصى) . وكان الشيخ أحمد من فقهاء المالكية المتمسكين بمذهب السلف الصالح . وفى الوقت ذاته قد أخذ بأطراف الثقافة الحديثة فدرس التاريخ والجغرافيا وألم بكثير من علوم الرياضة . ولهذا استخدمه المخزن (الحكومة) فتقلب فى عدة وظائف نال فيها إعجاب سلاطين البيت العلوى الشريف . حتى انتهى أمره مستشاراً للسلطان الحسن الأول الذى كان من أعظم سلاطين البيت العلوى الذى يحكم المغرب الآن .

وكان السلاوى تواقاً إلى علوم الدين محبًّا أن ينفع الناس بها ، فكان كثيراً ما يقوم بدروس الوعظ والإرشاد فى المساجد ابتغاء مرضاة الله وكان له عشاق كثيرون درسوا عليه الفقه والحديث والتصوف .

وللسلاوى عدة كتب « صوفية » وتاريخية وأدبية . وفقهية . عدا كتابه الذى نحن بصدد الكلام عنه ، وتوفى السلاوى بالمغرب فى سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٠ م .

المسائل الدينية . فالسلاوى – بجانب كونه مؤرخاً – فقيه سلفى محافظ ؛ ولهذا نراه يبغض الدعوة الموحدية ويمقت صاحبها المهدى بن تومرت الذى حمل مبادئ التوحيد الكلامى إلى المغرب . ويحض على التمسك بمذهب السلف الصالح ، الذى لايؤول الآيات المتشابهات – ويوكل الأمر فيها لله مع الإيمان بتنزيه الله . ويقول السلاوى : وهو (أى مذهب التسليم لله) والله أحسن المذاهب . ولله در القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شئ عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا وتأويلنا فهم اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفناً فإنها لتسليم دين المرء خير المراكب [1]

ومن آراء السلاوى الأصيلة . دفاعه عن القاضى عياض الذى وقف من الموحدين موقفاً أقرب إلى رجال السياسة منه إلى رجال الدين ، وخلاصة هذا الموقف ، أن عبد المؤمن – فى أثناء غزوته الكبرى – عرض مبادئ الدعوة الموحدية على أهل السنة . فرفضوها بزعامة القاضى عياض ، فلما قدر الله أن يتردى السلطان تاشفين بفرسه فى حفرة ويقتل ، وتنهار بقتله جبهة المرابطين ، ويفتح عبد المؤمن « تلمسان » و« وهران » و« فاس » دون عناء كبير – أقول حين ذلك أسرع القاضى عياض إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، معلنا قبول الدعوة الموحدية هو وأهل سبتة . فلما قامت ثورة « الماسى » واستفحلت ، وكادت تقضى على أمر الموحدين . أسرع القاضى عياض فى العبور إلى الأندلس وطلب من القائد المرابطى « يحيى بن غانية » أن يرسل والياً مرابطياً إلى سبتة . فأرسل إليها يحيى بن أبى بكر المعروف بالصحراوى . ولما علم عبد المؤمن بهذا بادر بجيشه إلى لقاء الصحراوى بسبتة . غير أن الصحراوى لم يقو على ملاقاته . وطلب الأمان من عبد المؤمن . وحينئذ أسقط فى يد القاضى عياض هو وأهل سبتة وندموا على ما فعلوا . فعفا عبد المؤمن عن

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٢٦ – ١٢٨ .

أهل سبتة . وفى مقدمتهم القاضى عياض . هذا موقف عجيب للقاضى عياض . أظهره أمام التاريخ بأنه رجل متقلب .

ولكن السلاوى لايدين القاضى عياض أشهر فقهاء المالكية فى عصره . ويدافع عنه قائلا : . . .واعلم بأن ما صدر عن القاضى عياض – رحمه الله – فى جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى الأحق لهم فى الأمر والإمامة ، وإنما هم (أى الموحدون) متغلبون . وهذا أمر لاخفاء به كما هو واضح » . ثم أخذ « السلاوى » يبرر تقلبات القاضى عياض من الرفض لدعوة الموحدين ، ثم القبول لحكمهم ، ثم النكث ، ثم طلب العفو كما مر ، فقال : « ولما كانت شوكة " عبد المؤمن " و " تاشفين بن على " أمير الوقت لا زال قائم العين – أى لم يهلك بعد – . امتنع القاضى عياض – رحمه الله – عن مبايعة " عبد المؤمن " ودافعه عن سبتة ، إذ لاموجب لذلك – أى لبيعة عبد المؤمن – لأن بيعة تاشفين فى أعماقهم وهو لازال حيًّا ، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب ، وأما ما غالط به المهدى – رحمه الله – من أن المرابطين مجسمة وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار – فضلا عن أن تكون طاعتهم واجبة – فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه . . ولما قتل تاشفين ، وفتحت تلمسان وفاس ، وقويت شوكة عبد المؤمن ، بايعه القاضى عياض حينئذ ، وقبل صلته لأن من قويت شوكته وجبت طاعته ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام " الماسى " عليه ، وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضى عياض بأهل سبتة عن بيعته – أى عن بيعة عبد المؤمن – إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق فى الإمامة بطريق الأصالة ، ولم يأخذ القاضى عياض بدعوة الناس لأنه ثائر أيضاً و . . . . . . فالحاصل أن ما فعله القاضى عياض أولا وثانياً وثالثاً كله صواب موافق الحكم الشرعى . وهكذا ينبغى أن تفهم أحوال أئمة الدين ، وأعلام المسلمين رضى الله عنهم ، ونفعنا بعلومهم »[1] . وهكذا نرى السلاوى يطرح صفته التاريخية ، ويلبس ملابس رجال الفقه

(١) الاستقصا ص ١٠٢ – ١٠٤

ليدافع عن شيخ فقهاء المالكية فى القرن السادس الهجرى .

ولكن هذا الدفاع الفقهى المجيد ، لاينجى القاضى عياض إلا فى ميدان المالكية . فربما جانب القاضى عياض الصواب حين نكث ببيعة عبد المؤمن ، التى كان قبولها قد محا آثار بيعة المرابطين ، وجانب الحكمة حين تسرع فى عبور البحر ليعلم ابن غانية بأن الفرصة قد سنحت لعودة الحكم المرابطى وعبد المؤمن كانت شوكته ما تزال قوية ولم يتغلب عليه « الماسى » بصفةنهائية . أما عبد المؤمن فقد بدا سياسياً محنكاً حين عفا آخر الأمر عن القاضى الشيخ ثم فرض عليه بأن يبقى إلى جانبه بمراكش بحجة الحاجة إلى استشارته فى المسائل الدينية ، وهكذا قدر للقاضى عياض أن يلاقى ربه بمراكش سنة ٥٤٣ هـ ، ومن الممكن أن نستفيد بالقطعة السابقة — فى الحكم على أسلوب السلاوى الخاص — فهو يقترب كثيراً من أساليب الفقهاء ، وأقول أسلوبه الخاص ، لأن أسلوب كتابته « بالاستقصا لأخبار المغرب الأقصى » لا يمكن الحكم عليه من خلالها إذ كان السلاوى ينقل من كثير من المؤرخين . كابن خلدون ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن الخطيب ، وابن أبى زرع وابن رشيق ، وابن عبد المنعم الحميرى . وابن دحية وابن اليسع ، وأبى عبد الله اليفرنى ، وابن عبد العظيم .

أما منهجه التاريخى . فقد سار فى الأغلب على طريقة سرد الأحداث وتعدد الروايات فيها . على أنه كان فى نهاية الأبواب يلتزم أحياناً طريقة الحوليات التى كانت تشتمل على أحداث بارزة كأن يقول : فى سنة ٢٦٠ هـ عم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب ، وأفريقية (تونس) ومصر والحجاز . . فهلك خلق كثير . وفى سنة ٢٦٦ هـ كان بالسماء حمرة شديدة من أول الليل إلى آخره مما لم يعهد من قبل ، وفى سنة ٢٦٧ كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها . وفى سنة ٢٨٥ هـ كانت المجاعة الشديدة التى عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً[١] .

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٨٠ .

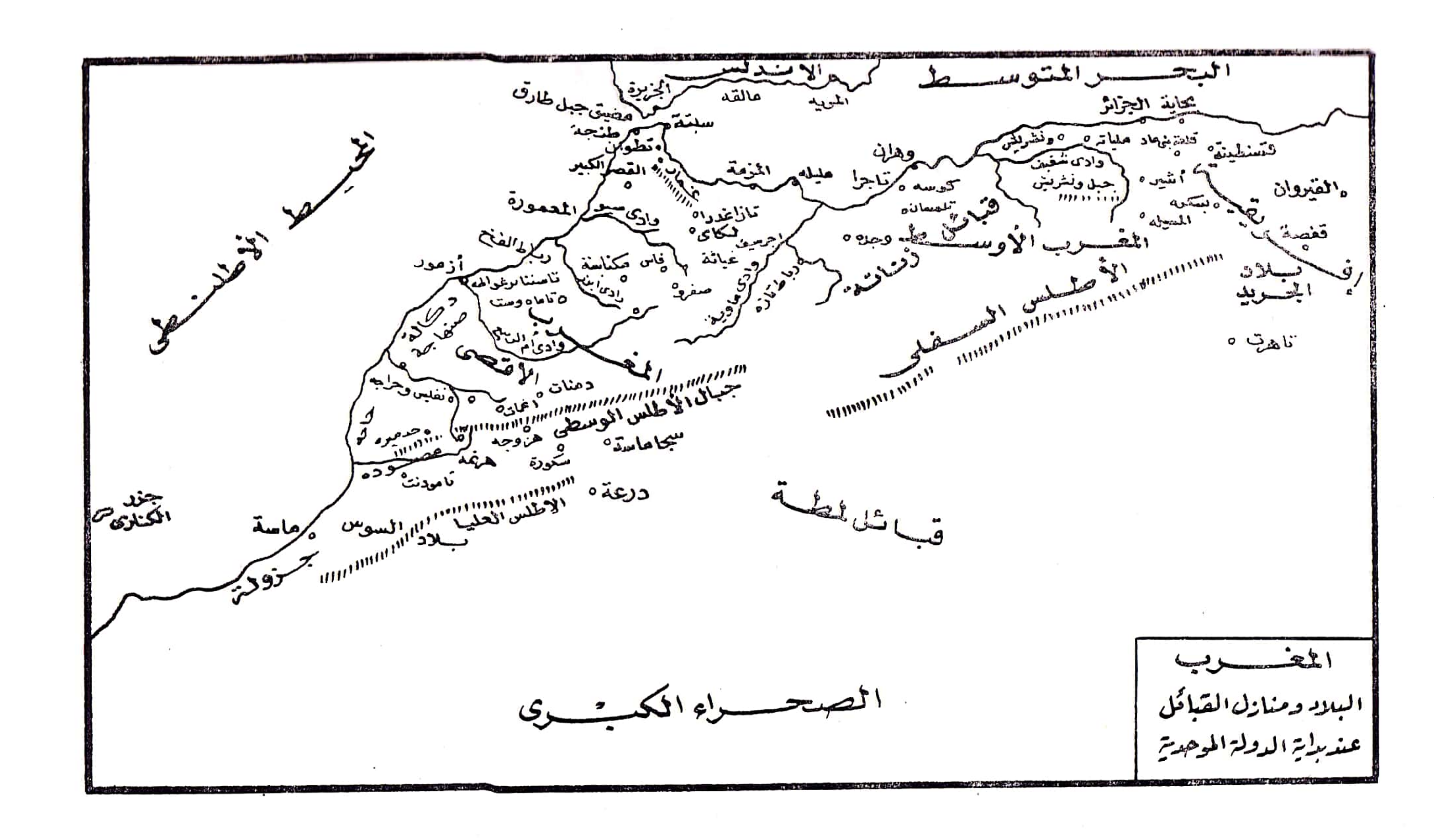
وليس معنى هذا السرد القائم على السنين أن السلاوى من أنصار طريقة الحوليات ، بل كان يقصد إبراز الأحداث الكبرى .

وآخر نسخة استعملتها من كتاب السلاوى . هى طبعة سنة ١٩٥٤ . التى خرجت فى تسعة أجزاء . وليس هذا المقام متسعاً لذكر محتويات الأجزاء التسعة . ولكنه من الممكن أن نذكر أهم ما اشتمل عليه الجزءان الأول والثانى باعتبارهما قد استشهد بهما فى هذا البحث :

فأهم ما جاء فى الجزء الأول . ترجمة للمؤلف بقلم ولديه . وذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه الراشدين . ثم نسب البربر وأصلهم . وتقسيمهم . وذكر بعض أمصار المغرب القديمة ، ثم ولاية عمرو ابن العاص ، وولاية عبد الله بن أبي السرح ، ومعاوية بن حديج : وعقبة ابن نافع (فاتح المغرب الأقصى سنة ٦٢ ﻫ) وذكر من دخل المغرب من الصحابة . وولاية زهير بن قيس البلوى . وحسان بن النعمان وموسى ابن نصير وبقية ولاة المغرب من قبل الأمويين والعباسيين بالمشرق . ثم ذكر الخوارج بالمغرب ودولة بنى الأغلب ومذاهب أهل المغرب ، والدولة الإدريسية . وبناء مدينة فاس . ثم استيلاء العبيديين على المغرب . ثم تغلب عبد الرحمن الناصر على المغرب . ثم الكلام عن دولة زناته (المغراويين وبنى يفرن) بالمغرب .

وأما الجزء الثانى فقد تحدث فيه عن الدولة المرابطية : ثم عن الدولة الموحدية بتفصيل .

* * *


المغرب
البلاد ومنازل القبائل
عند بداية الدولة الموحدية
البحر المتوسط
الأندلس
المحيط الأطلنطي
الصحراء الكبرى
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
قبائل لمطة
جبال الأطلس الوسطى
الأطلس السفلى
الأطلس العليا
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
القصر الكبير
المحمورة
وادي سبو
رباط الفتح
أزمور
فاس
مكناسة
صفرو
تازا
وهران
مليلة
تاجرا
تلمسان
وجدة
زناتة
بجاية
الجزائر
قسنطينة
القيروان
قفصة
بلاد الجريد
تاهرت
المسيلة
أشير
سجلماسة
درعة
هزرجة
سكورة
أغمات
دمنات
دكالة
صنهاجة
تامسنا
برغواطة
السوس
ماسة
جزولة
جزر الكناري
بلاد
تامودنت
حاحة
مصمودة
هنتمة
نفيس
غمارة
مالقة
المرية
الجزيرة
جبل ونشريش
وادي شلف
مليانة
قلعة بني حماد
إفريقية

البَابُ الأوَّل

نشأة الموحدين

(ا) ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية

(ب) عبد المؤمن بن على مؤسس الدولة الموحدية

(١) ابن تومرت إمام الموحدين

١

الموحدون – فى بادئ أمرهم – طائفة دينية إصلاحية ، كونها محمد المهدى بن تومرت المغربى السوسى المصمودى الهرغى [١] ، فى مستهل القرن السادس الهجرى [٢] ، ويكاد المؤرخون يتفقون على أن ابن تومرت ولد فى الثلث الأخير من القرن الخامس الهجرى ولكنهم يختلفون اختلافاً بيناً فى تحديد سنة ميلاده [٣] .

---

(١) هذا باتفاق جمهور المؤرخين . ولكننا نرى ابن أبى زرع ينفرد بذكر رواية لمؤرخ قديم لم يذكر اسمه . تقول بأن ابن تومرت من قبيلة « جنفيسة » المصمودية ولم أر هذا فيما قرأت من مصادر أصيلة مطبوعة أو مخطوطة (انظر روض القرطاس لابن أبى زرع ج ٢ ص ١٠٤ ط الرباط ١٩٣٦ م .

(٢) الثابت أن الدعوة الموحدية قام بها ابن تومرت بعد انتهاء دراسته بالمشرق وكان ذلك سنة ٥١١ هـ فى رأى ابن خلكان ، أو سنة ٥١٢ هـ فى رأى ابن خلدون أو سنة ٥١٤ هـ فى رأى الزركشى .

(انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ ص ١٣٨ – ١٣٩ ، وأخبار البربر لابن خلدون ج ٦ ص ٣٦٢ وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى ص ٢–٣ .

(٣) يفهم من كلام ابن الأثير أن مولد ابن تومرت يقع بين سنة ٤٦٩ وسنة ٤٧٣ هـ إذ يذكر أن ابن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ باتفاق المؤرخين ، عاش إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة .

ويقول ابن خلكان . إنه ولد فى العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ .

ولعل الأستاذ عبد الله جنون المؤرخ المغربى المعاصر ، ارتضى رأى ابن خلكان . إذ يذكر أن ابن تومرت خرج من قبيلته رغبة فى طلب العلم سنة ٥٠٠ هـ وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان هذا الاختلاف أمراً مقضياً ، لأن ابن تومرت ولد فى قبيلة جبلية، وقلما يعنى الجبليون بتدوين ميلاد أبنائهم ولا سيما فى العصور الوسطى .

وينحدر ابن تومرت من أسرة بربرية من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة الكبرى التى تعتبر أكثر القبائل البربرية عدداً ، وأشدها بأساً ، وأعرقها نفوذاً فى الجاهلية والإسلام[١] وكانت أسرة ابن تومرت تسكن قرية « إيجلى »[٢]، أو « إيكلى أو إيكاين »[٣] وهى لهجات مختلفة لاسم واحد كما ترى.

وهذه القرية تقع على سطح جبل « إيجليز » ولعل هذا الجبل — الذى هو جزء من الأطلس الصغير — قد أطلق عليه الموحدون هذه التسمية المحلية أخذاً من إسم « إيجلى » تلك البلدة التى أنجبت المهدى بن تومرت صاحب دعوة الموحدين . إذ هناك تقارب لفظى شديد بين كلمتى إيجلى وإجليز .

ويحاول تراس (Terrasse) أن يحدد موقع قرية إيجلى هذه . فيقول : (ولد ابن تومرت البربرى الأصل فى قرية « إيجلى » التى ربما يكون مكانها فى شمال الأطلس الصغير — Anti Atlas —)[٤] .

وكان أكثر منازل هذه القرية منحوتاً فى الصخر ، أو امتداداً لكهوف

= (انظر الكامل لابن الأثير ج١٠ ص٢٠٥) . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ ص ١٣٨ . ومدخل إلى تاريخ المغرب للسيد عبد الله جنون ص ٤٨ .

(١) يقول السلاوى : وفى تقسيم الفرنج أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمالات ، عمالة فاس وعمالة مراكش؛ وعمالة السوس ، وعمالة درعة ، وعمالة تافيلالت. ودار الملك بالمغرب تارة فاس وتارة مراكش وهو فى الأغلب ديار المصامدة من البربر ، ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ، ومضغرة ، وأوربة ، وغيرهم ، لكنهم قليل بالنسبة إلى المصامدة (الاستقصاء ج ١ ص ٧٢–٧٣) .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٨٧ .

(٣) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣ .

(٤) Henri Terrasse : Histoire Maroc, p. 202, Paris 1954.

مهذبة على نحو ماكان عليه كثير من قرى جبال الأطلس فى العصور الإسلامية الأولى[١].

وينتسب ابن تومرت إلى أسرة ذات دين وحسب ونسب . وفى هذا يقول ابن خلدون (أصله من هرغة من بطرن المصامدة ، وكان أهل بيته، أهل نسب ورباط)[٢] ويبين شارل أندريه جوليان (Ch. A. Gulien) منزلة والده فى قومه ، فيذكر أن ابن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطرن مصمودة ، وأن والده كان رئيساً لقبيلته[٣].

ولصاحب الدعوة الموحدية (محمد المهدى بن تومرت) نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وجدت بخطه[٤]. وأنصار ابن تومرت لايعارضون فى انتسابه للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل هم يؤمنون بمهدويته ، والنسبة النبوية شرط أساسى فى المهدى المنتظر ، ومن هنا نرى المؤرخين الذين نشأوا فى كنف الدعوة الموحدية يؤكدون هذه النسبة النبوية ، وفى مقدمة هؤلاء، أبو بكر الصفهاجي المعروف بالبيذق إذ يقول : (ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم أنه « أى ابن تومرت » هو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل ابن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا نسبه الصحيح)[٥].

بينما نرى ابن أبي زرع الذى نشأ فى عهد المرينيين (الذين حكموا المغرب بعد الموحدين) يرتاب فى نسبة المهدى بن تومرت للنبى الكريم فيقول :

---

(١) ترجمة الدكتور السيد محمود عبدالعزيز وآخرين (سلسلة الألف كتاب رقم ٨٩)
Levi Provençal Islam D'occident
(الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٢٦٥) .

(٢) ابن خلدون : العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ ط بيروت ١٩٥٩ .

(٣) Julien: Hist. de L'Afrique, p. 90-92, Paris 1955.

(٤) المراكشى : المعجب ص ١١٥ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤هـ .

(٥) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت : نشر ليڤى بروڤنسال ص ٢١ .

(أما المهدى القائم بدولة عبد المؤمن بالمغرب الأقصى فهو على ما ذكره المؤرخون لدولتهم . محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء ابن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم) ثم يزيد قائلا : (وقيل هو دعى فى هذا النسب الشريف ذكره ابن مطروح القيسى فى تاريخه وقال : هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغى)[1] .

وذكر ابن خلدون عن ابن رشيق ، وابن القطان . أنه : (هو محمد ابن عبد الله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن عيسى ، فيما ذكره ابن رشيق وحققه ابن القطان)[2] .

وهذه السلسلة التى ذكرها ابن خلدون عن ابن رشيق وابن القطان مبتورة . فقد ذكرنا فيما سبق أن (البيدق) ذكر بعد الاسم (عيسى) — الذى بترت بعده السلسلة الآنفة الذكر — عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله .

وربما لم يدرك العلامة ابن خلدون هذا البتر ، بدليل أنه ذكر رواية أخرى تؤيد نسبة ابن تومرت النبوية ولو كان قد وضع يده على هذا الجزء المبتور لاكتفى بالرواية السابقة فى تأييد النسبة النبوية — إذ يقول ابن خلدون : وزعم كثير من المؤرخين : أن نسبه فى آل البيت وأنه هو محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن

---

(١) كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠٤ ط الرباط ١٩٣٦ .

(٢) العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٥ .

ابن على بن أبى طالب أخى إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير من بنيه فى المصامدة وأهل السويس[١] .

ونرى كثيراً من المؤرخين المحدثين[٢] يميلون نحو تجريد ابن تومرت من نسبته النبوية إذ يرونه وقد ادعى المهدية مضطراً لأن ينتحل النسبة المحمدية ، وهو بلا شك ينتمى إلى قبيلة بربرية عريقة فى بربريتها وهى قبيلة مصمودة الكبرى وشتان مابين النسبة البربرية والنسبة النبوية ، ولكن ابن خلدون ، قد أزال هذا اللبس — كما أسلفنا — إذ يقول فى ختام سلسلة نسب ابن تومرت : « . . . ابن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب أخى إدريس الأكبر ، الواقع نسب الكثير من بنيه فى المصامدة وأهل السوس » ثم يذكر بن خلدون رأياً آخر لطائفة من المؤرخين تقول بأن سليمان هذا ليس أخاً لإدريس الأكبر ، وإنما هو من قرابته اللاحقين به إلى المغرب . ويعلق ابن خلدون على ماسبق بقوله : « وعلى الأمرين — أى على أن سليمان هذا أخ لإدريس الأكبر أو من قرابته — فإن نسبه — أى ابن تومرت — الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة وشجت عروقه فيهم ، والحم بعصبيتهم ، فلبس جلدتهم ، وانتسب بنسبتهم وصار فى عدادهم[٣] » .

وقد أيد هذا الرأى من المحدثين المرحوم عبد الحميد العبادى إذ يقول: (. . . ولكنه « أى ابن تومرت » كان فى الأصل من أحفاد العلويين الأدارسة الذين اندمجوا فى البربر ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وتطبعوا بطباعهم . فهو عربى الأصل ، بربرى الطباع والأخلاق)[٤] .

---

(١) العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٥ .

(٢) هم الفرنجة بصفة عامة مثل تراس وجوليان وليفى بروفنسان وجولدتسيهر ونسج على منوالهم الدكتور حسن محمود فى كتابه قيام دولة المرابطين .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ص ٤٦٦ .

(٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٨٢ — مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨ م .

٢

لم يفصح المؤرخون الأوائل عن مرحلة دراسة ابن تومرت الأولى . « فالبيدق » — وهو تلميذ ابن تومرت القائم بخدمته — لم يدون شيئاً من دراسة أستاذه الأولى ، ولم يشر إلى هذه الدراسة فى كتابه « أخبار المهدى بن تومرت » ويعتبر كتاب البيذق هذا الأصل الأول لتاريخ الموحدين ، ولذلك التزم كثير من الأوربيين مادته التاريخية لم يخرجوا عنها إلا قليلا مثل « جولدزهير (Goldzihr) وليفى بروفنسال (Levi Provençal) وسالفرنك (Salfranque) الذى يقول : « بداية ابن تومرت أمر مجهول وليس عنـــدنا معلومات مقطوع بصحتها إلا ابتداء من لقائه تلميذه البيدق « بتونس »[١]، وهو عائد من « المشرق »[٢] .

والمراكشى فى كتابه « المعجب » الذى يعتبر أيضاً من المصادر الموحدية الأصيلة ، قد أغفل دراسة ابن تومرت المغربية الأولى إغفالا تامًّا . ثم عرض لدراسته بالمشرق فى شىء كثير من الإيجاز حيث يذكر أن ابن تومرت قد رحل إلى المشرق فى شهور سنة ٥٠١ هـ فى سبيل طلب العلم وانتهى إلى مدينة بغداد ولقى أبا بكر الشاشى ، فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين . ثم يشك المراكشى فى دراسة ابن تومرت على الإمام أبى حامد الغزالى[٣] .

وابن القطان — وهو من أنصار دعوة الموحدين — لم يشر إلى هذه المرحلة من حياة ابن تومرت وحينما عرض لدراسته المشرقية ، لم يزد على أن قال : « قال

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت — ص ٥١ .

(٢) مذكرات سالفرنك فى تاريخ المغرب . مقرر المدرسة الإدارية العليا بالمغرب ١٩٦٠ م .

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — ص ١٧٨ — ١٧٩ .

الشيخ أبو يحيي زكريا بن يحيي بن وسنار . . . إن الإمام المهدى — رضى الله تعالى عنه — جاز البحر إلى الأندلس طالباً للعلم ، ووصل قرطبة، ثم مشى من قرطبة إلى المرية فدخل منها فى مركب إلى المشرق وغاب فى رحلته فى طلب العلم خمسة عشر عاماً ، فابتداء رحلته — رضى الله تعالى عنه — المذكورة على هذا كانت فى السنة الأولى من المائة السادسة أو التى قبلها لأن وصول الإمام المهدى — رضى الله تعالى عنه — من رحلته إلى بلاده كانت سنة ٥١٤ هـ »[١] ولكننا نرى المؤرخين الذين ظهروا بعد زوال الدولة الموحدية بالمغرب قد أشاروا إلى مرحلة دراسة ابن تومرت الأولى إشارات مجملة . فابن أبي زرع يذكر أن ابن تومرت كان فى أول أمره ، وابتداء حياته رجلا فقيراً[٢] . مشتغلا بطلب العلم وتحصيله[٣] . ويأتى بعده ابن خلدون . فيشير إلى هذه المرحلة الغامضة بقوله : « وشب محمد هذا ، قارياً ، محبًّا للعلم ، وكان يسمى " أسافو " ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد لملازمتها »[٤] .

وقد سار المؤرخون المحدثون على غرار الأقدمين بالبداهة ، فلم يعملوا على إزالة الغموض الذى اكتنف حياة ابن تومرت الدراسية الأولى . ولم يحاول أحدهم أن يستنتج مواد هذه الدراسة ، فنرى المؤرخ الفرنسى المعاصر شارل أندريه جوليان (Ch. A. Gulien) يردد عبارة ابن خلدون الآنفة الذكر ، دون أن يزيد عليها شيئاً مذكوراً إذ يقول : « عرف ابن تومرت منذ صغره بتدينه حيث كان يذهب إلى الجامع بادية عليه ملامح العلم قبل الأوان . وذلك ما جعله يسمى " أسافو " أى المشعل ، ومما لاشك فيه أن سيطرته أخذت تتجلى على

---

(١) نظم الجمان — مخطوطة الأسكوريال — ورقة رقم (٣) .

(٢) فى نسخة الأسكوريال « فقيها » .

(٣) روض القرطاس ج ٢ — ص ١٠٤ .

(٤) تاريخ الدولة الإسلامية ص ٢٩٨ (ط : الجزائر — ١٨٤٧م) .

أقرانه ، وأن ذلك لفت إليه أنظار أهل قريته وقبيلته »[١] .

ثم يحاول ليڤي بروڤنسال أن يلقى الأضواء على هذه المرحلة الغامضة . إذ طفق يبين المستوى العلمى للمغرب فى أثناء طفولة ابن تومرت ، أو على وجه التحديد ، فى أثناء حكم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى تولى حكم المغرب من سنة ٤٥٣ هـ إلى سنة ٥٠٠ هـ وهى الفترة التى نشأ فيها ابن تومرت والتى سبقت رحلته إلى المشرق بإجماع الآراء . فيذكر ليڤي بروڤنسال . أن مدينة مراكش عاصمة مملكة ابن تاشفين ، كانت من أعظم عواصم العالم الإسلامى فى هذه الفترة ، كما كانت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية[٢] وبروڤنسال على صواب فى هذا ، إذ أن يوسف بن تاشفين بعد انتصاره فى موقعة الزلاقة الشهيرة على نصارى الأندلس . طوى الأندلس تحت جناحه . وبطش بملوك الطوائف فصار الأندلس تابعاً للمغرب فى الحكم ، واستقدم يوسف بن تاشفين مشاهير العلماء والأدباء وأهل الفن من الأندلس وهيأ لهم الإقامة الطيبة بالمغرب . وفى هذا يقول المراكشى : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة " الأندلسية " من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم »[٣] .

ولكن مؤرخاً واحداً لم يحاول أن يستنتج مواد الدراسة فى هذه الحقبة . فعولت على استنتاج هذه المواد مما كتبه الأستاذ محمد الفاسى عن دراسة القاضى عياض المعاصر لابن تومرت على وجه التحديد . يقول الأستاذ الفاسى : ... « ولد القاضى عياض بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ هـ . وكان بها أواخر القرن الخامس علماء أجلة . . . فدرس القرآن وسائر علومه . والحديث والفقه والأصول ، وعلوم اللسان والأدب . . . إلخ »[٤] .

---

(١) Hist. de L'Afrique de Nord. p. 92. Paris 1940.

(٢) الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة الدكتور السيد محمد عبد العزيز وآخرين.

(٣) المعجب — ص ١٠٤ .

(٤) القاضى عياض : مقال بمجلة الثقافة المغربية ص ١٠٦ (أكتوبر ١٩٤١) .

ومما لا شك فيه أن تلك المواد التى كانت تدرس بمدينة سبتة — موطن دراسة عياض — هى بعينها التى كانت تدرس بمراكش ، وفاس ، وبلاد السوس التى درس بها ابن تومرت فى أول أمره . إذ كانت كلها تدور فى فلك الدراسة الدينية .

وكذلك، فهذه هى المواد التقليدية التى كانت تدرس فى عامة العالم الإسلامى فى العصور الوسطى . وبذلك نستطيع أن نقرر أن ابن تومرت درس بالمغرب القرآن وعلومه والحديث والفقه والأصول ، وعلوم اللسان والأدب . والمقصود بالأصول هنا ، أصول الفقه لا أصول الدين (علم الكلام) . لأن علم الكلام كانت دراسته ممنوعة فى عهد المرابطين الذين نشأ ابن تومرت فى أيامهم .

وقد خرج ابن تومرت من المغرب مهاجراً فى سبيل طلب العلم فى بدء القرن السادس الهجرى[1] ويرى بعض المؤرخين أنه درس بقرطبة . ويرى آخرون أنه مر فقط ببلاد الأندلس . ثم ركب السفينة من ميناء المرية واتجه إلى الإسكندرية . وخرج منها إلى دمشق ، واستقر بمدينة بغداد مركز العلوم الإسلامية والثقافة الرفيعة على اختلاف أنواعها فى العالم الإسلامى عامة ، ثم درس بالجامع الأزهر بالقاهرة . ثم على الإمام الطرطوشى بالإسكندرية . وقيل كانت دراسته بمصر قبل أن يدرس ببغداد[2] .

وعلى أية حال فقد ظل ابن تومرت بالمشرق زهاء عشر سنوات متنقلا بين عواصمه فى سبيل طلب العالم . وقد أفاد من هذه الدراسة المشرقية علماً غزيراً فى العلوم الدينية واللسانية والعقلية . مما كان الكثير منه محظوراً تعليمه ببلاد

---

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب . ج ١ص ٣٠٣ . والحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٨٥ . والمعجب للمراكشى — ص ١٧٨ . والعبر لابن خلدون ج ٦ص٢٢٦ . والاستقصا للسلاوى ج ٢ص٧١ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . لأشباخ ص١٧٦— ومخطوط نظم الجمان لابن القطان ورقة رقم ٣ .

المغرب والأندلس أيام حكم المرابطين – بصفة خاصة – إذ كان المرابطون يعدون الدراسات الكلامية طريقاً إلى الكفر . فقد دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، إذ قرر الفقهاء فى عهد السلطان على بن يوسف بن تاشفين – الذى ظهرت الدعوة الموحدية فى عهده – تقبيح علم الكلام وكراهية السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه وأنه بدعة فى الدين ، بل ربما أدى إلى اختلال العقيدة .

هذا إلى أن علماء المرابطين أفتوه بإحراق كتب الغزالى ، ولا سيما كتاب « إحياء علوم الدين » لاشتماله على كثير من مسائل الفلسفة الكلامية . مما اضطر السلطان على بن يوسف إلى أن يصدر أمره فى جميع أنحاء مملكته ، بوجوب إحراق كتاب « إحياء العلوم » تنفيذاً لفتوى علمائه ، وقد أنذر بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال لمن وجد عنده هذا الكتاب ثم لم يسرع إلى إحراقه[1] .

وهذا يكشف عن مدى ما كان عليه المغرب أيام حكم المرابطين . من البعد عن تيار الحرية الفكرية التى كان يتميز بها الشرق الإسلامى حينئذ والتى اغترف من مناهلها العذبة محمد المهدى بن تومرت . ثم لم يقف به الأمر عند الحدود العلمية ، فقد اكتسب آراء وأفكاراً جديدة فى السياسة ، إذ جال فى أنحاء الخلافة الفاطمية التى كاد يمزقها الخلاف بين السنيين والشيعيين ، وعاش فى أحضان الخلافة العباسية وهى تقترب من نهايتها ، فلمس بنفسه ما عليه العالم الإسلامى من ضعف ووهن ، وامتلأ حسرة وألماً لسوء الحال الذى عليه الإسلام ، وربما كان ذلك سبباً فى قيام فكرة المهدوية بنفسه فامتلأ بالأمل فى أن يصبح هو المهدى المنتظر « الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا . كما ملئت ظلماً وجوراً » .

---

(١) المراكشى – المعجب – ص ١٧٢ .

ثم نظر إلى المغرب ، فرأى تخلف المرابطين فى ميدان التطور الفكرى ، وجمودهم عند طريقة السلف التى أضحوا يسيرون عليها تقليداً ، ولا يدركون روحها إدراك السلف الصالح إياها ، مما لا يحميهم من مظنة التجسيم لذات الله سبحانه وتعالى . فهم يحرمون دراسة علم الكلام الذى يتصدى لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية الكريمة[١] ومن لا يؤمن بتأويل المتشابه فهو مجسم وكافر — فى نظر ابن تومرت الذى تأثر كثيراً بالمعتزلة — والمرابطون لا يؤمنون بتأويل المتشابه فهم كفار مجسمون عنده . وعلى ذلك فالشرق والغرب جميعاً فى مأساة فى رأى ابن تومرت . الشرق متقدم علمياً ، ضعيف سياسياً واجتماعياً . والمغرب قوى عسكرياً ضعيف علمياً ، وفاسد عقائدياً. وهذه المعانى تؤرق ابن تومرت العالم الثائر ، وتؤجج جوانبه بالثورة على هذه الأوضاع ، ومن هنا نراه لا يتريث حتى يعود إلى بلاده . بل يقف خطيباً فى موسم الحج بمكة المكرمة . ويعلن ثورته على تلك الأوضاع الفاطمية الفاسدة التى أوهنت قوة الإسلام ، وأذهبت هيبته ، ثم على تلك المناقشات الجوفاء بين السنيين والشيعيين التى مزقت أواصر الوحدة الإسلامية

---

(١) فى القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيها تاما . وتباعد بين مشابهة الذات الالهية بالمخلوقات كقوله تعالى: « ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير... » . وقوله تعالى: « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» . وقوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . » الآية .

وآيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لمخلوقاته . وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى » وقوله تعالى: « يد الله فوق أيديهم » . وقوله تعالى: « وهو القاهر فوق عباده » وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدال بين علماء المسلمين . ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام الذين انتمى إليهم محمد المهدى بن تومرت .

بين الفاطميين والعباسيين ، فأطمعت فيهم المسيحية التى أخذت تعد العدة للبطش بالإسلام شرقاً وغرباً ، ويعلن ابن تومرت أن ذلك ناشىء من فساد الحكم ، ويعتبر أولى الأمر حائدين عن الأخذ بمبادئ الدين الحنيف . ثم ينبرى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . منددأ بحكم الفاطميين ومبادئهم وانتشار المفاسد فى عهدهم . وانغماسهم فى الترف المؤذن بزوال الدول ، وابتكارهم كثيراً من البدع التى لم يعهدها الإسلام ، والتى هى أقرب إلى التقاليد الكسروية منها إلى الإسلام الذى لا يعرف البذخ والاستعلاء . وهذه الروح التصوفية لا تروق السلطات الفاطمية بداهة ، فتزج بابن تومرت فى غيابة السجن . ثم تنظر حولها ، فلا تجد لهذا الواعظ أنصاراً يطالبونها بإطلاق سراحه . وإنما هو رجل مغربى فقير متقشف مخشوشن أعزل . فتعفو عنه ، وتأمره بالرحيل من البلاد ، فيذهب إلى القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فتطارده السلطات إلى الإسكندرية ، ثم يأمر حاكم الإسكندرية بنفيه من البلاد ، فيوضع على سفينة متجهة إلى المغرب ، ويصف المراكشى هذا قائلا : « . . وجرت له — أى لابن تومرت — وقائع فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية عن البلاد . فركب البحر ، فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهل السفينة فى البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء . فلما رأوا ذلك من أمره ، أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية »[١] .

ويبدو بكل وضوح أن المراكشى سمع هذه الرواية من أحد دعاة الموحدين ، المفتونين بابن تومرت ، الذين يخترعون له الكرامات المعجزة ، على نحو ما نرى

(١) المعجب ص١٧٩ « ط : الدار البيضاء — سنة ١٩٥٤ » .

من مشى ابن تومرت على صفحة الماء أكثر من نصف يوم متابعاً السفينة سائراً فوق ما تخلفه وراءها من موج صاخب وهو بعد لم يصب بسوء . . . ولكننا إذا استبعدنا الجزء الأسطورى فى هذه الرواية ، فإننا نلتقى بما يقرره المؤرخون عامة من أنه وعظ أهل السفينة بأن يؤدوا الصلاة فى أوقاتها . وبأن يكفوا عن شرب الخمر وقد شاغبوه فى بادئ الأمر ثم أكبروه وأكرموه .

٣

ونرى المؤرخين يختلفون فى تعيين أول بلد مغربى نزله به ابن تومرت حين غادر السفينة[١]. فقد ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت حل بمدينة «طرابلس» أول بلاد المغرب مفتياً بمذهبه الجديد فى التوحيد ، الذى كان من أهم مبادئه تأويل المتشابه من آى القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، مظهراً النكير على علماء المغرب فى عدولهم عنه ، وأخذ نفسه بتدريس العلم فى دائرة توضيح مذهبه آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ما استطاع ، ولكن علماء المغرب ، لم يتقبلوا هذا المذهب بالقبول الحسن ، بل قاوموا ابن تومرت بعنف . حتى لقى بسبب ذلك أذى فى نفسه ، احتسبه من صالح عمله[٢] .

ويتضح مما سبق أن ابن تومرت لم يكن لين العريكة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وربما كان ذلك لتأثره ببيئته الجبلية الصارمة ،

---

(١) جعلها ابن الأثير مدينة « المهدية » « الكامل ج ٨ – ص ٢٩٣ » وتبعه ابن خلكان « وفيات الأعيان ج ٤ – ص ١٣٨ » والزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية – ص ٣٢ –) وجعلها المراكشى مدينة بجاية وابن خلدون مدينة طرابلس .

(٢) العبر ج ٢ – ص٤٦٧ « ط : بيروت – سنة ١٩٥٦م » .

أو أنه أعجب بأسلوب المعتزلة والخوارج الذين لا يتحرجون فى دفع المنكر عن استعمال أى نوع من أنواع العنف إذا لم يجد اللين . ولو أدى الأمر إلى سل السيوف .

ونرى أننا فى حاجة إلى أن نقف على كيفية تدريس ابن تومرت مذهبه التوحيدى الجديد الذى بشر به فى المغرب سرًّا أول الأمر ، وهو يتشح برداء الواعظ الدينى الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر . وخير سبيل إلى هذا أن نستمع إلى تلميذه المخلص أبى بكر الصنهاجى المعروف بالبيذق .

يقول البيذق تحت عنوان « المهدى بتونس » : « وكان طلبتها يأتون إلى الإمام — رضى الله عنه — يأخذون عنه العلم . . . . وظل على هذا أياماً عديدة . . فلما كان بعض الأيام قال — أى ابن تومرت — نتوجه — إن شاء الله — نحو المغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم ، سيدنا المعصوم — رضى الله عنه — ويوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن . وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن على الصنهاجى ، المكنى بالبيذق فلم نزل نجد السير ، حتى وصلنا قسنطينة ونحن فى أمن من الله ما رأينا إلا الخير » . ثم يذكر البيذق أن ابن تومرت وصحابته خرجوا من قسنطينة إلى بجاية قائلا : « فلما كان يوم عيد الفطر اختلط الرجال بالنساء فى الشريعة . فلما رآهم الإمام — رضى الله عنه — دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالا حتى بددهم »(١) .

وهذا النص يعطينا صورة عن تدريسه العلم . فى أنه — كأى عالم —

---

(١) أخبار المهدى — ص ٥١ .

كان يقنع طلابه ويمدهم بالمعلومات فى غير صخب ولا لغب ، أما أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فكان يجنح فيه نحو الشدة والعنف ، وكان العنف جائزاً لرجال الحسبة الحكوميين وغير جائز للمتطوعين من أمثال ابن تومرت الغريب الأعزل . ومن هنا فقد تعرض كثيراً لغضبة الجماهير ، واعتدائهم ، فضلا عن سخط الحكومات عليه ، ومطاردتهم إياه ، وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحادثة التى ذكرها البيذق . إذ يذكر أن ابن تومرت حينما دخل مدينة « بجاية » وكان يحكمها حينئذ « العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان هذا الأمير من المترفين ، فأغلظ له ابن تومرت ولأتباعه فى القول ، فكظم الأمير غيظه ، ثم تعرض ابن تومرت بعد ذلك لتغيير بعض المنكرات فى الطريق العام فوقعت بسبب ذلك هيعة أنكرها السلطان والخاصة ، وائتمروا به ، فخرج ابن تومرت من بجاية خائفاً يترقب ولحق بملالة (على بعد فرسخ من بجاية) وبها يومئذ بنوور ياكل « من قبائل صنهاجة» وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووا ابن تومرت وأجاروه . فطالبهم سلطان بجاية بتسليمه إليه فأبوا . وأخذ ابن تومرت يدرس العلم أياماً فى حمايتهم . وكان يجلس تحت فرع شجرة على صخرة بقارعة الطريق . قريباً من ديار ملالة ، وهناك لقيه كبير صحابته – « عبد المؤمن بن على »[1] الذى انضم إلى تاميذ ابن تومرت ، واتجهوا جميعاً إلى مدينة « وجدة » أول مدينة من مدن المغرب الأقصى شرقاً ، ومكثوا بها بعض الوقت ، ثم خرجوا منها إلى مدينة «فاس»[2] حاضرة المغرب العلمية وظلوا بها أياماً ، ثم اتجهوا إلى مدينة « مكناسة »[3] ثم إلى مدينة « سلا »[4] . وكان ابن تومرت يدرس مذهبه الجديد فى كل مدينة يحل بها .

---

(١) العبر – ج ٦ – ص٤٦٧ .

(٢) أخبار المهدى – ص٦٣ .

(٣) المرجع السابق – ص٦٥ .

(٤) المرجع السابق – ص ٦٦ .

ويأمر بالمعروف . وينهى عن المنكر ، ويجادله العلماء والطلاب ، فيجيبهم بما يقتنع به ، فمنهم من يؤمن بمبادئه ، ومنهم من يرفضها ويشاغبه ، ولكنه ينطاق من ساحتهم ، وقد أكبروه لسعة علمه ، وغزارة فضله .

وإن خطبه لعظيم حين يدخل « مراكش » مقر سلطان علماء المرابطين الذين أمسكوا بطرف السياسة والدين والذين يمقترن علم الكلام ، ويرمرن رجاله بالكفر والزندقة ، ويهيئون لهم أشد أنواع العذاب .

وإن ابن تومرت الذى حل بمراكش . لا بد أن يصطدم بهذه القوه الجبارة ، ولا بد أن يلتقى بسلطان المرابطين التقى الورع ، والسلفى المحافظ ، والمفتون بعلمائه ، والمستعبد لآرائهم . وكيف لا ؟ وهم الذين أقاموا صرح الدولة المرابطية بقيـــادة أستاذ المرابطين وإمامهم الشيخ عبد الله بن ياسين .

إن ابن تومرت لا بد أن يمر بتجربة قاسية ، قد تطيح برأسه . فما خطبه ؟ إنه دخل مراكش ، وسار على طريقته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويقول البيذق فى هذا : « . . . ثم أقبل إلى جامع على بن يوسف ، فوجد على بن يوسف قاعداً على غفارة ابن تيزمت ، والوزراء واقفون . فقال له الوزراء ود الخلافة[١] على الأمير فقال " ابن تومرت " لهم : وأين الأمير ؟ إنى أرى جوارى منقبات[٢] . فلما سمع ذلك على بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم : صدق ! ! . فلما رآه المعصوم قال له : الخلافة لله وليست لك يا على بن يوسف . ثم قال له المعصوم يا على . . قم عن هذه المغيرة .

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها رد الخلافة . . .

(٢) كانت عادة المرابطين أن يتلثم رجالهم بالنقاب . ويكشف نساؤهم عن وجوههن . .

تكن إمام عدل ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة . فأزالها وأعطاها لمولاها . وقال له : " ما " ؟ قال له : لأنها تعقد بالنجاسة . ثم خرج المعصوم إلى باب المسجد . وقعد حتى خرج الناس من المسجد ودخل " مع " الفقهاء بالمذاكرة حتى قهرهم القهر كله »(١) .

وترى من النص السابق أن البيذق يستعمل المبالغة والتهويل بل والتلفيق . فمن المحال أن يدور مثل هذا الحديث المهلهل بين رجل ما يزال مجهولا وبين سلطان المغرب فى بيت الله . فهل يتسع حلم :السلطان لعبارات السخرية والاستهزاء به وبوزرائه ، على مرأى ومسمع من رعيته فى حفل صلاة الجمعة » كما يقول البيذق الذى ينسبه لأستاذه .

ويذكر ابن الأثير أن ابن تومرت هو الذى ابتدأ الكلام فى مجلس العلماء والملك . إذ أخذ يعظ السلطان . ويخوفه فبكى أمير المسلمين ، وأمر أن يناظره الفقهاء ، فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته . . . إلخ(٢) .

وهنا يثور رئيس العلماء « مالك بن وهيب » ويشتد حقده على ابن تومرت ويحرض السلطان على قتله أو تخليده فى السجن قائلا للسلطان : « هذا رجل مفسد ، لا تؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة " قبيلة ابن تومرت الكبرى " ثار علينا منه شر كثير ، فتوقف أمير المسلمين فى قتل ابن تومرت وأبى ذلك عليه دينه ، وكان السلطان على بن يوسف هذا ، رجلا صالحاً مجاب الدعوة ، يعد فى قوام الليل ، وصوام النهار إلا أنه كان ضعيفاً ظهرت فى آخر

---

(١) أخبار المهدى — ص٦٧ .

(٢) الكامل : ج ٨ — ص ٢٩٦ .

أيامه مناكر كثيرة . سببها استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمر. فلما يئس مالك بن وهيب من حمل السلطان على قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت . فقال السلطان علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ، ولم يتعين لنا عليه حق . وما السجن إلا أخو القتل . ولكن نأمره أن يخرج عنا ويتوجه حيث يشاء »[١] .

ولكن ابن خلكان — الذى عاهدناه يتاسى كثيراً بابن الأثير — لم يتفق معه هنا . إذ يروى ما يفهم أن علماء المرابطين هم الذين ابتدءوا الحديث . فيذكر أن السلطان على بن يوسف عقد لابن تومرت مجلسا ضم طائفة كبيرة من العلماء . ثم ابتدأ الكلام قائلا لعلمائه : « سلوا هذا الرجل ماذا يبغى منا ؟ فانتدب العلماء له قاضى — المرية — ويسمى " محمد بن أسود " حيث ابتدر ابن تومرت قائلا : ما هذا الذى يذكر عنك من الأقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله على هواه ؟

فقال ابن تومرت : أما ما نقل عنى فقد قلته . ولى من ورائه أقوال . وأما قولك : إنه يؤثر طاعة الله على هواه ، وينقاد إلى الحق ، فقد حضر — أى السلطان — اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم — بتعريه عن هذه الصفة — أنه مغرور بما تقولون له ، وتضرونه به ، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة . فهل بلغك يا قاضى أن الخمر تباع جهاراً ، وأن الخنازير تمشى بين المسلمين . وأن أموال اليتامى تؤخذ و . . إلخ »[٢] .

فلما سمع الملك كلامه . ذرفت عيناه وأطرق حياء . ففهم الحاضرون من فحوى كلام ابن تومرت أنه طامع فى المملكة لنفسه . ولما رأوا سكوت

---

(١) المراكشى — المعجب — ص ١١٩ — ١٢٠ (ط : مصر ١٣٢٤هـ) .
(٢) وفيات الأعيان : ص ١٣٨—١٤٠ .

الملك وانخداعه لكلام ابن تومرت ، لم يتكلم أحد منهم . . . فهب مالك بن وهيب (رئيس العلماء) ناصحاً الملك باعتقاله وصحابته ، فلم يستمع الملك لنصيحته وأطلق سراح ابن تومرت الذى فر إلى « أغمات » ومنها إلى السوس خشية من بطش السلطان به بفعل دسائس ابن وهيب المتتابعة ضده .

ونرى أن ابن تومرت كان شجاعاً لم يخش فى الحق لومة لائم ، وأن العلماء لم يدخلوا معه فى نقاش علمى جدى بل ابتدءوا بإيقاعه فى السلطان الذى أصاخ للحق ولم تخدعه نغمة الملك الزائف . وقد كان ابن أسود على حق حين وصف السلطان بالحلم بانقياده للحق . كما كان ابن تومرت ماهراً حين رمى علماء الحاشية بتزييف الأخبار للسلطان مما يوقعه ويوقع الدولة معه فى كثير من المضار . وأساس حملة علماء المرابطين على ابن تومرت ما عرفوه عنه من انتحاله مذهب الأشعرية فى تأويل المتشابه ، ورميه إياهم بالجمود على مذهب السلف ، وتلقينهم هذا المذهب للجمهور تجسيماً[١] .

٤

فر ابن تومرت وصحابته من وجه « مالك بن وهيب » وأتباعه السلفيين المقلدين للإمام مالك — رضى الله عنه — الذين لا يحيدون عن مذهبه ، ولا يرضون بغيره بديلا ، والإمام مالك كان عدواً للتأويل ؛ يقول فيه الشهرستانى : أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس — رضى الله عنه — إذ قال فى تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ،

---

(١) العبر ج ٦ — ص ٤٦٨ — ط : بيروت .

والسؤال عنه بدعة [١] .

ولقد تتالت المحن على مذهب مالك وعلمائه من الموحدين ، ولكن الموحدين نشأوا وزالوا ، وظل المالكية كالطود العظيم لم تزلزلهم أعاصير الزمن حتى يومنا هذا ، وها هو السلاوى رأس طبقة المؤرخين المغاربة المحدثين يترنم بقوله القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شيء عقيدة صائب

نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب

ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا وتأويلنا ، فصل اللبيب المراقب

ونركب للتسليم سفناً فإنها لتسليم دين المرء خير المراكب [٢]

وابن تومرت الذى جاء من المشرق . . بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً وارياً من الدين . يرى أن علماء المرابطين السلفيين المقلدين الجامدين . إنما يقودون الجماهير إلى التجسيم والكفر ، لوقوفهم عند ظاهر الآيات التى يشعر ظاهرها بالتجسيم ، وقد ناظرهم وانتصر عليهم ، ولكنهم تغلبوا عليه بسلطان الملك ، وقوة الحكم ، ولابد من مقابلة القوة بالقوة .

وقد اعتبر السلطان « على بن يوسف » فرار ابن تومرت من وجهه خيراً كثيراً ، ولكنه كان على دولته شراً مستطيراً ! إذ فر هو وصحابته من وجه « مالك بن وهيب » إلى حيث آواه قومه بالسوس . وأعزوه ونصروه ، وهو طاقة عقلية يخشى منها وقوة جبلية ضخمة يجب أن يحسب حسابها ، فقبيلته الكبرى . مصمودة . . كانت حينئذ أكثر من نصف سكان المغرب جميعاً . ويختلف المؤرخون فى المكان الذى ألقى فيه ابن تومرت عصا التسيار ، عقب فراره من مراكش خائفاً يترقب من بطش مالك بن وهيب وأتباعه حاشية السلطان ؛ الذين ما فتئوا يأتمرون عليه . فبعض المؤرخين يروى أن ابن تومرت اتجه إلى بلاد السوس . ونزل بموضع منها

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى . ج ١ – ص ١١٨ – ١١٩ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٤٠ (ط الدار البيضاء ١٩٥٤) .

يعرف بتينمل ، ومن هذا الموضع ، قامت دعوته واستوى عودها واشتد خطرها ؛ وأضحت قوة يخشى منها . ولما نزل بهذا الموضع اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير (أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وأول من صرح بهذا الرأى . عبد الواحد المراكشى [١] وربما أخذه عنه ابن أبى زرع [٢] وابن خلكان [٣] ثم يوسف أشباخ [٤] . إذ هم يتفقون مع المراكشى تماماً والبعض الآخر — وهم الكثرة — يذهبون إلى أن ابن ترمرت خرج من مراكش ثم من أغمات ، واتجه رأساً إلى مسقط رأسه . وارتمى فى أحضان قبيلته « هرغة » حيث مكث بين عشيرته الأقربين ثلاث سنوات يدرس العلم وينشر مبادئ مذهبه الجديد باللغة العربية أحياناً وباللغة البربرية أحياناً أخرى . وقد أطلق على شيعته اسم « الموحدين » أى الذين يوحدون الله توحيداً مطلقاً لا تشوبه شائبة التجسيم . تعريضاً منه بالمرابطين الذين يلقنون الجماهير ظاهر الآيات المتشابهة دون تأويل مما يجرهم إلى التجسيم والكفر . وفى هذا المكان الذى شيد فيه بناء الدولة الموحدية الكبرى . أعلنت مهدوية ابن تومرت ومنه انبعثت فنون دعاية مذهب الموحدين ومبادئ المهدوية بطريق نجباء الطلبة أحياناً وبإرسال الكتب باللغة العربية وباللغة البربرية أحياناً أخرى . ولما قوى ساعد الموحدين . واشتدت قوتهم . اتجه بهم المهدى ابن تومرت إلى مدينة « تينمل » لمناعة موقعها الحربى ، وأخذ يناجز المتمردين عليه بالسيف واللسان معاً سواء منهم القبائل المعاندة أو المرابطون الذين بدءوا بالعدوان رغبة فى قهر ابن تومرت وإخضاعه ، قبل أن يستفحل أمره . وقد أخذ بهذا الرأى أغلب المؤرخين مثل : البيذق [٥] . وابن الأثير [٦] . وابن القطان [٧] . وابن

---

(١) المعجب — ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٢) روض القرطاس ج ٢ ص ١١١ — ١١٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ — ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٤) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين — ص ١٧٥.

(٥) أخبار المهدى.ص ٦٩ — ٧٠ .

(٦) الكامل ج ٨ — ص ٢٩٦ .

(٧) نظم الجمان (مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد ورقة ١٠)

خلدون[١] ، والزركشي [٢] . وجوليان [٣] وتراس [٤] . وهذا الرأى — فيما أعتقد — هو الخليق بالاتباع لوجود الأدلة الكافية لإقراره [٥] .

وبعد استقراره بين قومه على النحو السابق . أنشأ رابطة للعبادة ؛ ولكى تكون مقرًّا للدرس ؛ ومركزاً لتدبير أمور الدعوة ولكى يحقق هدفه سريعاً فى تعليم التوحيد الكلامى على مذهبه . ألف عقيدته التوحيدية باللسان البربرى حتى لا يتعسر فهمها على قومه البربر . وأمر تلاميذه الذين اختارهم لنشر الدعوة واستمالة القبائل ، بأن يبتعدوا عن أساليب العنف وإسالة الدماء . (مهتدين بقوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . وهنا نجد تحولا كبيراً فى طريقة ابن تومرت فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكيف به يأمر تلاميذه باصطناع اللين

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٨ .

(٢) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصيه ص — ٣ .

(٣) Histoire de L'Afrique de Nord, p. 53.

(٤) Histoirc du Maroc, p. 42-44.

(٥) عثرت بكتاب « أعز مايطلب » للمهدى ابن تومرت على عبارة كافية لإقرار رأى الفريق الثانى (القائل باتجاه ابن تومرت إلى قبيلته « هرغة » عقب فراره من مراكش) ، وهذه العبارة من إملاء الخليفة عبد المؤمن بن على وهذا نصها :

« . . والسمع على ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن فى الطريق الذى هو السمع . فما علق عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم — رضى الله عنه — فى ذلك أول هذا الأمر برباط هرغة ببلاد السوس سنة ٥١٥ ﻫ أن تحصيل الفقه...إلخ (انظر كتاب أعز ما يطلب ص ٢) فليس هناك أدنى شك فى أن هذه العبارة التى وجدت — عرضاً — فى كتاب دينى ينسب تأليفه إلى محمد المهدى بن تومرت . وقد كتبت بخط خليفته الأول عبد المؤمن بن على — يعد وثيقة تاريخية لإثبات حقيقتين تاريخيتين وهما : (١) إثبات أن ابن تومرت عاش بين قومه بهرغة يدرس ويؤلف ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قبل ذهابه بصفة نهائية إلى « تينمل » التى كانت حاضرة الموحدين حتى فتحوا مراكش سنة ٥٤١ . (٢) أنها حددت تاريخ بيعة ابن تومرت على التوحيد ثم على المهدية سنة ٥١٥ ﻫ .

فى نشر الدعوة ، وهو المعروف بالعنف فى تصرفاته فى مكة والقاهرة والإسكندرية وبجاية ثم فى مراكش مع علماء المرابطين كما أسلفنا القول . إن هذا الرجل يتمتع بموهبة سياسية بجانب إشراقه الدينى . فهو الآن ينشر دعوة يعوزها اللين لاجتذاب الأنصار . وتكثير الأتباع الذين سيكونّن بهم قوته ، ويؤلف منهم جيشه . ثم هو خبير بطباع القبائل التى يأسرها اللين ، وتتحدى بأنفتها الغلظة والقسوة . ولذلك فقد أخذ ابن تومرت على تلاميذه العهود بأن يهتدوا فى نشر الدعوة بحكمة اللين والحسنى .

ولما انهالت القبائل عليه . ووثق من قوة دعوته واطراد نجاحها . أخذ يشوق إلى المهدى المنتظر ، ويبشر به . ويجمع الأحاديث النبوية التى نسبها أصحاب نظرية المهدوية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويشرحها للناس . ولما كان اسمه محمد بن عبد الله ، وهذا الاسم مطابق لما جاء به حديث نبوى فى اسم المهدى المنتظر ، وأيضاً فهو ينتسب للنبي صلى الله عليه وسلم ، هذا بالإضافة إلى غزارة علمه ، وسمو مواهبه ، وإشراق نفسه ، وولعه بالإصلاح الدينى ، أقول لما كان ذلك مجتمعاً فى ابن تومرت ، فقد أجمع صحابته وأنصاره على أنه المهدى المنتظر . دون سواه .

ويصف ابن القطان حفل مبايعة ابن تومرت بالمهدوية قائلا : « قصد المهدى إلى قرية " إيجليز " واستقر بركن منها مستظل واقع على الماء[1] فعند اجتماع أصحابه إليه . . . قام فيهم[2] خطيباً فقال : « الحمد لله الفعال لما يريد . القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه — وصلى الله على سيدنا محمد . المبشر بالمهدى . الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ،

(١) فى الأصل . قعد إلى قرية إيجليز . تحتها ركن مستظل تحته على الماء . ولا يخفى ما فى العبارة من التواء وضعف .

(٢) فى الأصل . . . قام فيها .

ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء . وامتلأت الأرض بالفساد . وهذا آخر الزمان . والاسم الاسم . والنسب النسب . والفعل الفعل »[١] .

ثم يذكر ابن القطان عن اليسع أنه قال : « سمعت أمير المؤمنين ، أبا محمد عبد المؤمن — بن على — رضى الله عنه يقول : لما فرغ الإمام المهدى — رضى الله عنه — من كلامه ، بادر إليه عشرة رجال منهم : أنا ، فقلت له هذه الصفة لا توجد إلا فيك ، فأنت المهدى فبايعناه على ذلك »[٢] .

٥

وبعد أن بويع المهدى ابن تومرت « بالمهدوية » طفق يؤلف حكومة منظمة ، ويذكر أندريه جوليان (Ch. A. Julien) أن ابن تومرت كان رجل سياسة ودين فى آن واحد . عقب دخوله « هرغة » واحتمائه بقومه ، ولا سيما بعد أن بويع بالمهدوية ، وأطلق عليه الإمام المعصوم المرسل من قبل الله ليقضى على الفساد . وينفذ الديانة الحقيقية . وحينئذ لقب أتباعه بالطلبة . إذ كانوا يدرسون عليه التوحيد الصحيح . كما لقب أنصار الدعوة « بالموحدين »[٣] .

ويذهب تراس (Terrasse) إلى أن ابن تومرت دعا برابرة الأطلس إلى شق عصا الطاعة على المرابطين بمجرد احتمائه بقومه ، وبذلك اتخذت دعوته لوناً سياسياً[٤] . وعلى أى حال فالمتفق عليه أن ابن تومرت لم يبتدئ فى تأليف الحكومة إلا بعد أن بويع بالمهدوية .

---

(١) نظم الجمان : مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد ورقة ٣٢ .

(٢) المصدر السابق فى نفس الورقة .

(٣) Hist. de L'Afrique du Nord, p. 98.

(٤) Hist. du nord, 273'274,

ولما انتشر أمره على النحو السابق بدأت الدولة المرابطية تتوجس منه خيفة إذ دأب « مالك بن وهيب » على إيغار صدر السلطان على بن يوسف وتخويفه من ابن تومرت . مما دفع السلطان إلى أن يأمر عامله على السوس . . أبا بكر بن محمد اللمتونى ، بالعمل على قتل ابن تومرت بأى وسيلة . ولكن قومه الصامدة حموه وحصنوه . وربما كان هذا هو السبب المباشر الذى دفع ابن تومرت إلى تأليف الجيش الموحدى ليكون على أهبة الاستعداد لملاقاة جيش المرابطين عند الضرورة . وقد شكل ابن تومرت حكومته على النحو التالى :

أولا : هيئة العشرة : ويسمون أهل الجماعة وهم – كما ذكرهم ابن القطان – سيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو محمد « عبد المؤمن بن على – رضى الله تعالى عنه – وأبو محمد البشير . وأبو إبراهيم الهزرجى ، وأبو حفص عمر بن على الصنهاجى وأبو الربيع سليمان بن الحضرى وأبو عمران موسى بن عمار . وأبو يحيى أبو بكر بن يجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وأبو حفص عمر بن يحيى ، وكان عاشرهم عبد الله بن مسلوية . . . . وهؤلاء العشرة هم المسمون أهل الجماعة [١] . وهؤلاء العشرة هم أول أتباعه الذين اضطهدوا معه . وتحملوا أخطار الانتقال من بلد إلى بلد تطاردهم سلطات الأمن فى كل مكان ، ولذلك سماهم ابن تومرت المهاجرين كما سمى من سبقوا إلى الانضمام إليه « بهرغة »

(١) وقد ذكر ابن القطان فى رواية أخرى هؤلاء العشرة – نقلا عن اليسع – ثمانية فقط ويختلفون فى بعض الأسماء وهم : الونشريس . وعمر أصناك . والخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو محمد « عبد المؤمن بن على » . رضى الله عنه . وأبو يحيى وأبو بكر بن يجيت والأحسن بن على . وعمر الهنتاتى .

وعند ما عرض البيدق لذكر العشرة . ذكرهم سبعة فقط . وجعل نفسه من بينهم إذ يقول : « فأول من بايع المعصوم الخليفة عبد المؤمن بن على . ثم أبو إبراهيم . ثم عمر أصناك ، ثم عبد الواحد الشرقى . ثم عبد الله بن محسن الونشريس المكنى بالبشير وبعده أبو موسى المصودى . وبعده الفقير المؤلف (يقصد نفسه) .

(انظر نظم الجمان . لابن القطان ورقة ٣٣ . وأخبار المهدى للبيدق ص ٧٣) .

من القبائل المختلفة « الأنصار » تيمناً بما اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم في تسمية السابقين إلى الإسلام .

ثانياً : هيئة الخمسين : وهم الذين اعتنقوا « الدعوة الموحدية » بعد العشرة ، ورتبتهم في الأهمية تلي رتبة العشرة .

ثالثاً : هيئة السبعين : وقد انفرد بذكرهم « ابن القطان » كما انفرد ببيان اختصاص هذه الطبقات الثلاث بإجمال ، إذ يقول بعد ذكر العشرة : وتابعهم على هذا المعتقد بأثرهم خمسون رجلا . فسموا أهل خمسين . ثم تابعهم سبعون رجلا فسموا أهل سبعين . واختص المذكورون بكثير من الاختصاص . وانعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم . ثم يأخذ ابن القطان في بيان عمل كل هيئة فيقول : « وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم . فإذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره رضي الله تعالى عنه [1] .

فجماعة العشرة كانت تشبه في عصرنا الحاضر هيئة مجلس الوزراء . وجماعة الخمسين تشبه أعضاء مجلس الشيوخ وجماعة السبعين تشبه مجلس النواب في الحكومات البرلمانية . وكان هذا النظام هو الأساس الذي قامت عليه الدولة الموحدية .

وهكذا نرى المهدي ابن تومرت ينشئ حكومة ديمقراطية ، سابقاً بهذا عصرنا الحاضر بأكثر من ثمانية قرون ! وربما كانت فكرة هذا النظام الشوري مقتبسة من نظام النبي صلى الله عليه وسلم . فكان للرسول الكريم هيئة المهاجرين . ثم هيئة الأنصار . إذ كان ابن تومرت حريصاً على التأسي بالدعوة الإسلامية الكبرى كما أسلفنا القول . ويذكر جوليان "Julien" أن مجلس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس السبعين ، تتمشى مع مجالس الأعيان ذات النفوذ الواسع في الجمهوريات البربرية الجبلية التي كان نظامها سائداً

---

(١) نظم الجمان . ورقة ٣٣ .

قبل توحيد المغرب على يد يوسف بن تاشفين أعظم سلاطين المرابطين[١] .

وربما اقتبس جوليان رأيه هذا من عبد الراحد المراكشي الذى ذكر أن هذه الطبقات الحكومية — ولا سيما طبقة الخمسين — ليست من قبيلة واحدة بل هى من قبائل شتى . وكان ابن تومرت يسمى أتباعه « المؤمنين » قائلا لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم . وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام ، لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله . وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال . ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى بن مريم . ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة[٢] .

وكان ابن تومرت كثيراً ما يلقى فى روع أتباعه أنه قادر على أن يكشف مسائل المستقبل . إذ كان يقول لهم : لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة ، فزادت فتنة أتباعه : وأظهروا له شدة الطاعة . ويقول ابن أبى زرع واصفاً نجاح ابن تومرت فى دعوته . وتأليف حكومته . . . . فقصد الناس إليه من كل جهة ومكان يبايعونه ويتبركون برؤيته ، فيأخذ عليهم البيعة ، ويعلمهم أنه المهدى المنتظر ، حتى علا أمره ، وقوى سلطانه وسمى كل من دخل فى طاعته وبايعه وتابعه على طريقته « بالموحدين » وعلمهم التوحيد باللسان البربرى وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور . وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن . وإنما هو كافر لا تجوز إمامته . ولا تؤكل ذبيحته ، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا ، ولا من أمر الدين ، فاستهواهم بكيده ، وغلبهم بعذوبة لفظه . . . حتى كانوا لا يذكرون غيره ، ولا يمتثلون أمراً إلا أمره ، يستغيثون به فى شدائدهم ، ويتبركون بذكره على موائدهم ويقولون هذا الإمام المعلوم ،

---

(١) Hist. de L'Afrique, p. 100.

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

والمهدى المعصوم على منابرهم ، فدخل الناس فى طاعته أفواجاً ، واتخذوا سنته شريعة ومنهاجاً ، فرتب العشرة والخمسين وتمكن فى الملك أى تمكين . وسمى العشرة من أصحابه السابقين الأولين وجعل الخمسين للرأى والمشورة ، وعقد (لنفسه) الإمامة والنظر للمسلمين [١] .

ونلاحظ أن ابن أبى زرع لم يذكر هيئة السبعين ، كما لم يذكرها المراكشى ، ولم ينوه عنها « البيدق » وقد صور المراكشى مدى طاعة المصامدة لابن تومرت بأنه بلغ من نفوسهم مبلغاً عظيماً إلى درجة أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لقام بتنفيذ ذلك دون إبطاء ، وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ، ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم [٢] فلم يك من الصعب عليه حينئذ أن يواجه المرابطين باللسان والسيف إذا اقتضى الحال . ولا سيما أن أتباعه أضحوا أكثر من ثلاثين ألف رجل ، يمثلون مختلف القبائل التى تعيش فى بلاد السوس .

وابن تومرت الرجل المفكر ، لا يتخذ القوة أساساً فى دعوته . بل قضى فترة فى بث الدعاية ضد المرابطين ، وإظهارهم بمظهر المجسمين فى عقيدتهم ، الفاسدين فى حكمهم . ثم بعد ذلك ناجزهم بالسيف واللسان معاً . بعد أن جعل الناس يؤمنون بأن المرابطين أضحوا كفاراً مشركين يجب أن يقاتلوا حتى يؤمنوا بالتوحيد ، أو ينحوا عن الحكم .

٦

وكان ابن تومرت بارعاً فى دعايته ضد المرابطين ، فقد كانوا يتبعون عادة توارثها الأبناء عن الآباء ، وهى أن يلتثم رجالهم بنقاب بحيث يظل مجهولا

---

(١) روض القرطاس ج ٢ ص ١١٥ – ١٢٦ .

(٢) المراكشى . المعجب ص ١٢٣ .

للرائين على حين تسفر نساؤهم عن وجوههن . ولذلك أطلق الناس عليهم اسم « الملثمين » فاستغل ابن تومرت هذا ضدهم وصورهم فاسدين . حيث يقول : وكذلك المجسمون الكفار الذين يتشبهون بالنساء فى تغطية الوجوه بالتلثم والتنقيب على حين تشبه نساؤهم بالرجال فى الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب ، وهذا التشبه بهم حرام . لما رواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال [illegible] جميعاً ، ومن كثر سواد قوم فهو منهم وذلك كله حرام .

ويتجه إلى الموحدين مردداً قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب »[١] .

ولما أشرف الموحدون على الهلاك ، لم يجد عبد المؤمن مناصاً من إصدار الأمر إلى الموحدين المحاصرين بأن يفكوا الحصار بالسيوف . ومن البدهى أن ذلك كلف الموحدين كثيراً من الأرواح ، إذ خرجوا من الحصار مرهقين قد نالهم الضعف والهزال فتلقفتهم سيوف المرابطين من كل جانب . ويختم البيدق قصة هذه الغزوة قائلا : فهزمونا أول النهار ، وهزمناهم آخره وغنمنا بندا أحمر ! ! [٢] .

ولقد أدرك عبد المؤمن — الذى نجا بأعجوبة من شر الحصار المذكور أنه لا مفر من تغيير خططه على نحو ما غير المرابطون خططهم ، وأن مكثه فى منطقة السوس سيعرض الموحدين للفناء المحقق على يد تاشفين ذى الجيش الغنى برجاله وعتاده وتموينه . فاجتمع برجاله وقرر مغادرة تينمل وبلاد السوس والتحصن بالجبال . ومراوغة الجيش المرابطى الذى لا يستطيع الصعود إلى الجبال والحرب فيها [٣] . ثم ولى على تينمل صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، وخرج فى رحلته الطويلة أو غزوته الكبرى — على حد تعبير أنصار الموحدين — فى سنة ٥٣٤ هـ . وتوغل جهة الشرق من تينمل ثم اعتدل وسار فى وسط المغرب ثم اتجه شمالا ثم شرقاً على نحو ما سرف نذكر . متخذاً من الجبال بيوتاً وحصوناً فإذا ما انتهى الزاد أرسل إلى القبائل بعض سراياه . داعية إلى التوحيد . فإذا استجابت استعان الموحدون بمالها ورجالها . وإن أبت اغتصبوها أموالهـــا ومواشيها وربما نساءها ، ووزعوها على أنفسهم كما توزع غنائم الحروب الدينية ، وعندما

---

(١) السورة السابقة (٢ — ٣) .

(٢) أخبار المهدى ص ٨٧ .

(٣) الموحدون من رجال القبائل الجبلية . لذلك كانوا أقدر من المرابطين فى حرب الجبال . أما المرابطون فصحراويون يجيدون حرب السهول .

تنبه المرابطون إلى خطة الموحدين الجديدة ، تعقبوهم ، وساروا بإزائهم فى السهول ولكن الموحدين لم يهنوا ولم يحزنوا . وظلوا فى كفاحهم حتى انتصروا على ما سوف نبينه .

٣

انصرف عبد المؤمن عن منطقة السوس ، وخرج بجيشه من تينمل سنة ٥٣٤ هـ[1] قصد التجول فى أنحاء مملكة المرابطين بالمغربين الأقصى والأوسط ، وإخضاع القبائل للدعوة الموحدية طوعاً أو كرهاً بعيداً عن مراكش مركز الجيش المرابطى القوى ، وقد أنفق فى جولته هذه أو غزوته الكبرى – على حد تعبير أنصار الموحدين – أكثر من سبع سنوات متصلة ونراه أبدى فى هذه الغزوة الطويلة كثيراً من ضروب الحيلة وبعد النظر ، والمهارة الحربية ، مما جعل الجيش المرابطى يحل به الوهن والإعياء والضعف ، دون أن يكثر من التعرض له فى معارك هامة إذ استعمل معه طريقة التدويخ على حد ما يسمى فى الحروب الحديثة « بسياسة النفس الطويل » .

وها نحن أولاء نقدم سير هذه الحملة على نحو ما ذكرها البيدق . أحد جنود الموحدين الذين جاهدوا فيها . يقول البيدق : خرجنا من تينمل إلى ناحية الشرق ، ونزلنا بموضع يقال له « وانزال » ، ومنه لموضع يقال له « وفاد » ومنه لموضع يسمى « أشبار » [2] (شمال شرقى تينمل) ثم يذكر البيدق أن أخبار حملة الموحدين قد علم بها تاشفين ، فخرج بجيشه من

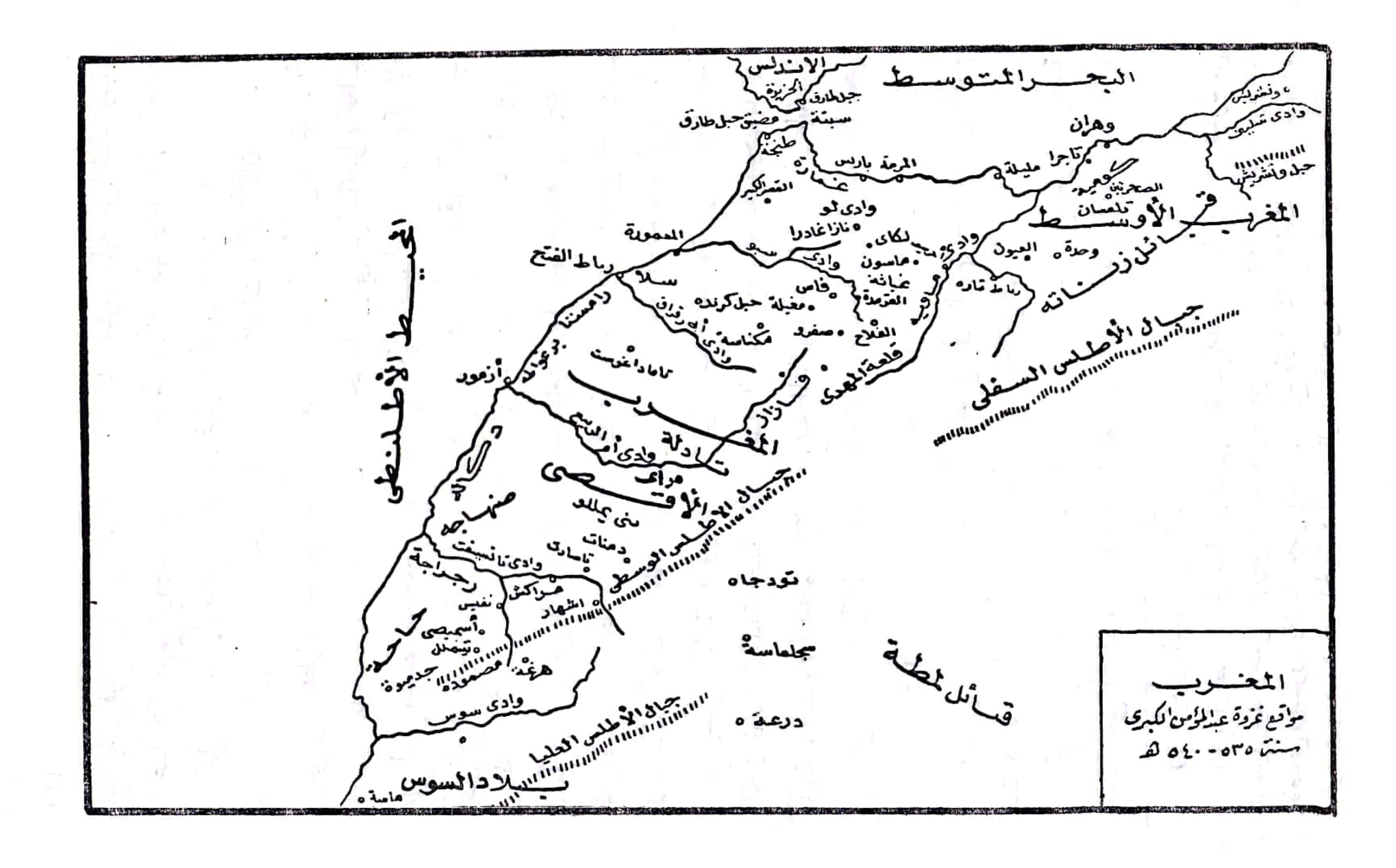
---

(١) يقول ابن أبى زرع : . . ثم خرج (عبد المؤمن) إلى غزوته الطويلة فى شهر صفر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة هجرية : فلم يزل يفتح البلاد . ويغزو القبائل حتى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (القرطاس : ج ٢ ص ١٣٢ – ١٣٣) ثم انظر « مدخل إلى تاريخ المغرب » للأستاذ عبد الله جنون ص ٥٠ ط قطوان ١٩٥٨) .

(٢) أخبار المهدى ص ٨٨ .

مراكش واتجه نحو أشبار ، فوجد الموحدين قد غادروها إلى موضع يسمى « تاساوت» وصار يطارد الموحدين الذين نزلوا بدمنات ، وارتحلوا منها إلى بنى نصره ، ثم ارتحلوا إلى موضع يسمى « الفل » والجيش المرابطى يتعقبهم بأماكن « يملاو » وكوية وغيرها بسفح الجبل المعتصمين به . وفى أثناء ذلك قام الشيخ أبو حفص بسرية موحدية سيراً على الأقدام ، وغنموا شيئاً مما يقتات به . ثم انتقل الموحدون إلى موضع يسمى « واويزغت » قريباً من سكنى بعض بطون صنهاجة التى أسعفت الموحدين بوجبة غذاء . وتاشفين بجيشه بسفح الجبل فى موضع يسمى « موران يغيال » وليس له من سبيل إلى صعود الجبل بجيشه . وكانت القبائل الجبلية تدخل فى التوحيد وتعاون الموحدين على الحياة فى الجبل . ويقول البيدق بلغته الساذجة : . . ثم التقى الجيش بالجيش بموضع يقال له « تيزى» فهزمناهم [١] وحقيقة الأمر أن الموحدين كانوا يلتقون أحياناً بحراس من المرابطين فى بعض الأماكن، وعندما يتعرض لهم هؤلاء الحراس القليلون . كان الموحدون يقهرونهم ، ويسيرون إلى الأمام فى رحلتهم . فيسمى البيدق مثل هذه الأمور مواقع ، وينعت الموحدين فيها بالمنتصرين . وكان الموحدون يلتزمون السير فى الجبال ليتحصنوا بها ، كما كان المرابطون يكتفون بالسير فى السهول إزاء الموحدين، ظانين أنهم سوف يقضون عليهم بهذا الحصار . ولكن الموحدين كانوا يستعينون بالقبائل الجبلية التى كانت تمدهم كثيراً بضرورات الحياة . ولا يهبطون إلى السهول إلا عند الضرورة القصوى ليغتنموا شيئاً يقتاتون به إذا لم يجدوا قبائل جبلية تعينهم . وهذا فى غفلة من الجيش المرابطى بالبداهة . وفى هذا يقول البيدق: ثم هبطنا لموضع يقال له تاجرارت ، ثم خرج منا جمع فهزم تاجرارت . وأقبل بغنائمها . . ثم ارتحل الموحدون إلى مكان يسمى « داى » وكان يحكمه رجل من المرابطين يسمى « على بن ساقطرا » ولما رأى أنه لا طاقة له بجموعهم فر هارباً ، فأعلن سكان هذا الموضع وهم من بطون صنهاجة ولاءهم للدعوة

(١) المصدر السابق ص ٨٩ .



المغرب
مواقع غزوة عبد المؤمن الكبرى
سنة ٥٣٥ - ٥٤٠ هـ
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
الأندلس
الجزيرة
جبل طارق
سبتة
مضيق جبل طارق
طنجة
القصر الكبير
غمارة
المزمة
بادس
مليلة
تاجرا
وهران
وادي لو
تازاغادرا
المعمورة
رباط الفتح
سلا
فاس
مغيلة
جبل كرنده
مكناسة
صفرو
الفلاح
قلعة المهدي
لكاى
غياثة
تلمسان
وجدة
العيون
رباط تازه
المغرب الأوسط
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى
تامسنا
أزمور
دكالة
تادلة
المغرب الأقصى
صنهاجة
رجراجة
حاحة
مراكش
نفيس
أسميصي
تينملل
هزرجة
جبال الأطلس الوسطى
تودجاه
سجلماسة
درعة
قبائل لمطة
جبال الأطلس العليا
وادي سوس
بلاد السوس
ماسة

الموحدية . فرد إليهم عبد المؤمن ما كان قد استولى عليه من غنائم وسبابا ما عدا فتاة منهم تزوجها عن طيب خاطر ورزق منها ولده « أبو سعيد » ثم ارتحل الموحدون إلى موضع يدعى « ويفيفن » ثم إلى موضع يسمى « لجدارة » ثم إلى « طين طوين » حتى وصلوا إلى « تازاجات » التى كان يحكمها « يحيى بن ساقطرا » فاقتحمها عليه الموحدون ، وغنموا كثيراً من خيراتها . ثم اقتحموا بعدها قلعة « واوما » وكان قائد حرسها « يحيى بن ساقطرا » فغلب على أمره وسلمها للموحدين ، واستمروا حتى وصلوا إلى مدينة « آزرو » التى تقع فى قلب منطقة فازار (عند منبع نهر وادى أبى رقراق الذى يصب فى المحيط الأطلسى عند مدينة سلا) وقد اتخذ الموحدون هذه المدينة الجبلية مقاماً لهم فترة من الزمن . فكان عبد المؤمن يرسل منها سراياه إلى الجهات المجاورة . وقد دخل جميع سكانها فى طاعة الموحدين . فتزوج عبد المؤمن بفتاة منهم أنجبت له ولده عبد الله [١] . ثم اتجه الموحدون شمالا ، ونزلوا بموضع يسمى « نوليس » وارتحلوا منه إلى موضع يسمى « تاكريرت » وفى هذا المكان نظم الموحدون حملة بقيادة عبد الرحمن بن زجو ، ووجهوها إلى مدينة « صفرو » فاقتحم ابن زجو المدينة المذكورة ومكث بها بعض الوقت ، ثم ارتحل عنها (وكان هجوم الموحدين عليهـا يوم عيد الأضحى سنة ٥٣٤ هـ) .

ووصل عبد المؤمن بموضع يسمى الفلاج فى اليوم الخامس من المحرم سنة ٥٣٥ هـ [٢] ، ووزعت الغنائم على الموحدين .

ثم ارتحل الموحدون إلى بنى « يازغا » تاركين بالفلاج سرية موحدية بقيادة يحيى أغوال الذى دهمه الأبرتير على حين غفلة وقتله وحمل رأسه

---

(١) أخبار المهدى ص ٩٠ .

(٢) فى نص البيدق خلط فى تنظيم المواقيت كعادته إذ يقول : . . . فخرج من الموحدين عبد الرحمن بن زجو فى خمسة أيام من المحرم سنة ٥٣٥ ، وضرب يوم عيد الأضحى « صفرر » وغنمها ووصل إلينا . . . إلخ فكيف تخرج الحملة فى المحرم وتغزو صفرو فى يوم ١٠ ذى الحجة ؟ ! ! (انظر البيدق ص ٩٠ — ٩٢) .

إلى مدينة فاس لتعرض على تاشفين. ثم اتجهت الحملة الموحدية بعد ذلك إلى أرض « غياثة » (شرقى فاس) وكان يقطن بها بعض بطون قبيلة زناته ، واستقر الموحدون بجبل « عفرا » فعسكر المرابطون بالسهل قريباً منهم فى مكان يسمى « النواظر » . وفى هذا الوقت ، اشتد برد الشتاء ، وعصفت الرياح فاقتلعت الأشجار وحطمت المساكن ، وهطلت الأمطار بغزارة غير معهودة ، فأغرقت السهول والمدن ، فمات كثير من الناس ، وفقد الجيشان كثيراً من الجنود ، وكانت خسارة المرابطين أفدح ، لأنهم كانوا يعسكرون فى السهول ، ففقدوا الأقوات والوقود [١] ، واعترى من سلم منهم الجوع والمرض . ولما هدأت الرياح استأنف الموحدون زحفهم .

ولما انقشعت الغيوم ، وأدبر البرد ، وحل فصل الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم صوب الشمال الشرقى من « فاس » ونزلوا أرض « لكاى » التى تقع فى منتصف الطريق بين فاس والبحر الأبيض المتوسط ، وما كادوا يستقرون حتى عرفوا أن تاشفين يتجه نحوهم . فارتحلوا نحو الشمال الغربى ونزلوا بأرض غمارة ، فأدركهم الأبرتير والتقى بهم فى موقعة تسمى « تازغدرا » وأجبرهم على الفرار [٢] ، حيث نزلوا بمكان يسمى « نهليط » ثم ارتحلوا منه إلى مكان يسمى « ايجن » وفى هذا المكان مرض الشيخ عمر أصناج أحد قادة الموحدين ولما شعر بدنو أجله ، أخذ ينصح الموحدين بالصبر والاتحاد والإخلاص للمبادئ وطاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفى ودفن بمكان يسمى « بجدار نمض » وسار الموحدون بعد ذلك إلى « تامقريت » فطاردهم الأبرتير حيث جرح القائد الموحدى « يعزى بن مخلوف » الذى توفى من

---

(١) يقول البيدق فى هذا: . . . نزل علينا الهواء خمسين يوماً بخمسين ليلة ، ولم يفتر . وفيها أكل وادى فاس باب السلسلة . وانشقت جزيرة مليلة . وأكل البحر طنجة حتى الجامع ، وأكل وادى سبد مع وادى ورغا أخبية « لمطة » . وكان ذلك فى عام ٥٣٦هـ (أخبار المهدى ص ٩٠ — ٩١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٩٠ . أما البيدق فيذكر أنه وقعت خسارة فى الطرفين ، ورواية الحلل أصح لتحيز البيدق فى كثير من الأحيان للخليفة عبد المؤمن (انظر البيدق ص ٩١) .

أثر جرحه ، ودفن بمكان يسمى « تازغوت » (١) أما الأبرتير فقد نزل بجيشه فى تيطان « مدينة تطوان الحالية » على البحر الأبيض المتوسط .

وعند ذلك اتجه الموحدون شرقاً ونزلوا بباديس (على البحر الأبيض) ، ودخلت هناك عدة قبائل فى دعوة الموحدين منها : بنو زياد ، وبنو نال وأولاد جيان ، وبنو عريف ،والطارفية ، والمحففة ثم ارتحلوا متجهين شرقاً ونزلوا « المزمة » (مدينة الحسيمة الحالية) فحاصرتهم الطبيعة ثمانية أيام ، إذ عصفت بهم الرياح الشديدة فأهلكت الكثير من الدواب والأنعام ، فلما هدأت الرياح انتقلوا إلى جبل « تمسامان » (٢) وأغلب الظن أن أخبار الموحدين بقيادة عبد المؤمن الجزائرى الأصلى قد انتشرت بين قبائل الجزائر ، ولا سيما بين بطون كومية وزناتة التى ينتمى إليهما عبد المؤمن ، فلا غرو أن نرى إبراهيم بن على الكومى أخا عبد المؤمن ، يركب الصعب ، ويتحمل وعثاء السفر أياماً وليالى بين وعورة الجبال ومخاوفها ، حتى يلتقى بأخيه الخليفة عبد المؤمن بن على ، ثم يعتنق مبادئ التوحيد ، وينخرط فى سلك الموحدين المجاهدين لينصر أخاه فيغمره عبد المؤمن بحنانه . ويشركه فى العمل مع محمد بن أبى بكر بن يجيت (وكان والد محمد هذا من صحابة المهدى العشرة) ولكن إبراهيم بن على الكومى يختلف مع ابن يجيت ويشتد الخلاف إلى درجة كبيرة يخرج فيها ابن يجيت عن وعيه ، فيضرب أخا عبد المؤمن ضربة ترديه قتيلا ! !

ولما علم عبد المؤمن بمقتل أخيه حزن لذلك حزناً شديداً ، وطالب بقتل ابن يجيت قصاصاً . فتقدم إليه أبو حفص عمر الهنتاتى ، وأبو الحسن ابن واجاج ، وذكراه بقول المهدى : « إن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم من فى الأرض جميعاً (٣) والقاتل ابن أحد أهل الجماعة العشرة

---

(١) أخبار المهدى ص ٩٣ .

(٢) بينما عاد تاشفين بجيشه إلى فاس .

(٣) أخبار المهدى : ص ٩٤ .

فصمت الخليفة عبد المؤمن ، وهدأت نفسه ، حين ذكر بقول المهدى ، وتنازل عن دم أخيه ! !

وهذا الحادث يكشف عن بعض خصائص الدعوة الموحدية ، ومنها : قداسة أقوال المهدى عند الموحدين . وأنهم كانوا يسيرون على نظام طبقى . إذ كان لكل طبقة منزلة معينة ، وامتيازات خاصة . كما دل هذا الحادث أيضاً على بعد نظر عبد المؤمن ، واحترامه لمبادئ الموحدين ، واتصافه بضبط النفس . وهى صفات ضرورية للقائد الناجح .

ونرى عبد المؤمن — بعد مقتل أخيه — يدفع بالموحدين إلى الأمام . إذ يأمر القائد الموحدى عبد الرحمن بن زجو بغزو « مليلة » (آخر ثغور المغرب الأقصى من جهة الشرق على البحر الأبيض المتوسط) . فيلبى عبد الرحمن النداء ، ويقتحم « مليلة » ويغنم منها غنائم عظيمة إذ سبى مائة بكر من بنات الثغر المذكور ثم يعود إلى عبد المؤمن ، فيوزع الغنائم على الموحدين ، ويوزع البنات بالقرعة على من يشاء من رجال الموحدين . ما عدا بنتين هما فاطمة بنت يوسف الزناتية التى أهداها للشيخ أبى إبراهيم إسماعيل — من صحابة المهدى — وابنة الأمير ماكسن بن المعز (حاكم مليلة) التى احتفظ بها عبد المؤمن لنفسه[١] .

ثم أمر عبد المؤمن بالرحيل ، واتجه شرقاً متوغلا فى أرض الجزائر فدخل أرض ندرومة موطن قبيلة كوميه (قبيلة عبد المؤمن) ثم دخل قرية « تاجرا » التى ولد فيها . وألقى فيها عصا التسيار بعض الوقت ، ووجه منها ثلاث حملات موحدية . اتجهت إحداها إلى ميناء « وهران » بقيادة عبد الرحمن بن زجو ، وقد عادت تحمل الغنائم العديدة . واتجهت الثانية إلى قبائل (بنى وانفرن وأنوان) وكانت بقيادة أبى إبراهيم إسماعيل وعادت غانمة أيضاً ،

---

(١) ويذكر البيدق أن عبد المؤمن أنجب من ابنة الأمير ماكسن بن المعز المذكورة ولديه : الأمير إبراهيم والأمير إسماعيل .

واتجهت الثالثة إلى قبائل « مديونة تكيز » وكانت بقيادة يوسف بن وانودين (١) .

وكان عبد المؤمن يتسم بالقسوة مع الذين لا يحترمون مبادئ التوحيد ولو كانوا من عشيرته الأقربين ، فيذكر البيدق أن عبد المؤمن حين اجتمعت عليه قرابته من كومية وزناتة عرض عليهم مبادئ التوحيد فقبلوها ، فمنهم من اعتنقها عن إيمان . ومنهم من قبلها نفاقاً ورياء . ولم يكن ذلك بخاف على عبد المؤمن الذى قام بإجراء عملية تمييز فى هؤلاء . وأطاح برءوس عشرة من شيوخ القبائل المذكورة التى تربطه بها روابط الدم (٢) . ثم ارتحل عبد المؤمن من « تاجرا » إلى بلدة « تيفسرت» من قرى تلمسان ، واتخذها قاعدة تنطلق منها جيوشه للدفاع أو الهجوم عند الاقتضاء ، بينما ارتدت جيوش تاشفين إلى مدينة « فاس » بالمغرب الأقصى . وربما قام بنفس السلطان تاشفين أنه تغلب شيئاً ما على الموحدين الذين طاردهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر) وطهر المغرب الأقصى منهم . ولذا فقد استقر بعض الوقت بمدينة « فاس » وحوله رجال قيادته ، ليدرسوا خطة حاسمة ونهائية فى القضاء على الموحدين ، وإخراجهم من المغرب الأوسط أيضاً ، إذ أنه خاضع للحكم المرابطى .

---

(١) أخبار المهدى ص ٩٤ .

(٢) أخبار المهدى ص ٩٤ .

٤

ولكن صنع القدر ، فوق تقدير البشر ، فقد اجتمعت عوامل النجاح للموحدين فى أثناء وجودهم بالجزائر التى ظن تاشفين أنه طاردهم إليها . ونفاهم بها ! ! بينما تحيط الأقدار دولة المرابطين بعوامل الإخفاق ، ففى هذه الأثناء أصيبت الدولة المرابطية بوفاة السلطان على بن يوسف (فى رجب سنة ٥٣٧ هـ) فتولى شئون الدولة من بعده ، ابنه تاشفين ، وقد كان فى حياة والده متفرغاً لحرب الموحدين ، ومطاردتهم وقد نجح فى إبعادهم عن مركز دعوتهم تينمل ، بل أخرجهم من المغرب الأقصى تمهيداً لوأد الدعوة واستئصال شأفتهم بعامل الزمن بينما أخذ عبد المؤمن طريقه فى الجبال متحصناً بها ، ينشر مبادئه فى قبائلها ويتحاشى — قدر المستطاع — ملاقاة المرابطين فى معارك كبيرة منتظراً أيضاً أن يُهزم المرابطون بعامل الزمن ، مكتفياً بتدويخهم وتكبدهم المشاق .

وقد توزعت جهود تاشفين — بعد موت أبيه — فكان عليه أن يرعى شئون الحكم الداخلية ، وكان عليه أن يحافظ على هيبة الدولة المرابطية بالأندلس ، وأن يقيها من وثبات النصارى المتهزين للفرصة ، وكان عليه بعد هذا وذاك أن يفكر طويلا فى الحرب الأهلية المزمنة بينه وبين الموحدين ومما زاد الحال سوءاً أن النورمنديين [١] أدركوا هذه الفترة الحرجة التى يجتازها السلطان المرابطى الجديد . فأرادوا الاستفادة منها ، وهجموا على سبتة بأسطول ضخم يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية . ويذكر ابن عذارى أن هؤلاء (المجوس) ظهروا فجأة فى مياه سبتة سنة ٥٣٨ هـ ،

---

(١) النورمان أو النورمنديون . هم قبائل انحدرت من شمال أوربا فى القرن الثانى الميلادى ، وانتشرت شرقاً وغرباً وجنوباً . ومنهم حكام نورمنديا بفرنسا ووليم الفاتح . الذى غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦ م والنورمان الذين هجموا على سبتة هم من الفرنسيين .

فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة القائد البحرى العظيم على ابن ميمون وأنزل بالنورمان الهزيمة بعد خسارة فادحة فى الطرفين[١] .

ويبدو أن عبد المؤمن قضى سنة ٥٣٨ هـ فى تنظيم خططه ، دون ان يقوم بنشاط يزعج به المرابطين الذين سالموه أكثر من عام — عقب وفاة السلطان على بن يوسف — لما حل بهم من مفاجآت عطلت سير الصراع .

وفى سنة ٥٣٩ هـ بدأ عبد المؤمن يستأنف نشاطه فى المنطقة المحيطة بمدينة تلمسان فاتجه نحو قبيلة جزولة[٢] يريد ضمها للموحدين ، وهذه قبيلة ذات بأس وقوة ، حتى إن المرابطين لم يستطيعوا كسر شوكتها على الرغم من حكمهم الجزائر . ولكنها قبلت الانضمام إلى عبد المؤمن ، لأنها تعيش بين بطون قبيلة زناتة التى يحيط بها من كل جانب ، وعبد المؤمن ينتمى إلى زناتة .

وعندما اتجه الأبرتير بجيشه لمحاربة الموحدين بالجزائر أوعز عبد المؤمن إلى قبيلة جزولة بمنازلته فلم يستطع الأبرتير الصمود أمام جزولة ولاذ بالفرار . ويذكر البيذق ، أن الأبرتير أرسل إلى عبد المؤمن يحذره من هذه القبيلة التى خضعت له فى الظاهر ، ولكنها سوف تتحين فيه الفرصة[٣] . ولا أدرى كيف يجوز أن ينصح الإنسان عدوه اللدود ؟ . ربما أراد الأبرتير — إن صحت هذه الرواية — أن يحرم الموحدين من هذه القوة الجديدة التى ستغذى الجيش الموحدى بانضمام هذه القبيلة العنيدة إليهم . وهناك سبب آخر يحمل على الشك الشديد فى رواية البيذق . وهو أن عبد المؤمن بعد أن استسلم له رجال جزولة جردهم من خيلهم وسلاحهم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص١١٧ (مخطوط نشر بعناية ليفى بروفنسال تبطوان سنة ١٩٥٦) .

(٢) تنتشر جزولة بأقصى سوس المغرب الأقصى و بمنطقة تلمسان بالجزائر .

(٣) أخبار المهدى ص ٩٥ .

وأمر بقتلهم جميعاً ما عدا الصبيان[١] . فأراد البيدق أن يلصق سبب هذا الغدر بالأبرتير ، وأن ينزه الخليفة عبد المؤمن عن هذه التهمة الخلقية ولكن أحداث تاريخ الموحدين الأوائل تحمل جرائم أشد عنفاً وفظاعة من قتل رجال جزولة . فلقد أزهقت أرواح قبائل بأسرها فى عمليات التمييز التى قام بها البشير وعبد المؤمن بأمر المهدى كما ذكرنا من قبل .

ولما أن فتك عبد المؤمن برجال جزولة على النحو السالف ، استولى على أموالهم وأسلحتهم وسبى نساءهم وأولادهم ، وكانت غنائم كثيرة أثارت حقد الأبرتير فاشتبك مع الموحدين فى حرب ليستلب منهم غنائم جزولة فى مكان يعرف بتاكوط آن تيفسرت ، واشتد القتال بين الفريقين ، واستطاع الموحدون أن يتغلبوا على المرابطين وأن يقتلوا الأبرتير[٢] . الذى طالما فروا أمامه ، ويذكر البيدق أنه لم ينج من عسكر المرابطين سوى ستة جنود[٣] .

ويعتبر موت « الأبرتير » الضربة الثانية التى أصابت المرابطين بعد موت السلطان على بن يوسف بن تاشفين ، فقد زاد من فداحة العبء الثقيل الملقى على عاتق السلطان تاشفين .

ولقد رأى السلطان تاشفين أن الموحدين استفحل أمرهم بالجزائر ، وأنه لا مناص من أن يقود المعركة بنفسه ضدهم . فاستدعى الحشود من كل جهـة . فاجتمع لديه كثير من رجال القبائل الموالية للمرابطين ، وجاءته جنود من بجاية بقيادة طاهر بن كباب الصنهاجى الحمادى ، كما جاءته جنود من الأندلس بقيادة ابنه ابراهيم[٤] فأخذ ينسق هذه الجنود

---

(١) المصدر السابق ٩٦ .

(٢) كان مقتله سنة ٥٣٩ هـ — ١١٤٤ .

(٣) أخبار المهدى ص ٩٦ .

(٤) كان السلطان تاشفين قد أرسل ولده إبراهيم إلى معاهد قرطبة لإتمام دراسته بها ثم استدعاه ، فوصل فى جنوده الأندلسيين إلى مدينة تلمسان (مقر الجنود المرابطين المحتشدين للقتال) وكان ذلك أواخر سنة ٥٣٨ هـ . فولاه أبوه=

المتعددة الأجناس ، حتى ظهرت فى نظام متقن ، وهيئة رائعة وروح معنوية عالية واختارت بلدة سطفسيف (من ضواحى تلمسان) مكاناً لإقامتها .

أما الموحدون فقد تحولوا عن « تيغسرت » ونزلوا بالصخرتين (فى الشمال الغربى من تلمسان) .

وابتدأ الجيش المرابطى بالعدوان ، إذ اشتبكت فرقة بجاية بالموحدين فى معركة عنيفة انتهت بانتصار الموحدين ، ومما لا شك فيه أن انتصار الموحدين قد أطفأ جذوة الحماس الذى استقبل به المرابطون المعركة[1] ، كما كان له أثر سيئ فى نفس تاشفين الذى تأكد من أن عبد المؤمن أضحى قوة لا يستهان بها ، بعد أن حل ببلاده (الجزائر) ، إذ ساندته قبائل كومية وزناتة[2] التى تعتبر عبد المؤمن أحد أبنائها . وأغاب بطون هذه القبائل تقطن منطقة تلمسان ! ! وأخيراً عرف تاشفين أنه لم يحسن الاختيار ، حين اختار منطقة « تلمسان » لإقامة جيشه . فقرر الرحيل إلى « وهران » على البحر الأبيض المتوسط . تاركاً « تلمسان » التى لم يتفق له من أهلها ما يريد « على حد تعبير المراكشى[3] وقبل أن يغادر تاشفين منطقة

= العهد ، وأمره بالتوجه إلى مراكش (حاضرة الدولة) ليتعاون مع حكام المرابطين هناك على إدارة دفة الحكم) .

(١) يذكر ابن عزارى : أن قائد فرقة بجاية بعث إلى الخليفة عبد المؤمن سرًا يعده بأن يدخل فى صفوف الموحدين ، وإذا صحت هذه الرواية . فما السر الذى حمل هذا القائد على هذا . ربما كان معجباً بجدية الموحدين . أوربما توقع أنه ربما يقع أسيراً فى أيدى الموحدين . فيذكرون له هذه السابقة ! !

(٢) بين قبيلة زناتة وبين المرابطين عداء مستحكم قبل أن يظهر عبد المؤمن . فإن يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين قد دحر دول قبيلة زناتة التى كانت تحكم المغرب الأقصى والأوسط قبل المرابطين . وجعل من المغربين دولة واحدة — بالإضافة إلى الأندلس — والقبائل لا تنسى الثأر ! !

(٣) المعجب ص ١٣١ .

تلمسان قام بتدبير كمين لجيش موحد كان يقوده ابن زجو ، فقتل ابن زجو وقتل من معه من الجنود ، وقد أشعل هذا الحادث نار السخط والحقد على المرابطين .

وعندما ارتحل تاشفين متجهاً إلى ميناء وهران ، سار في أثره عبد المؤمن وانضمت إليه حشود من بنى « ومانو » الزناتيين ، كما ضم الجيش الموحدى — فى أثناء سيره إلى وهران — قبائل بنى « تلومى» و« عبد الواد » و« بنى ورسيفين » و«بنى توجين » وكانوا — فيما مضى — أنصاراً للمرابطين ، ثم عسكر عبد المؤمن على الجبل المطل على « وهران » (كدأب الموحدين فى التزامهم الجبال) .

أما « تاشفين » فقد اتخذ حصناً منيعاً على البحر (فى الشمال الشرقى من وهران) ليحتمى به عند الضرورة ، وأصدر أمره إلى قائد أسطوله « محمد بن ميمون » [1] بأن يسرع بقطع من الأسطول إلى ميناء وهران وبأن يرابط محاذياً للجيش ، فابى الأمر . ورتب أسطوله كما أراد الملك .

ويبدو أن الموحدين — وقد تكاثرت جموعهم واشتد ساعدهم بكومية وزناتة — أضحوا يؤمنون بانتصارهم فأخذوا يقومون — أول الأمر — بحركات إرهابية ، قصد إشعار المرابطين بقوتهم الفائقة على نحو ما يسمى فى عصرنا الحاضر — بالحرب الباردة أو حرب الأعصاب ، أو قريباً من هذا . إذ أخذوا يطلقون أصواتاً عالية دفعة واحدة سمعها المرابطون وأهل وهران جميعاً . ثم قادوا جميع دوابهم وسقوها دفعة واحدة من عين وهران التى يستقى منها سكان الميناء . كل هذا والمرابطون يرصدون تحركاتهم فى توجس وخوف ، وبينما كان المرابطون متأهبين للاحتفال

---

(١) يذكر البيدق أن قواد تاشفين ، حينما لمسوا ضعفه تحولوا عنه . فهرب القائدان المرابطيان : انجمار ، وونجى ، ثم ذهب قائد البحر (ابن ميمون) إلى متيجة . واعتنق مذهب الموحدين (أخبار المهدى ص ٩٦) .

بليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم ، إذ فاجأهم الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى مقتحماً عليهم معسكرهم ، فوقع فى صفوفهم المبعثرة الاضطراب والوجوم ، واشتغلت طائفة من جنـد الموحدين بقتل جنود المرابطين . وجمعت طائفة الخشب ، وأوقدت النيران حول حصن « تاشفين » الذى أسرع إلى الاحتماء به هو وبعض خاصته ومنهم ابن مزدلى . وبشير الرومى وصندل الفتى . وامتدت ألسنة اللهيب إلى باب الحصن فأخذ فى الاشتعال فخشى تاشفين الهلاك ، وامتطى صهوة فرسه الريحانة ويمم البحر ليلتحق بأسطوله وينجو بنفسه ، فى رعونة الرعب والفزع ، فسقطت به فرسه فى هوة سحيقة ومات تاشفين وهلكت فرسه ! [١]

ويقول المراكشى فى عبارة موجزة : . . . خرج تاشفين — بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد ، فقصد مدينة وهران فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج راكباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال : إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ، ثم أحرقوه . [٢]

أما لسان الدين بن الخطيب فيصف لنا الحادث بتعبيره الأدبى المعهود فيقول : . . . واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبى محمد عبد المؤمن بن على خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، . . . فالتاث سعده ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ، قالوا : فكان فى تدبيره أن يلحق ببعض السواحل . . وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ليرفعه

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ص ١٩٨ . ويذكر البيذق أنهم قطعوا رأس تاشفين وأرسلوه إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن فصبره ، ووجهه الى تينمل .

(٢) المعجب ص١٣١ .

إلى الأندلس ، فخرج ليلاقى نفراً من خاصته [١] ، فرقهم الليل ، وأضلهم الروع ، وبددتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ، وتردّى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً فى الغد .

وكانت وفاة تاشفين بإجماع المؤرخين – ليلة سبع وعشرين رمضان المعظم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة [٢] وصلبه الموحدون . واستولوا على الأمر بعده ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

٥

استولى الموحدون – بعد مهلك تاشفين – على مدينة وهران بعد أن دافع عنها المرابطون دفاعاً مجيداً ثم اتجهوا نحو تلمسان (التى كانت تعتبر أعظم مدن الجزائر فى أثناء الحكم المرابطى) . وتختلف الروايات فى تصوير كيفية استيلاء الموحدين على هذه المدينة ، فبعض المؤرخين يذكر أن تلمسان كانت متمسكة بولائها للمرابطين ومن هنا فقد امتنعت – أول الأمر – على الموحدين ، فحاصرها عبد المؤمن نحو سبعة أشهر ، ولما لم تستسلم ترك على حصارها إبراهيم بن جامع [٣] واتجه إلى فتح مدن المغرب الأقصى الكبرى ، ليجهز على المقاومة الأخيرة للدولة المرابطية .

---

(١) استطاع القائد ابن مزولى أن يصل إلى أسوار وهران ولكنه فقد الوعى وهلك بعد ثلاثة أيام . أما صندل الفتى فقد سقط فى النار واحترق وأما يشير فقد نجا ودخل فى إحدى سفن الأسطول (الحلة السيراء ص ١٩٨) .

(٢) أخبار المهدى ص٩٨ ، الحلل الموشية ص ١٠٠ ، العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٤٦٢ (المقرى : الحلة السيراء) ص ١٩٨ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٠ – ٢٣٢ .

ويذكر البعض الآخر أن الموحدين قد لجأوا إلى القسوة والغدر حين دخلوا هذه المدينة . فبعد فرار حاميتها المرابطية ، اجتمع الأعيان والطلبة ، واستقبلوا عبد المؤمن ملتمسين إياه أن يعفو عنهم ، ولكنه أمر بقتلهم جميعاً . [٣] بحجة أنهم لم يخضعوا إلا بعد أن فرت القوة المرابطية عن المدينة ، كما أمر جنده أيضاً بأن يعملوا السيف فى رقاب المتمردين حتى بلغ عدد القتلى فى رواية ابن اليسع نحو مائة ألف . ويبدو أن هذه الرواية مبالغ فيها . لأن أغلب أهل تلمسان ، ينتمون إلى قبيلة زناتة الكبرى التى ينتمى إليها عبد المؤمن وقد قابل الزناتيون عبد المؤمن — حين دخل الجزائر — بالترحاب والابتهاج — باعتباره زناتيًّا — ودخلت زناتة فى دعوة الموحدين ، لا رغبة فى هذه الدعوة ، ولكن من أجل نصرة عبد المؤمن الزناتى ، وأحدث دخول زناتة فى الجيش الموحدى أثراً بليغاً فى تغير ميزان القوى بين المرابطين والموحدين ، حتى كان ذلك إيذاناً بزوال دولة المرابطين المتداعية ، التى أقامت ملكها فى المغربين (الأقصى والأوسط) على أنقاض الإمارات الزناتية التى تغلب عليها مؤسس الدولة المرابطة السلطان يوسف بن تاشفين [٢] وهكذا وجدت زناته فى عبد المؤمن الابن البار ، الذى سوف يعيد إليها مجدها وكرامتها وملكها الذى اغتصبه المرابطون ، وبهذا الدافع القبلى الثأرى : انضمت زناتة إلى عبد المؤمن ، فلا يعقل — والحال كذلك — أن يبطش عبد المؤمن بأهالى تلمسان الزناتيين .

وخير الآراء ، رأى من يذكر أن تلمسان استسلمت عقب نبأ مصرع السلطان تاشفين . وسقوط ميناء وهران وكان ذلك فى رمضان

---

(١) الحلل الموشيه ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) انقسم المغرب بعد سقوط الأدارسة إلى عدة إمارات زناتية فكانت إمارة سلا لبنى يغرن ، وإمارة سجلماسة لمغراوة . ثم إمارة تارودانت ، وإمارة الشيوخ . . . إلخ فلما جاء يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية أسقط زناتة فى المغربين الأقصى والأوسط . وكون دولة متحدة منهما يرفرف عليها العلم المرابطى .

سنة ٥٣٩ هـ[١] وحينما استسلمت ، فرت عنها الحامية المرابطية واتجهت إلى مدينة فاس بقيادة الأمير يحيى بن أبى بكر (بن على بن يوسف) المعروف بالصحراوى ، الذى رأى أن يترك المرابطون تلمسان[٢] ويتجهوا إلى مدينة فاس[٣] ، ليدفعوا عنها السيل الموحدى الجارف ، الذى سوف يباغتها عقب تلمسان . لقد أدرك عبد المؤمن خطة الصحراوى فأسرع إلى مدينة فاس ، لأن الإبطاء يمكن المرابطين من إحكام تحصين المدينة ، مما يجعل فتحها أمراً عسيراً على الموحدين ، ونزل عبد المؤمن — وهو فى طريقه إلى فاس — بمدينة وجدة[٤] ونشر بها مبادئ الموحدين ثم اتجه إلى مدينة « اكرسيف » وأخضع ثوارها[٥] ثم جاوزها إلى « المقرمدة » القريبة من مدينة « فاس » ، ولما علم الأمير يحيى بن أبى بكر باقتراب الموحدين من مدينة « فاس » ، أخذ ينظم خطط المقاومة والدفاع عن المدينة ، ولكن عبد المؤمن لم يمهله ، إذ رماه بألف رجل من هسكورة وصنهاجة بقيادة أبى بكر بن الجبر ، فعبر الموحدون نهر « سبو » وصعدوا جبل زالاغ المشرف على « فاس » من الشمال ، وأوقد ابن الجبر النيران

---

(١) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٣٤ — ويذكر ابن أبى زرع رواية أخرى لابن مطروح القيسى ، تقول بأن عبد المؤمن دخل وهران فى غرة سنة ٥٤٠ هـ ، ودخل تلمسان فى صفر من السنة المذكورة (راجع ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢) إذ أن أكثرية أهل تلمسان من قبيلتى زناتة وكومية ، التى ينتمى إليها عبد المؤمن بن على .

(٣) تعتبر مدينة فاس العاصمة الثانية للمغرب ، وكان المرابطون يضعون بها قوة هائلة من جيشهم .

(٤) مدينة وجدة هى آخر مدينة على الحدود المغربية الشرقية .

(٥) كان بجهة اكرسيف ثائر يدعى « مصبوغ اليدين » يريد الملك نفسه . فقام إليه يصلاتن بن المعز ، وموسى بن زيرى وغزواه وقتلاه . كما ظهر بهذه الجهة ثائر آخر يدعى «أبا يعلى» فخرج إليه أبو إبراهيم وأبو بكر بن ويفتين وقتلاه وساقا غنائمه . (البيدق ص ٩٨ — ٩٩).

فوق الجبل ليرهب بها المرابطين . الذين تملكهم الاضطراب والفزع ، ولكن الأمير يحيى بن أبي بكر خرج فى جيشه ليرد الغزاة، وما كاد ضوء الصباح يظهر حتى اشتبك الجيشان ، وعند العصر ، أمر الصحراوى جيشه بالارتداد نحو المدينة للاستجمام [١] على أن يعاود القتال حينما يشاء . وحينئذ أدرك عبد المؤمن قوة المرابطين ، وأنهم يلجأون إلى خطة كسب الوقت ، فتقدم بجموعه الجرارة نحو مدينة « فاس » . ونزل بموضع يعرف بعقبة البقر كما عسكر الصحراوى بجبل العرض (فى الشمال الغربى من فاس) وبدأ الموحدون بالقتال فانتزعوا جبل العرض من الصحراوى الذى أسرع بجيشه إلى دخول « فاس » والتحصن بها . فضرب عبد المؤمن الحصار الكامل على المدينة ، ولم يعد فى وسع الصحراوى أن يخرج ليحارب الموحدين ، ثم يعود إلى المدينة للاستجمام بل أمسى حبيساً بالمدينة هو وجيشه . ولكن عبد المؤمن يرى أن الفرصة قد سنحت للقضاء على الدولة المرابطية المحتضرة ، وأنه من خطل الرأى أن ينتظر سقوط « فاس » بخطة الحصار ، الذى قد يطول أمده ، والذى يعطى الدولة المترنحة فرصة استعادة قوتها من جديد . لهذا ترك عبد المؤمن قسماً من جيشه بقيادة ابن الجبر لحصار « فاس » . وذهب بالقسم الآخر من الجيش لفتح مدينة « مكناس » (وهى على بعد ستين كيلو متراً غربى مدينة فاس) وكانت « مكناس » قد استعصت على الموحدين الذين هزمهم القائد المرابطى « يدربن وجلوط » وقد باغت عبد المؤمن مدينة « مكناس » ليلا وضرب عليها الحصار ، وضيق عليها الخناق . واستمر فى حصارها بنفسه ، فى حين كان يتابع أعمال جيشه الذى تركه يحاصر مدينة « فاس » ومما لا يخفى أن هذه الخطة كانت ترمى إلى تحقيق سقوط مدينتى « فاس »

---

(١) كان من عادة الموحدين أن يحاربوا ويعودوا إلى محلتهم بالجبل أما المرابطون — باعتبارهم أصحاب الدولة — فكانوا يحاربون ويستجمون بمساكنهم بالمدن .

و« مكناس » فى زمن واحد حتى يتفرغ الجيش الموحدى للاستيلاء على مراكش حاضرة الدولة المرابطية .

فأما « فاس » التى استمر حصارها تسعة أشهر ، فقد قام الموحدون – فى سبيل إسقاطها – بقطع الأشجار . وحمل الأحجار ، وعمدوا إلى سد مدخل النهر الذى يقسمها إلى قسمين [١] فحجز السد الماء عن المدينة وأحدث بحيرة كبيرة ، أخذت أمواجها تتلاطم بعنف ، فهدمت أجزاء من سور المدينة غير أن الفاسيين المتنعين بمدينتهم ، لم يستسلموا ، وطفقوا يبنون الأجزاء التى سقطت من السور وكان فى وسعهم أن يقاوموا الموحدين ، إذ بالمدينة ينابيع مائية تغنى السكان عن ماء النهر الذى حجزه الموحدون عنهم [٢] . ولكن خلافاً وقع بين الأمير الصحراوى قائد الجيش المرابطى ، وبين الجيانى حاكم « فاس » ، من جراء الخشونة التى كان يستعملها الصحراوى فى طلب الأموال من الجيانى وقد ضاق الجيانى ذرعاً بقائد الجيش ، فاتفق على تسليم المدينة سراً للموحدين! [٣] .

ويذكر « البيدق » أن الصحراوى طلب من الجيانى مالاً فأعطاه إياه ؛ فلما تكرر الطلب وكثر الإلحاح ضاق الجيانى صدراً ، وأرسل إلى ابن الجبر سراً قائلا : « هات عساكرك أفتح لك الباب » [٤] وكانت مفاتيح المدينة لدى الجيانى ، وفى الصباح الباكر ، فتح له الباب فدخل بجنود الموحدين ، ولم يشعر الصحراوى حتى رأى جنود الموحدين داخل المدينة . فاستيأس ، وفر فى ثلة من جيشه يريد النجاة بنفسه . وهبط بوادى « سبو » أما ابن الجبر

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) يقول السلاوى : إن من محاسن «فاس» أن نهرها يشقها نصفين وتتشعب جداوله فى دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها . . . إلى غير ذلك من عيون الماء التى تنبع بداخلها ، وتتفجر من بيوتها (ج ١ ص ١٦٨) .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٣١٥ .

(٤) البيدق ص ٩٩ .

فقد استقر « بفاس » ، وقتل طائفة من المرابطين الذين أبدوا عناداً وتمرداً . وعفا عن طائفة من بينهم « يينتان بن عمر »[١] .

وكان فتح « فاس » فى ذى القعدة سنة ٥٤٠هـ[٢] (أبريل سنة ١١٤٨م) ويبدو من روايات : البيدق وابن صاحب الصلاة وابن عذارى[٣] ، وابن خلدون[٤] أن عبد المؤمن لم يشهد فتح « فاس » (إذ كان فى هذا الوقت على رأس الجيش الموحدى المحاصر لمدينة مكناس)[٥] . ولم يخرج عن هذا الإجماع سوى صاحب الحلل الموشية[٦] . الذى يذكر أن الجيانى (حاكم فاس) اتصل بالخليفة عبد المؤمن ذاته، وأدخله المدينة من باب الفتوح . ولكننا نرجح رأى جمهور المؤرخين الذين يذكرون أن الجيانى فاوض ابن الجبر قائد الموحدين ، ومكنه من الاستيلاء على المدينة كما ذكرنا آنفاً . ولما علم عبد المؤمن بفتح « فاس » قدم إليها مسرعاً ، واستقر بها بعض الوقت ، وولى عليها « أبا عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى » على أن يعاونه الجيانى فى إدارة شئونها . وعقب انتهاء عبد المؤمن من تنظيم حكومة « فاس » على النسق الموحدى ، عاد إلى مدينة « مكناس » بجزء كبير من الجيش الذى فتح « فاسا » ولكنه لم يمكث « بمكناس » بل عين على حصارها القائد الموحدى أبا زكريا بن يومور واتجه إلى مدينة سلا التى استسلمت دون مقاومة ، ثم استولى على قصبة الرباط (وكان هذا فى السابع من ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ) وعين الشيخ عبد الواحد الشرقى[٧] والياً على سلا والرباط ، ثم اتجه إلى فتح مدينة مراكش.

---

(١) قال عبد المؤمن : نهى المهدى عن قتل أولاد يينتان (البيدق ص ١٠٠) .

(٢) البيدق (من ص ٩٨ — ١٠٢) ابن عذارى البيان . المغرب ج ٣ ص ٢٠.

(٣) أخبار المهدى ص ٩٩ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٥) أخبار المهدى ص ١٠١ .

(٦) الحلل ٥١١ .

(٧) المصدر السابق ص ١١٦ .

عاصمة الدولة المرابطية ، وآخر معاقلهم الحصينة ، فى فاتحة المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونية سنة ١١٤٦) [١] . وضرب عبد المؤمن قبته الحمراء (رمز القيادة) فوق جبل إيجليز المطل على مدينة مراكش وأمر فى الحال ببناء مسجد وصومعة عالية ليراقب منهما الأعمال الحربية ، ثم استقر فوق الجبل استقرار الواثق من النصر ، وأخذ يدير شئون الفتح ، وهو يدرك ، أكثر من غيره ، مدى تحصين مراكش التى امتنعت على المهدى وامتنعت عليه نفسه حين أراد اقتحامها فى بدء خلافته . ولكن الحال تغير تماماً هذه المرة . فالموحدون يطلبون مراكش الآن ، بعد أن مزقوا أوصال الدولة المرابطية فى المغربين الأقصى والأوسط ، وملكوا جميع البلاد وطأطأت لهم رءوس القبائل الشامخة ، وقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وهاهم أولاء ، يحاصرون مراكش ويضيقون عليها الخناق وعلى رأس حكومتها سلطان صبى لا يجاوز السادسة عشرة من عمره (وهو السلطان أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين) . ثم ماذا يصنع الجيش المرابطى إزاء جحافل الموحدين المنتصرة ؟ . ولقد كان على رأس جيش المرابطين صفوة من القادة الأكفاء . أمثال : « سير بن الحاج » و« إسحاق بن يينتان » و « محمد بن حواء » و« محمد بن يانجالا » [٢] ولكن هيهات . أن يبلغوا مأربهم فى دفع السيل الموحدى الجارف ، وقد أحاطت بدولتهم عوامل الفناء ! ! ، إن هؤلاء الرجال أداروا المعركة بنجاح نحو أربعة أيام ، وأبدوا من الشجاعة والصبر والإخلاص الشىء الكثير ، ولكن عبد المؤمن كان أكثر دهاء ومكراً ، إذ أعد لهم على طول المعركة كمائن مستورة . ولما نشب القتال فى اليوم الخامس ، خرجت الكمائن من مخابئها وأعملت السلاح فى رقاب المرابطين على حين غفلة منهم ، فأوقعت فيهم الهزيمة ، وغنمت نحو ثلاثة آلاف من خيولهم [٣] ، وفر من نجا منهم ، وضيقوا

---

(١) أخبار المهدى ص ١٠٢ والحلل الموشية ص ١١٧ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) أخبار المهدى ص ١٠٣ — الحلل الموشية ص ٢٠ .

عليهم الخناق واستمر الحصار نحو تسعة أشهر[١] حتى نفدت الأغذية ، ونفقت الدواب ، ومات كثير من الناس ، ولما أيقن عبد المؤمن أن روح المقاومة قد ماتت ، وأن الإعياء بلغ أشده بالسكان المحاصرين ، أمر باقتحام المدينة بالسلالم ، وجعل لكل قبيلة جهة معينة تقتحم منها فدخلت «هنتاتة» وقبائل«تينمل» من باب دكالة (فى الشمال الغربى) ودخلت «صناجة» من باب الدباغين فى (الشرق) ودخلت « هسكورة » وبقية القبائل من الأبواب الأخرى . ولم تمض ساعات قليلة حتى فتحت مراكش ، واستولى عليها الموحدون ، ولم يكتف الموحدون بهذا العناء الذى أنزلوه بأهل مراكش فى أثناء الحصار ؛ بل أخذوا يقتلون من توهموه معانداً ! ![٢]

ويذكر ابن الخطيب أن مراكش استبيحت ثلاثة أيام[٣] ، ولم ينج من أهلها إلا من بالغ فى إخفاء نفسه[٤] أما السلطان الصبى (إبراهيم بن تاشفين) فقد لجأ وخاصته إلى القصبة الداخلية المعروفة بقصر الحجر (وهو قلعة حصينة)[٥] وظل السلطان الصغير ، يقاوم بشجاعة فائقة حتى قبض عليه الغالبون ، هو ومن معه من أهله وخاصته ، واقتيد إلى محلة عبد المؤمن ، بجبل إيجليز فلما رآه الخليفة عبد المؤمن ، رثا لحاله ، ورق له ، ولا سيما أن السلطان الصغير أخذ يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له . . . يا أمير المؤمنين ، ما لى فى الأمر من شىء ، فتأثر الخليفة ومال إلى العفو عنه ، وقال لأبى الحسن بن واجاج (وهو من أهل جماعة الخمسين والموكل بقتل المرابطين المعاندين ، الذين يأمر الخليفه بقتلهم) . اترك

---

(١) من أوائل المحرم سنة ٥٤١ هـ — حتى أواخر شوال من نفس السنة : حيث سقطت مراكش فى أيدى الموحدين .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب . ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) وفى قول ابن الخطيب شك كبير .

(٤) الإحاطة فى تاريخ غرناطة ج ١ ص ١٩٢ .

(٥) أخبار المهدى ص ١٠٣ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ .

هؤلاء الصبيان ، ماذا نجنى من وراء قتلهم ؟ ولكن الرجل السفاح عارض هذا الرأى . وصاح بعبد المؤمن قائلا : « ارتدّ علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » . فغضب الخليفة وغادر مكانه ، وتبعه الموحدون ، ما عدا أبا الحسن هذا ، الذى عمد إلى السلطان الصبى فاقتاده فى غلظة ورعونة وقتله . غير آبه برغبة عبد المؤمن فى العفو عنه !

ثم شرع فى طلب طلحة (وصيف السلطان) ليقتله أيضاً . فاستل طلحة خنجراً من تلك التى كان يستعملها أبو الحسن ، وطعن أبا الحسن فأرداه قتيلا ، فاجتمع الجند على طلحة وقتلوه [١] ، وكان مقتل أبى الحسن بن واجاج على يد طلحة (خادم السلطان الصبى) جزاء وفاقاً على ما اقترفت يداه من إثم فى قتل السلطانّ البرىء ، وعلى مخالفته للخليفة عبد المؤمن ، الذى لا ندرى ماذا كان قد أعد له من عقاب على جموحه وراء شهوة قتل السلطان الصبى ، وعدم إصغائه إلى تنفيذ أوامر الخليفة ؟

وهكذا زالت الدولة المرابطية ، كأن لم تغن بالأمس ، بعد أن سجلت صفحات رائعة فى إعلاء كلمة الإسلام بالأندلس ، وأنشأت دولة كبرى ، شملت الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط [٢] .

---

(١) البيدق : أخبار المهدى ص ١٠٥ .

(٢) يذكر صاحب الحلل الموشية عن ابن اليسع أن مراكش سقطت فى أيدى الموحدين يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ (٢٤ مارس ١١٤٧ م) ولكن ابن الأشيرى يذكر أن يوم السبت هذا . كان السابع عشر من شوال فى السنة المذكورة (الحلل ص ٢٥) (والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٣ –٢٤) .

الباب الثانى

فتوح عبد المؤمن الخارجية

« ا » الأندلس

« ب » بجاية

« حـ » المهدية

(١) الأندلس

١

بين حكم المرابطين وحكم الموحدين

مما لا شك فيه أن المرابطين كانوا حصن الإسلام الحصين بالأندلس ، كما كانوا موضع فزع ورعب النصارى ، ومن هنا كانت الثورة على الحكم المرابطى أعذب أمانى النصرانية ، والطريق الوحيد إلى تحقيق آمالها فى إسقاط الأندلس الإسلامى مما يحملنا على الاعتقاد بأن النصارى هم المدبرون الحقيقيون لتلك الثورة العارمة .

وكان عبد المؤمن بن على عاهل الموحدين (مثل يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين) لا يرجو من وراء حكم الأندلس سوى إعلاء كلمة الإسلام ، وصيانة الحكم العربى بهذه البلاد فى وقت عصيب ، وفى فترة تاريخية من أشد الفترات التى مر بها المسلمون حرجاً وضيقاً ، إذ ثارت ثائرة النصرانية على الإسلام فى كل مكان ، فالحملات الصليبية بالمشرق تقلق بال الخلافتين العباسية والفاطمية . وهى فى صورة أخرى تحاول ابتلاع الأندلس الإسلامى باسم حركة الاسترداد النصرانية (La reconquista) وربما كانت فترة حكم عبد المؤمن بالأندلس أشد صعوبة ومشقة من عهد يوسف بن تاشفين (مؤسس الدولة المرابطية) لأن الفترة التى ظهر فيها عبد المؤمن ، كان النصارى فى أثنائها أشد يقظة وتربصاً وتعصباً ضد الإسلام . وقد أطمعهم فى المسلمين وقوى من أملهم فى استرداد الأندلس ثغرات الضعف التى أخذت تتكاثر فى نهاية حكم سلطان المرابطين « على بن يوسف بن تاشفين » وقد أوجز عبد الواحد المراكشى هذه الثغرات قوله : « فأما أحوال جزيرة الأندلس ، فإنه لما كان آخر دولة أمير

المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالا مفرطاً ، أوجب ذلك ، تخاذل المرابطين، وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء[١] ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم . واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم[٢] ، وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت «بالسوس»[٣] ، واشتغال « على بن يوسف » به ، عن مراعاة أحوال الجزيرة ، ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحول المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بنى أمية »[٤] .

فالمراكشى فى هذا النص ، قد بين حال الأندلس فى أواخر حكم السلطان « على بن يوسف » (أى قبيل الحكم الموحدى) فذكر أن الأحوال كانت مختلة اختلالاً مفرطاً ، مما يبرر اندلاع الثورة لا محالة ، فولاة المرابطين

---

(١) يبين المراكشى هذا الاختلال فى موضع آخر فيقول : « اختلت حال أمير المسلمين " على بن يوسف " — رحمه الله — بعد الخمسمائة " من الهجرة " اختلالاً شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ... وأهمل " السلطان " أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس . وكادت تعود إلى حالها الأول » (المعجب — ص ١١٤ — ١١٥) .

(٢) من هذة الثغور والمدن الإسلامية التى استولى عليها النصارى . ثغر المرية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ثم طرطوشة ولاردة وإفراغه من قواعد الثغر الأعلى .

(٣) يقصد بلاد السوس التى نبت فيها ابن تومرت . وهى جنوب المغرب الأقصى .

(٤) المعجب — ص ١٣٧ .

متخاذلون متواكلون ، قد نسوا واجبهم العسكرى ، وجنودهم قد تخلوا عن صفاتهم المميزة من الصرامة والخشونة ، واحتقار الرخاصة والنعومة وضعف المدنية ، وطفقوا يختلطون بالشعب الأندلسى ، وينهلون من لهوه ومتعه المختلفة وزاد الطين بلة أن هؤلاء الجنود لم يحسنوا الاختلاط بالشعب ، فكانوا كثيراً ما يعتدون على الناس ، ويستعلون عليهم ، ظناً منهم أنهم السادة الحماة ، فبدأ الشعب يتغير عليهم ، ويمقتهم ، ويفر من مصاحبتهم ، وزاده إعراضاً عنهم هزيمتهم على يد النصارى فى موقعة « سرقسطة » سنة ٥١٢ ﻫ .

ولا ريب أن هذه الهزيمة كانت العامل الرئيسى فى ثورة « قرطبة » على الحكم المرابطى سنة ٥١٥ ﻫ (وإن ذهب بعضهم إلى غير ذلك من أمور مباشرة)، ومما هو خليق بالذكر أن ثورة قرطبة على المرابطين — التى تعتبر أول تعبير عن سخط الأندلسيين على حكمهم — قد سبقت ظهور الموحدين بمظهر المناوئ للمرابطين . ولذلك نرى المراكشى قد جعل دعوة الموحدين من الأسباب التى أضعفت شأن المرابطين بالأندلس ، ولكن الموحدين ليسوا كل شىء فى هذا الضعف ، فقد أصيبت دولة المرابطين بالعطب لأمور ذاتية زلزلت كيانها ، وسببت اختلالها ، وزادها ضعفاً ظهور الموحدين ، واستفحال أمرهم ، وعدم قدرتها على إيقاف نمو دعوتهم . ولوكانت دولة المرابطين — حين ظهور الموحدين — فى مستوى قوتها فى عهد يوسف بن تاشفين ، لما استطاع الموحدون أن يقيموا لهم دعوة ولا دولة ، ولأضحوا خبراً من أخبار التاريخ المرابطى . وليس أدل على ضعف المرابطين من ظهور الموحدين واطراد نموهم فى أحضان دولتهم ، ولقد استمر سلطانهم (على بن يوسف بن تاشفين) فى غفلته وتراخيه حتى استفحل أمر الموحدين وأضحوا قوة جبارة شغلت جميع قوات الجيش المرابطى بالمغرب وأضعفت من هيبته بالأندلس .

وكان الأندلسيون المتعطشون إلى الثورة على المرابطين ، يرقبون الصراع القائم بين عبد المؤمن ، وبين الدولة المرابطية بعين يقظة ويتحمسون لانتصار الموحدين لا تشيعاً لهم ، ولكن رغبة فى زوال الحكم المرابطى الذى لم تهضمه أمعاؤهم . حتى إذا ما قدر الله أن يتردى السلطان تاشفين بن على بفرسه فى حفرة عميقة ويسلم الروح بمدينة وهران سنة ٥٣٩ هـ على ما أسلفناه اشتعلت نار الثورة بالأندلس دون إبطاء .

٢
ثورة الأندلس على المرابطين قبيل حكم عبد المؤمن

(١) ثورة الجنوب الغربى

وقد قامت الثورة — أول ما قامت — فى الجنوب الغربى للأندلس وكان زعيمها رجلاً انتحل التصوف حتى تكاثر حوله الأتباع ثم ادعى المهدية . وهذا الزعيم يدعى « أبا القاسم أحمد بن الحسين بن قسى »[(١)] (بفتح القاف) . ويبدو أن ابن قسى بالأندلس أراد أن يسلك سبيل ابن تومرت بالمغرب ، إذ بدأ متصوفاً ثم ادعى المهدية وتلقب بالإمام . وأخذ يناضل الحكم المرابطى بالأندلس على نحو ما صنع ابن تومرت بالمغرب وقد انتهت دعوة ابن تومرت بإسقاط الدولة المرابطية بالمغرب على يد تلميذه « عبد المؤمن بن على » ، فليس ببعيد أن يسقطها ابن قسى

(١) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسى . ينتمى جده إلى أصل نصرانى وقد ولد فى مطلع القرن السادس الهجرى بأحواز شلب . ونشأ بها . ولما بلغ مبلغ الرجال اشتغل بالأعمال الحكومية ، ثم سئمها وأكب على دراسة الصوفية وتبحر فيها ، ومال نحو الزهد فتقشف واخشوشن ، وباع أملاكه ، وتصدق بثمنها ، وطفق يجول فى أنحاء الأندلس ، حتى التقى بشيخ متصوفة الأندلس فى عصره أبى العباس بن العريف ، ودرس عليه أصول التصوف حتى استطاع أن يؤلف فيه ، ثم عاد إلى قرية « جلة » من أعمال شلب وبنى بها رابطة للعبادة ودراسة التصوف . فكثر مريدوه ، وقد وجه تلاميذه إلى دراسة الكتب ذات المغزى الفلسفى مثل كتب الغزالى ، ورسائل إخوان الصفا . وكان عارفاً بطرق التأثير على الجماهير ، فادعى الولاية والهداية ، وابتدع كثيراً من الخوارق والشعوذة فافتتن به الجاهلون الذين اعتمد عليهم فى ثورته . انظر ترجمة ابن قسى بكتاب « الحلة السيراء » لابن الآبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس — ج ٢ ص ١٩٧ — ٢٠٢ .

بالأندلس . وقد صارت شبحاً هزيلا . وقد سمى ابن قسى أتباعه «المريدين»[١] فأطلق المؤرخون على ثورته اسم « ثورة المريدين » وقد اتخذ ابن قسى شعار « التصوف » ستاراً أخفى من ورائه أطماعه وقد انخرط فى سلك طائفة المريدين كثير من زعماء غربى الأندلس مثل « ابن القابلة » و « ابن وزير » و «ابن المنذر» وكان « ابن القابلة » أوفرهم ذكاء ، وأعظمهم حيلة ، فآثره ابن قسى (على نحو إيثار ابن تومرت لعبد المؤمن) وألقى إليه بأسراره وآماله ، وأطلعه على خططه . وقد قام ابن القابلة بتنفيذ أول أعمال الثورة من الناحية العسكرية ضد المرابطين ، فهجم على حصن « ميرتلة »[٢] ، واستطاع أن ينتزعه من الحامية المرابطية وكان هذا ليلة الخميس الثانى عشر من صفر سنة ٥٣٩ هـ ، ثم طفق « ابن القابلة » يبث مبادئ « ابن القسى » فى جهات « ميرتلة » مما حدا بالمرابطين إلى مضاعفة جهودهم لاستعادة نفوذهم والبطش بحركة المريدين ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ، ويخربون ما يصادفهم من قرى آمنة ، فكان من أثر هذه الأعمال الطائشة ، أن أقبل الناس على دعوة المريدين بحماس وتشجيع .

وفى غرة ربيع الأول ، استقبل « ابن القابلة » إمامه « ابن قسى » فى « ميرتلة » وسط مظاهر التهليل والتكبير ، ولما استقر الإمام ، أخذ ينشر دعوته فى جميع جهات غربى الأندلس . فاستجاب لها العدد العديد من العلماء والزعماء والأعيان ، ومن أبرز هؤلاء الفقيه محمد بن عمر بن المنذر[٣]

---

(١) أشار ابن صاحب الصلاة فى كتابه « المن بالإمامة » إلى طائفة المريدين كما عرف عنه أنه وضع فيهم كتيباً خاصاً . ونأسف إذ لم نستطع العثور على هذا الكتيب بين مخطوطات المكتبات العربية بمصر والمغرب ، ومكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

(٢) ميرتلة — مدينة بجنوب غربى الأندلس ، تقع على نهر « وادى يونس » بالقرب من مصبه .

(٣) هو أبو الوليد محمد بن المنذر أحد أعيان شلب ونبهائها . وقد تعلم بشلب حتى صار من كبار الفقهاء كما برز فى الأدب ، وقد ولاه المرابطون خطة الشورى (والمشاورون=

زعيم « شلب »[١] والزعيم ، « سد راى بن وزير » رائد المريدين بمدينة « يابرة »[٢] وزعيم ثورتها ضد المرابطين ، وقد استطاع « ابن وزير » أن يطرد المرابطين من « يابرة » ويستولى على زمام الأمور فيها .

أما الفقيه « ابن المنذر » فإنه هاجم الحامية المرابطية بحصن « مرجيق »[٣] (وفتك بعدد وفير منها) واستولى على الحصن . ولما علم جنود المرابطين بمدينة « باجه »[٤] بما حدث لزملائهم بحصن « مرجيق » فروا إلى مدينة أشبيلية (حاضرة غربى الأندلس) . فسار ابن المنذر إلى باجة واستطاع الاستيلاء عليها بمعاونة « سدراى بن وزير » الذى أمده بطائفة من شجعان المريدين على رأسهم أخوه « أحمد » وخاله « عبد الله بن الصميل » ثم اتجه ابن المنذر ، وابن وزير إلى إمامهما المهدى ابن قسى ، وجددا له البيعه ، فأقر ابن المنـــذر على إمارة « شلب » ، وابن وزير على إمارة « باجة » ومن هذا أخذ ابن قسى يشعر بسلطانه وقوة دعوته ، فأضحى لا يخشى

= جماعة من كبار العلماء يختارهم الحاكم للاستشارة فى أمور القضاء وأحكام الشريعة . وكانوا أعلى منزلة من القضاة) ولكنه ترك هذا المنصب وانزوى عن الناس وتزهد ولازم الرباط معتكفاً وتصدق بماله وانضم إلى طائفة المريدين أتباع أحمد بن قسى ، وامتحن من أجله . واستطاع أن يتخلص من بطش المرابطين . وقام فى شلب بدعوة ابن قسى ، وقاد ثورته بشلب .

(١) شلب (Jilves) مدينة صغيرة (حاليا) تقع جنوبى البرتغال تابعة لمديرية الغرب (Algarve) .

(٢) يابرة (Evora) بلدة جنوبى البرتغال (الحالية) وهى الآن عاصمة مديرية المتيجو (Almetejo) على بعد ١١٧ كيلو متراً من الأشبونة (عاصمة البرتغال) .

(٣) مرجيق : يذكر الدكتور حسين مؤنس (فى تعليقاته على كتاب الحلة السيراء لابن الأبار) أن مرجيق هوما يعرف الآن بمدينة (Monchique) الواقعة جنوبى البرتغال ونرى تباعداً واضحاً بين اللفظة العربية واللفظة البرتغالية مما حملنا على الشك فى أنهما شىء واحد .

(٤) تقع مدينة باجه بين مدينتى شلب ويابرة . وهى من مدن جنوبى البرتغال .

بطش المرابطين الذين أخذت شمس دولتهم تؤذن بالمغيب ولكن انتصارات عبد المؤمن وتطلعه إلى الأندلس (التى هى جزء من مملكة المرابطين) أخذ يقض مضجعه . لهذا رأى الإمام « ابن قسى » أن يتقرب إلى « عبد المؤمن». فأرسل إليه رسولاً يحمل رسالة تشتمل على معان كريمة . ولكن ابن قسى لقب نفسه فيها بلقب الإمام المهدى . فأنكر[1] عبد المؤمن عليه هذا الادعاء لأن الإمامة والمهدية منحة خص الله بها المهدى ابن تومرت فقط (فى نظر الموحدين) ، ومن هنا لم تحقق الرسالة الغرض المقصود ، وهو إيجاد صداقة بين ابن قسى وعبد المؤمن بن على . بل ربما حققت عكس هذا الغرض . إذا امتلأ عبد المؤمن حقداً على ابن قسى الذى يدعى المهدوية التى من شأنها معارضة مهدوية بن ترمرت مهدى الموحدين وعدم الإيمان بها !! . وقد حفزت الرسالة « عبد المؤمن بن على » إلى سرعة البت فى مصير الأندلس ، أما ابن قسى فربما لم يكترث كثيراً بإنكار عبد المؤمن لإمامته ، وربما لم يحزنه أن رفض الموحدون صداقته إذ أوعز إلى تابعه المخلص الفقيه بن المنذر أن يضاعف أعمال الجهاد والفتح ، فأمر بن المنذر بإحضار حشود المريدين وتوجه بها إلى إمامه « ابن قسى » الذى منحه لقب « الملك العزيز بالله » وزوده بالنصائح ، وباركه بالدعاء .

وحينئذ شرع جيش المريدين فى أعمال الفتح بقيادة العزيز بالله ابن المنذر فعبر نهر « وادى يانه » واستولى على مدينة « ولبه»[2] (بكسر الواو) الواقعة شرقى النهر المذكرر ، ثم استولى على مدينة « لبلة »[3] (بفتح اللام) بمعاونة « يوسف بن أحمد البطروجى » أحد زعماء المريدين فى تلك الناحية ثم اشتد طموحه ، فرغب فى الاستيلاء على مدينة أشبيلية (عاصمة غربى الأندلس) ولكن يحيى بن غانية (قائد عام الجيش المرابطى بالأندلس)

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٢) ولبه (Wuelva) بجنوب البرتغال بالقرب من شاطئ المحيط الأطلسى .

(٣) لبلة : فى الشمال الشرقى من ولبة بجنوب البرتغال الحالية .

داهم ابن المنذر قبل أن يدخل أشبيلية وفتك بكثير من جيش المريدين ففر ابن المنذر ناجياً بنفسه إلى « لبلة » ثم إلى « شلب » مقر إمارته . ولقد كان فى إمكان القائد « يحيى بن غانية » أن يقضى على ثورة المريدين نهائياً لو استمر فى مطاردتهم ، ولكنه لم يفعل إذ ترامت إليه أخبار مؤكدة بقيام القاضى ابن حمدين[١] بالثورة فى مدينة « قرطبة » (مقر الحكومة المرابطية بالأندلس) فآثر القائد يحيى بن غانية أن يتريث بجيشه بعض الوقت بمدينة أشبيلية ليرقب أحداث ثورة ابن حمدين بقرطبة .

وهنا نرى ابن قسى يشرع فى مغامرات جديدة ، ويطمع فى الاستيلاء على مدينة قرطبة ، إذ سوف يرحب الثوار (وعلى رأسهم القاضى ابن حمدين) بالإمام ابن قسى لاشتهار أمره ، وذيوع دعوته ، ومشايعة ابن حمدين لدعوة المريدين ولكن « ابن قسى » ما كاد يقوم بمغامرته ، حتى انتهى إلى علمه أن أهل قرطبة استدعوا « سيف الدولة بن هود »[٢] ليكون أميراً عليهم ،

---

(١) ابن حمدين : هو أبو جعفر ، حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، ينتمى إلى بيت عربى عريق . وقد تلقى العلم بقرطبة واشتغل بسلك القضاء حتى وصل إلى منصب قاضى قضاة قرطبة فى شعبان سنة ٥٢٩ هـ (بعد مقتل قاضيها أبى عبد الله ابن الحاج) وقد اختلف ابن حمدين مع حكام المرابطين فعزل عن منصبه سنة ٥٣٢ هـ ، ثم قامت فتنة بين الأهالى وحكام قرطبة (المرابطين) فخرج ابن حمدين من عزلته وأطفأ الفتنة التى كادت تنقلب إلى ثورة عارمة . ويبدو أن المرابطين قد شعروا بمكانته بين الشعب القرطبى . ولكنهم فى الوقت نفسه لا يريدون أن يظهروا بمظهر الضعف أمام ابن حمدين – وكان منصب القضاء شاغراً – فتركوا اختيار القاضى للشعب الذى لم يتردد فى اختيار ابن حمدين . فعين قاضياً للمرة الثانية سنة ٥٣٦ هـ . وصار يشغل هذا المنصب الخطير حتى قام بالثورة فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أعمال الإعلام ص ٥٢ – ٥٥) والتكملة رقم ١١٩ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وبنو هود هم ملوك مملكة « سرقسطة » (أعظم معقل إسلامى بشمال الأندلس) ولما ضم يوسف بن تاشفين الأندلس إلى المغرب ترك « سرقسطة » مستقلة لتكون حاجزاً =

وأن القاضى ابن حمدين نزل على إرادة الشعب فى هذه الدعوة . وبهذا تحطمت آمال « المريدين » فى الاستيلاء على « قرطبة » كما خاب مسعاهم من قبل ، فى الاستيلاء على « أشبيلية »[١] وأخذ سوء الحظ يطاردهم ، إذ نشأ نزاع بين الإمام بن قسى وبين تابعه « سدراى بن وزير » (أمير باجه) أدى إلى أن أوعز « ابن قسى » إلى تابعه المخلص « ابن المنذر » (أمير شلب » بأن يحارب زميله « ابن المنذر » الثائر على المريدين . فنشب القتال بينهما وانتهى بهزيمة ابن المنذر !! فاستمر ابن وزير فى طغيانه وعصيانه ، واستولى على مدينة « شلب »[٢] مقر إمارة ابن المنذر ولم يقف عند هذا الحد بل انتزع مدينة « ميرتلة » وحصنها الذى يقيم فيه « ابن قسى » وبهذا مزق الدعوة « المريدية » شر ممزق ، إذ خلع ابن قسى من الإمامة وطفق يدعو للقاضى ابن حمدين زعيم ثورة قرطبة[٣] . فلم يجد ابن قسى مناصاً من الفرار لينجو بحياته . ثم عبر البحر واتصل بالخليفة عبد المؤمن بن على تائباً مستغفراً . فغفر له « عبد المؤمن » ما بدر منه من ادعاء كاذب للإمامة والمهدية وأنزله منزلاً كريماً .

ويختلف المؤرخون فى تعيين الزمان والمكان اللذين قابل فيهما « ابن قسى » « عبد المؤمن بن على » فبعضهم يذهب إلى أنهما التقيا فى ربيع الآخر

= بين الأندلس ونصارى الشمال . وقيل: لم يستسلم ابن هود للمرابطين . ولم يتحمس لتوحيد الأندلس الإسلامى . وآثر التحالف مع الفونسو المحارب ملك « أرجون » ولكن القائد المرابطى « محمد بن الحاج » استطاع الاستيلاء على « سرقسطة » سنة ٥٠٣ ﻫ . ففر ابن هود إلى النصارى حيث أسكنه الفونسو حصن « روطة » (Rueda) ولكن النصارى استولوا على « سرقسطة » سنة ٥١٢ ﻫ . فظل ابن هود بإمارته الصغيرة المجاورة للحصن المذكور حتى تنازل عنها للقشتاليين سنة ٥٣٥ ﻫ مقابل ضياع وامتيازات بنواحى طليطلة .

(١) ابن الأبار — الحلة السيراء — ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٣) الحلة السيراء ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

سنة ٥٤٠ هـ[١] وأن لقاءهما كان بمدينة « سلا » وبعضهم يذكر أنهما التقيا بمدينة « مراكش » سنة ٥٤١ هـ[٢] (بعد أن استولى عبد المؤمن على المدينة المذكورة وأسقط المرابطين) وأن ابن قسى عبر إلى المغرب سنة ٥٤٠ هـ . ولكنه تريث بعض الوقت بمدينة « سبتة »[٣] حتى ينتهى الخليفة عبد المؤمن من إسقاط المرابطين بمراكش .

ومما لا ريب فيه أن مقابلة « ابن قسى » للخليفة عبد المؤمن كانت من أعظم الحوافز التى دفعت عبد المؤمن إلى الإسراع فى إرسال الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، وكان على الموحدين أن يضربوا على أيدى الثوار الذين يحلمون بالانفصال عن المغرب . والرجوع بالأندلس إلى عهد ملوك الطوائف . وعليهم أن يحاربوا حكام المرابطين الذين لا يزالون متشبعين بعهد المرابطين ، غير آبهين بسقوط دولتهم بالمغرب على أيدى الموحدين . وعليهم قبل هذا وذاك ، أن يقمعوا أطماع النصرانية المتربصة التى تقدم العون إلى الثوار . رغبة فى إزالة الحكم المغربى الذى حال بينهما وبين الاستيلاء السريع على الأندلس :

---

(١) ابن الأبار – الحلة ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ٢٥١ .

(٢) هذا رأى ابن خلدون (العبر ح ٦ ص ٢٣٥) .

(٣) ويذكر ابن خلدون : أن ابن قسى نزل بسبتة سنة ٥٤٠ هـ وأن واليها ابن مخلوف هيأ له مقابلة عبد المؤمن التى تمت بعد فتح مراكش سنة ٥٤١ هـ – (المصدر السابق والصفحة) .

(ب) الثورة فى الوسط وبقية مدن الجنوب

١

أما فى وسط الأندلس فقد شبت الثورة فى مدينة « قرطبة » (حاضرة الأندلس ، ومقر قيادة الحكم المرابطى)[١] متأثرة بثورة « المريدين » فى الجنوب الغربى . فقد انتهز القرطبيون فرصة خروج الجيش المرابطى بقيادة قائد عام القوات المرابطة بالأندلس « يحيى بن غانية »[٢] من قرطبة لإطفاء ثورة المريدين بغربى الأندلس ، وقرروا خلع هذا القائد ، كما خلعوا فى الوقت نفسه الوالى المرابطى « أبا عمر اللمتونى » ثم أجمعوا أمرهم على تولية الفقيه « القاضى ابن حمدين » شئون الحكم . وقام الشعب بمبايعة « ابن حمدين » فى المسجد الكبير بقرطبة ، ثم حملوه على الأعناق حتى استقر بقصر الخلافة[٣] .

وكان « يحيى بن غانية » حينئذ يحاصر ثوار المريدين بحصن « لبلة »

---

(١) حين ضم « يوسف بن تاشفين » الأندلس إلى المغرب فيما بين سنة ٤٨٣ هـ — ٤٨٨ هـ اتخذ مدينة « غرناطة » حاضرة للأندلس . وفى سنة ٥٢٦ هـ ، أصدر السلطان على بن تاشفين مرسوماً بأن تنقل إدارة الحكم المرابطى بالأندلس إلى مدينة « قرطبة » وهكذا انتقل الأمير تاشفين بن السلطان « على » والى الأندلس إلى قرطبة ومعه جميع أعضاء الجهاز الإدارى .

(٢) حينما استدعى السلطان « على بن يوسف » ابنه الأمير تاشفين سنة ٥٣٢ هـ من الأندلس إلى المغرب ليكون وليًّا للعهد . أسندت قيادة الجيوش المرابطية بالأندلس إلى « يحيى بن غانية » .

(٣) أطلق الثوار على « ابن حمدين » لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وهذا اللقب كان يطلق على « يوسف بن تاشفين » سلطان المرابطين وعلى ابنه « على بن يوسف » .

وما كاد يعلم بقيام الثورة فى قرطبة وإلغاء الحكم المرابطى بها ، حتى فك الحصار عن حصن « لبلة » واتجه إلى مدينة « إشبيلية » قصد الإقامة بها بعض الوقت ريثما يتبين أمور ثورة « قرطبة » . غير أن الأشبيليين لم يدعوا له فرصة الإقامة المطمئنة ، بل ثاروا عليه ، وناصبوه العداء . فترك أشبيلية ، واحتمى بحصن « مرجانة » بالقرب منها[١] .

وكان « يحيى بن غانية » بجانب مقدرته العسكرية ، رجلا بعيد النظر دارساً نفسية الشعب الأندلسى المتقلب ، إذ نراه يؤثر الهدوء والصمت إزاء ثورة قرطبة ، مراقباً سير الأحداث فيها ، مطمئناً إلى أن القرطبيين سوف لا يثبتون على رأى فى اختيار الحاكم ، وأنه سوف يستدعى لدخول المدينة وإرجاع الحكومة المرابطية بها . !!

وقد صدق حدسه ، إذ لم يستطع القاضى ابن حمدين مواجهة أعباء الحكم وإرضاء أصحاب الأطماع الذين ناصروا الثورة لعلهم يغنمون من وراء العهد الجديد . ومن هنا نشأت ضده معارضة أخذت تنمو وتشتد ساعدها حتى نادت بخلعه وفرضت عليه أن يستدعى « سيف الدولة بن هود » ليحل محله فى إمارة قرطبة لعراقة أسرته فى شئون الحكم والسيادة . فوافق ابن حمدين على استدعاء سيف الدولة ابن هود ، نزولا على رغبة أغلبية الشعب ولكنه لم يستطع العيش بقرطبة فى ظل « سيف الدولة » فلاذ بالفرار ! ! أما « سيف الدولة » فقد تسلم الإمارة وسط موجات السخط عليه من أنصار « ابن حمدين » وأشياع المرابطين ، وقتلوا وزيره « الشماخ » فلم ير بدًّا من الفرار[٢] !!

ثم أعيد ابن حمدين إلى الحكم ، وظل فى الإمارة — هذه المرة — نحو سنة ، استطاع فى أثنائها أن يقوم بكثير من الأعمال المثمرة ، التى

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى تاريخ غرناطة . ج ٢ — ص ٣٠٦ .
(٢) الحلة السيراء — ص ٢٥ .

كان لها صدى عميق فى الأندلس . مما حدا بالكثير من زعماء الأندلس إلى طلب الانضواء تحت لواء « قرطبة » . ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون صاحب « شويش » وأبو جعفر بن أبى جعفر صاحب مرسية ؛ غير أن حساد « ابن حمدين » لم يتركوا له فرصة تمكنه من خدمة « قرطبة » على الوجه الأكمل . فاتصلوا بالأمير « يحيى بن غانية » وأقنعوه بسرعة دخول قرطبة وإعادة العهد المرابطى . فلبى الدعوة ، ودخلت قواته أحواز مدينة قرطبة فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٠ هـ . حيث اشتبك بجنود الثورة فى معركة حامية جنوب غربى « قرطبة » أسفرت عن انتصار « يحيى بن غانية » ودخوله المدينة ، وفرار « ابن حمدين » إلى مدينة « بطليوس » محتمياً بصديقه « عبد الله ابن الصميل » (من زعماء المريدين) . ثم تسلل إلى حصن « أندوجر » (شرقى قرطبة) واستطاع أن يكون لنفسه قوة ، وأن يبسط سلطانه على ما جاوره من البلاد ، غير أن جنود المرابطين اشتبكت معه وهزمته . ولكن « ابن حمدين » دفعته نفسه الأمارة بالسوء ، إلى الارتماء فى أحضان النصارى فاستنصر بالفونسو ديموندييس ملك قشتالة ، واستعداه على « يحيى بن غانية »[1] .

وفكرة الاستنصار بالنصارى فكرة مرذولة كان يلجأ إليها ملوك الطوائف بالأندلس فى حرب بعضهم بعضاً فأذلهم الله بعد العزة ، واستلب النصارى كثيراً من أملاكهم بسبب هذا الضعف المخزى ، ثم انتهى أمرهم بوأد سلطانهم ، على يد يوسف بن تاشفين كما أسلفنا — وها نحن أولاء نرى « ابن حمدين » لا يتعظ بماضى الأحداث ، ولا يتورع عن مصادقة النصارى

---

(١) هذا رأى ابن الخطيب : الذى يقول : « إن ابن حمدين أطمع القيصر فى قرطبة ، فاستجاب إلى دعوته ، وذهب بنفسه لمعاونته . أما الرواية النصرانية فتذكر أن القيصر لم يذهب بنفسه لمعاونة ابن حمدين . ولكنه أرسل الدوق « فرناندو خوانس » لمعاونته .

انظر عصر المرابطين — للأستاذ محمد عبد الله عنان ج ١ ص ٣١٤ .

ضد المسلمين ، وقد نسج كثير من الثوار المسلمين على منواله . فكان أمرهم فرطاً ! !

وكان القيصر ريموندليس – بوصفه زعيم حركة الاسترداد (Reconquista) النصرانية ، يتوق إلى زوال الحكم المغربي ، وعودة الأندلس إلى ممالك صغيرة متنابذة – على نحو عهد ملوك الطوائف – ليكون الاستيلاء عليها أمراً ميسوراً ، حتى يتحقق استرداد النصارى للأندلس على يديه . ولهذا رحب القيصر بدعوة ابن حمدين إياه ، ودخل النصارى وابن حمدين قرطبة فى ذى الحجة سنة ٥٤٠ ﻫ (مايو ١١٤٥ م)[١]

ولكن « ابن غانية » القائد المرابطى الشجاع لم تزعزعه هذه الأعاصير ، واستمر يجالد النصارى فى صبر وشجاعة يستحقان الثناء والإعجاب ، واستطاع أن يضيق عليهم ويحصرهم فى الجهة الشرقية بقرطبة فعاثوا فيها الفساد ، وانتهكوا حرمة المسجد الأعظم ، وانتزعوا ما فيه من الثريات المطعمة بالذهب والفضة ، ومزقوا المصاحف . وخربوا الأسواق ، وأنزلوا الضر بالأهلين . وكانت هذه الأفعال السيئة تزيد فى إصرار ابن غانية على دحر النصارى مهما كلفه الثمن ، وبينما كان الأمر شديداً – إذ تواترت الأخبار بقدوم « عبد المؤمن » إلى الأندلس ، فدب الفزع والرعب فى قلوب النصارى ، وكفوا عن الأذى . كما عمد القيصر إلى الاتصال السريع بالقائد الشجاع « يحيى بن غانية » ليصالحه . ويترك له قرطبة . إذ رأى القيصر أنه ليس من الحكمة أن يضعف المرابطين الذين سيقاومون الموحدين الطامعين فى اجتياح الأندلس وتخليصه من النصارى والمرابطين فى آن واحد .

وهكذا تفرض الأحداث حلولاً ليست فى الحسبان ، فيتفاوض القيصر مع ابن غانية وهو صاغر ، تاركاً مدينة قرطبة للمرابطين طائعاً مختاراً ، قانعاً من الغنيمة بالإياب . . ولكى يقنع نفسه بما صنع ، ويرضى كبرياءه ،

---

(١) المصدر السابق – الصفحة نفسها .

اجتمع بطائفة من وجوه قرطبة ، وطفق يتحدث إليهم حديث الوداع :
« إنى قد فعلت معكم من الخير مالم يفعله أحد قبلى . وإنى أتركم الآن رعية لى !! وقد وليت عليكم « يحيي بن غانية » فاسمعوا له وأطيعوه »[١] .
وهذه الكلمة — كما نرى — نفثة مصدور لا معنى لها ، إذ لم يكن لهذا القيصر سيادة سابقة على قرطبة مطلقاً ، كما أنه لم ينتصر على ابن غانية ، بل هو مهزوم مندحر ، فكيف يلقى كلمات السادة الغالبين ؟

أما ابن حمدين ، فلم يستطع الإقامة فى قرطبة . إذ وسم بالخيانة لوطنه ودينه كما أنه جر على مدينة قرطبة كثيراً من المصائب كما أسلفنا . ومن أجل هذا خرج مع « الفونسو ريموندبس » من قرطبة . فاستضافه الفونسو فترة بحصن « فرنجلوش » بالقرب من طليطلة . ثم عبر البحر إلى المغرب . وقابل الخليفة عبد المؤمن (وهو على حصار مراكش ٥٤١ ﻫ) أسوة بمن قابله من زعماء الثورة بالأندلس ضد الحكم المرابطى . ثم غادر المغرب إلى الأندلس ونزل « بمالقة » عند صديقه « ابن حسون » الثائر بها ، ثم حاول استرجاع مكانته بقرطبة على غير طائل . فاستقر بمالقة البقية الباقية من حياته[٢] .

أما مدينة غرناطة فقد اندلعت الثورة بها فى نفس سنة ٥٣٩ ﻫ التى قامت فيها ثورة « قرطبة » وربما اقتدت غرناطة بقرطبة فى ثورتها . وكان على رأس ثوار غرناطة القاضى « أبو الحسن على بن عمر بن أضحى »[٣] وكان ابن حمدين

---

(١) ابن الخطيب : ج ٢ — ص ٩٨ .

(٢) أعمال الإعلام ص ٢٥٣ — ٢٥٥ ويذكر ابن الأبار أن وفاة ابن حمدين كانت سنة ٥٤٨ ﻫ (انظر التكملة ١١٩) .

(٣) ولد ابن اضحى سنة ٤٩٢ ﻫ بمدينة المرية ، ونشأ فى معاهدها حتى صار من كبار الفقهاء والأدباء . وولى منصب القضاء بها ثم انتقل إلى مدينة غرناطة وعرف فيها بعلو منزلته الأدبية . إذ كان شاعراً جزيلا ومن شعره فى الغزل قوله : =

يطمع فى الاستيلاء على غرناطة بعد جلاء المرابطين عنها ، إذ أوعز إلى ابن أضحى زعيم الثوار بها ، بأن يدعو له ويتبعه ، موهماً إياه أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لنجاح الثورة . .

وقد اشتبكت قوات ابن أضحى مع قوات المرابطين داخل غرناطة ، وكان على رأس القوات المرابطية « على بن أبى بكر المعروف بابن فنو » ، وقد هزم ابن فنو الثوار وشتت شملهم ، فاضطر ابن أضحى إلى الاستنجاد بابن حمدين ثم بصديقه ابن جزى قاضى « جيان » . وعلى الرغم من أن ابن حمدين أنجده بقوة على رأسها ابن أخيه المعروف « بابن أم العماد » فإن هذه النجدة لم تغير من تفوق المرابطين مما جعل الثوار يتشككون فى كفاءة قيادة الثورة ، لهذا طلبوا إسناد القيادة إلى « سيف الدولة بن هود » الذى تغلب على « جيان » وغيرها من البلاد بعد فراره من قرطبة على ما أسلفنا . فقبل ابن أضحى هذا الرأى عن طيب خاطر . وغير خاف أن استقدام ابن هود إلى غرناطة قد أغضب ابن حمدين لأنه كان يطمح إلى الاستيلاء على غرناطة ، واستغلال ضعف ابن أضحى فى تحقيق هذه الأمنية .

ثم اشترك سيف الدولة وابن أضحى فى العمل ضد المرابطين ، ولكن استعانة الثوار « بابن هود » لم تغير الموقف ، فقد نشبت معركة بين الثوار (بقيادة ابن هود) وبين المرابطين ، انهزم فيها الثوار أيضاً ، وكان ذلك فى اليوم التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ وتبع الهزيمة موت ابن اضحى حتف أنفه[١] وإصابة الأمير « عماد الدولة » ابن

= يا ساكن القلب رفقاً كم تقطعه الله فى منزل قد ظل مثواك

يشيد الناس للتحصين منزلهم وأنت تهدمه بالعنف عيناك

(انظر الحلة السيراء ص ٢١٠ — ٢١١) .

(١) وقيل إن ابن هود وضع له السم فى كوب ماء فقتله . طمعاً فى أن يستأثر بالرياسة .. ولكن هذا الرأى ضعيف لأن ابن أضحى هو الذى استقدم ابن هود وعمل تحت إمرته . ولأن المعركة لم تنته بعد مع المرابطين ، ولم يتبين حال غرناطة أتكون للثوار أم للمرابطين ؟

سيف الدولة بجرح خطير أودى بحياته ، مما فت فى عضد سيف الدولة وزهده فى قيادة الثورة ، ثم حمله على الفرار[١] . . وقد اضطر الثوار — إزاء هذا — أن يقدموا طاعتهم للقائد المرابطى « ميمون بن بدر بن ورقاء » ، الذى خلف « على بن فنو »[٢] .

وهكذا فشلت ثورة غرناطة كما فشلت زميلتها بقرطبة ، واستمر المرابطون قابضين على زمام الأمور فى هاتين المدينتين اللتين تعتبران أعظم مدن وسط الأندلس .

وفى مدينة «جيان»[٣] ثار القاضى « عبد الرحمن بن جزى » ونجح فى ثورته[٤] إذ استطاع أن يهزم الحامية المرابطية ، وأن ينشئ حكومة مستقلة ، غير أن حكمه لم يدم طويلا ، إذ غلبه على أمره « سيف الدولة ابن هود » فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ كما أسلفنا .

وفى وادى آش ثار « أحمد بن محمد بن ملحان الطائى » ودعا لنفسه ، وقهر قوة المرابطين ، واستولى على قصبة المدينة وتلقب « بالمتأيد بالله » ، وأغرم بجمع المال والذخائر ، واقتناء الضياع حتى صار من كبار أغنياء الأندلس ، وقد جذب إلى مملكته الصغيرة طائفة من مشاهير العلماء والأدباء ، منهم ابن طفيل الأديب الطبيب الفيلسوف . وظلت مملكته « وادى آش » مستقلة وعلى رأسها « ابن ملحان » حتى هاجمها ابن مردنيش (زعيم ثورة شرقى الأندلس وحليف النصارى) وضمها إلى مملكته سنة

---

(١) قيل فر إلى جيوان ، وقيل فر إلى مرسية . والرأى الأول أرجح ، لأنه استولى على حيان سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٠٩ .

(٣) تقع جيان فى الجنوب الشرقى لمدينة « قرطبة » وهى على نهر الوادى الكبير . فى المنحدر الشرقى لجبل كوز (Gabal Cuz) فموقعها حصين وهى الآن مديرية واسعة من مديريات الأندلس بإسبانيا .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الإعلام : ص ٢٥٩ .

٥٤٦ هـ ، فعبر ابن ملحان البحر إلى المغرب والتحق بخدمة عبد المؤمن ابن على، ثم نقمه الموحدون لأسباب مجهولة ، فتوفى غريباً ذليلا سنة٥٤٨ [١].

٢

كما قامت الثورة بجنوبى الأندلس ، فشملت « رنده » و « شريش » و «قادس» و«مالقة» (بالجنوب الشرقى) ؛ فأما ثورة « رنده » فقد تزعمها أديب معروف هو « أخيل بن إدريس » الرندى [٢] ، الذى استطاع أن يطرد المرابطين وأن ينشئ حكومة مستقلة ، ولكن حساده سعوا إلى إسقاطه ، إذ اتصلوا سراً « بابن عزون » [٣] (صاحب شريش) وأوحوا إليه بالاستيلاء على « رنده » فاستطاع بخداع « أخيل » أن يستولى على ملكه دون قتال كما استولى على أمواله ، ثم تركه حراً ففر إلى مالقة ومنها أبحر إلى المغرب حيث نزل فى كنف عبد المؤمن ، ولما استولى الموحدون على الأندلس قلدوه قضاء قرطبة ثم نقلوه إلى قضاء أشبيلية حيث توفى بها سنة٥٦١ هـ .

وأما شريش : فقد ثار بها « أبو الغمر السائب بن عزون » الذى خلع طاعة المرابطين وأنشأ حكومة مستقلة ، وبسط سلطانه على رنده كما ذكرنا آنفاً ثم على أركش .

وحين علم « ابن عزون » باستيلاء عبد المؤمن بن على على مراكش وأن مملكة المرابطين بالمغرب آلت إليه رأى بثاقب نظره أن يتصل بالخليفة

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ٢٥٩ .

(٢) كان أخيل كاتباً وشاعراً : فقد كتب — فى بداية حياته الأدبية — للمرابطين ولما تولى ابن حمدين إمارة قرطبة استخدمه فى بطانته فاما سقط ابن حمدين ولاذ بالفرار سار أخيل إلى بلدة « رنده » فوجدها تعيش فى فوضى ، فقام بقيادة ثورتها . ولما انتزع ابن عزون شئون الإمارة منه فر إلى المغرب . . إلخ .

(٣) هو أبو الغمر السائب بن عزون ينتمى إلى بنى غانية المرابطين .

عبد المؤمن ليؤمن على نفسه وملكه ، ويجنب بلاده شر ويلات الحرب ، وفى سنة ٥٤١ هـ عبر البحر إلى المغرب وقدم طاعته للخليفة عبد المؤمن، ولما عبر الموحدون إلى المغرب كان « ابن عزون » وجند شريش أول من قابلهم ، ورحب بمقدمهم وانضوى تحت لوائهم دون قتال ، فكانت « شريش » بهذا أول قاعدة أندلسية دخلت فى طاعة الموحدين صلحاً ، لهذا سمى الموحدون أهل شريش بالسابقين الأولين . كما حررت أملاكهم من المغارم فى عهد الموحدين ، وجعلوا لهم السبق فى الدخول على الملوك فى الأعياد الرسمية[١] .

وهناك ثائر آخر يماثل « ابن عزون » فى قبول دعوة الموحدين والدخول فى طاعتهم صلحاً ، وهو القائد البحرى العظيم « على بن عيسى بن ميمون » قائد عام الأسطول المرابطى ، ووالى ثغر قادس[١] فقد خلع طاعة المرابطين سنة ٥٤٠ هـ وعبر البحر إلى المغرب ، وطلب مقابلة « عبد المؤمن »

---

(١) يذكر ابن أبى ذرع عن البرنسى أن عبد المؤمن حين انتهى من فتح تلمسان سنة ٥٣٩ هـ بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف مقاتل موحدى ، فنزل بساحل الجزيرة الخضراء ، فكان أول مدينة فتحها الموحدون بالأندلس مدينة شريش التى فتحت صلحاً ، وكان واليها القائد المرابطى أبو الغمر بن عزون قد استقبل الموحدين . يقود ثلاثة آلاف جندى من المرابطين حيث رحب بمقدمهم ، وبايعهم « لعبد المؤمن» ... ويتفق ابن فرحون مع البرنسى فى أن الموحدين فتحوا « شريش » صلحاً فى سنة ٥٣٩ هـ ولكن رواية ابن خلدون والمقرى التى تقرر أن الموحدين لم يرسلوا إلى الأندلس جيوشاً إلا بعد أن انتهوا من إزالة ملك المرابطين بالمغرب سنة ٥٤١ : هى الأرجح ، لأنها تتمشى مع منطق الأحداث .

(انظر القرطاس ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦)

والعبر ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ثغر قادس (Cadix) يقع جنوبى الأندلس على شاطئ المحيط الأطلسى وقادس الآن إحدى مديريات منطقة الأندلس بإسبانيا .

(وكان حينئذ يحاصر مدينة فاس) واتبع دعوة الموحدين ثم عاد إلى « قادس » ؟

وفى مدينة مالقة[١] (Malaga) قامت الثورة ضد الحكم المرابطى بزعامة القاضى « أبى الحكم بن حسون »[٢] فى الوقت نفسه الذى اشتعلت فيه ثورة « قرطبة » و « غرناطة » ولم يكن ابن حسون فى ثورته تابعاً ولا داعية لغيره إذ دعا فيها لنفسه ، واستطاع أن يقهر المرابطين بعد أن حاربهم ستة أشهر ، وأن يؤسس إمارة مستقلة ، غير أن المرابطين ظلوا يناوئونه ويهاجمون إمارته من المراكز العسكرية القوية من مالقة ، مما جعله يلقى بنفسه فى أحضان النصارى ، فكان بفعلته كالمستجير من الرمضاء بالنار . . ثم إنه بتحالفه مع النصارى أفقد نفسه كثيراً من ثقة الشعب به ، ووضع نفسه — أمام التاريخ — فى مصاف أمراء المسلمين الخائنين ، الذين آثروا الدنيا على الدين ، وزاد الطين بلة أن ابن حسون بتحالفه الجديد ، اضطر إلى إثقال كاهل الشعب بالضرائب ليفى بالمطالب العسكرية المفروضة عليه ، فكرهه الشعب وائتمر به ، وقام بتنفيذ المؤامرة قائد حرسه الخاص ويدعى « الاوشى » فاستطاع المتآمرون دون كبير مشقة ، أن يملكوا قصبة مدينة « مالقة » وأن يحاصروا قصر « ابن حسون » ولما أيقن بالهلاك ، هم بقتل نسائه وبناته صوناً لشرفهن ولكنهن اعتصمن منه ، فعمد إلى إتلاف كتبه وخزائنه وذخائره ، ثم طعن نفسه طعنة قاتلة لم تمهله أكثر من يومين .

---

(١) مالقة : ثغر هام يقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس على مقربة من الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ومالقة فى التقسيم الأسبانى الجديد مديرية من مديريات منطقة الأندلس .

(٢) هوالحسين بن الحسين عبد الله بن الحسين بن حسون ويكنى « أبا الحكم » وينحدر من أسرة لها عراقة فى العلم والجاه والثراء ، وقبيل زعامته لثورة مالقة سنة٥٣٩ هـ كان يلى منصب قضاء هذه المدينة .

وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ ، فاجتز أعداؤه رأسه ، وبعثوا به إلى عبد المؤمن بمراكش وبيعت نساؤه وبناته ، فكانت نهايته من أشد النهايات إيلاماً ونكالا على الرغم من أنه نجح فى ثورته واستطاع أن يحافظ على استقلال « مالقة » نحو ثمانى سنوات[١] .

(ج) الثورة فى شرقى الأندلس

قامت الثورة فى شرقى الأندلس متأثرة بالثورات التى اشتعلت بالغرب والجنوب والوسط — ولكنها كانت أشد عنفاً ، وأصعب مراساً ، وأطول زمناً من تلك الثورات ، فلم يستسلم ثوار الشرق للخليفة « عبد المؤمن » على نحو استسلام الجهات الأخرى ، بل ثاروا للتخلص من الحكم المغربى عامة ، إذ قاوموا المرابطين حتى أجلوهم عن بلادهم ، ثم حاربوا الموحدين بصلابة وعناد أمداً طويلا .

وكانت مدينة « بلنسية » (Valencia) عاصمة الحكم المرابطى بالشرق ومقراً لإدارته على نحو قرطبة بالوسط وأشبيلية بالمغرب . فلما تسربت أخبار الثورة إلى « بلنسية » قابلها الوالى المرابطى « عبد الله بن غانية » بالسخرية والاستخفاف لا غفلة منه ، ولكن ليقلل من شأنها وشأن دعاتها ، ثم اتفق مع قاضى القضاة « ابن عبد العزيز » على العمل الحاسم فى مقاومة هذه الأفكار الخبيثة التى يروجها النصارى فى شخص الثوار لتحطيم الحكم الإسلامى بالأندلس :

وطفق القاضى بن عبد العزيز يذكر الناس بمآثر المرابطين الذين أنقذوا الأندلس من السقوط فى يد الصليبيين وانتصروا على ألفونسو السادس ملك قشتالة زعيم ملوك أسبانيا النصرانية ، وقائدهم فى معركة « الزلاقة »

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً بقيادة البطل « يوسف بن تاشفين » (كما أسلفنا) كما ذكَّر الأندلسيين بفضل المرابطين فى إعادة قيم الدين الحنيف[١] ، ومحاربة رذائل الخلاعة والفجور والترف التى شاعت فى عهد ملوك الطوائف ، وانتهت بهم إلى الضعف ، مما أطمع فيهم النصارى ، وجعلهم يجاهرون بنيتهم فى طرد الإسلام والمسلمين من الأندلس ، ولولا المرابطون لسقط الحكم الإسلامى فى عهد ملوك الطوائف .

وهذه المعانى التى ذكر بها القاضى ابن عبد العزيز أهل « بلنسية » الطامحين إلى الثورة على الحكم المرابطى ليس فيها شىء من المبالغة ؛ ولكن لماذا ثار الغرب والجنوب والوسط على المرابطين ؟ وكيف يستسيغ شرقى الأندلس أن يشذ عن باقى جهاتها ؟ وقد كان فضل المرابطين على الأندلس جميعها متساوياً : . . إن الثورة ديدنها الجموح لا العقل ، وركوب الرأس ، والتلهف إلى حياة جديدة يرجى أن تكون أكثر خيراً ، ومن عادة الثورات أن تتناسى الحسنات ، وتذكر السيئات ، وقد عرف المرابطون بالخشونة والصلافة والتزمت ، والأندلسيون قوم يميلون إلى المرح والحياة اللاهية البهيجة ، التى ألفوها فى مجتمعاتهم ، ومن هنا كان الحكم المرابطى ثقيل الظل على الأندلسيين ، فإذا أضفنا إلى هذا دسائس النصارى ، وتشجيعهم للثوار فى شرقى الأندلس بصفة خاصة لمتاخمة هذا الجزء لإماراتهم أدركنا أن الثورة كان وقوعها أمراً مقضياً فى هذه

---

(١) كان المرابطون حقاً متمسكين بالدين الحنيف ، وفى هذا يقول صاحب الحلل الموشية عن يوسف بن تاشفين مؤسس دولتهم . . . « كان يصل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ويقضى على نفسه وغيره بفتواهم ، ويحض على العدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع (الحلل ص ٥٩) وقد سار ابنه على ابن يوسف على نمط أبيه فى التقوى والعمل بالشرع الشريف فى المغرب والأندلس على السواء . ويبدو أن هذا الطابع الدينى المتزمت لم يتلاءم مع نفوس الأندلسيين المطبوعة على اللهو واللعب فلا غرو أن نراهم مرحبين بالثورة على المرابطين .

الجهة ، وليس يجدى فى وقف تيارها الجارف ، وعظ الواعظين ، ولا شفاعة الشافعين .

وحين شعر الوالى المرابطى « عبد الله بن غانية » بنار الثورة تقترب منه ، هرب إلى مدينة « شاطبة » فأجمع الثوار على اختيار « ابن عبد العزيز » (الذى كان بالأمس يدعو إلى التمسك بالحكم المرابطى) رئيساً لثورتهم!! ولكنه عف عن الرياسة ، فألح عليه « عبد الله بن مردينش »[١] ، و« عبد الله بن عياض » (قائد الثغر) فى قبول زعامة الثورة ، فقبلها مكرهاً وكان ذلك فى شوال سنة ٥٣٩ هـ .

ولكن المرابطين تجمعوا فى « شاطبة » لمنازلة ابن عبد العزيز ، فسير إليهم جند الثغر بقيادة ابن عياض ، ثم آزرته مدينة « مرسية » بجيوشها فأدرك ابن غانية أنه لا طاقة له بتلك الجيوش الثائرة التى اتحدت لكى تتخلص من الحكم المرابطى ، ففر من « شاطبة »[٢] دون أن يتعرض للثوار فاستولى « ابن عبد العزيز » على مدينة « شاطبة » صلحاً ، وجدد له الثوار البيعة فى صفر سنة ٥٤٠ هـ ولكنه ناء بحمل أعباء الحكم وكثرت أخطاؤه ، مما حمل رؤساء الجيش على استقدام « ابن عياض » قائد الثغر ، للاضطلاع بشئون الرياسة ، ثم أحاطت عدة فصائل من الجيش بقصر ابن عبد العزيز فلما شعر بالخطر فر من القصر واختفى[٣] .

---

(١) عبد الله بن مردنيش هو صهر القاضى ابن عياض : وعم محمد بن سعد بن مردنيش بطل ثورة شرقى الأندلس — فيما بعد — ذلك الذى دوخ جيوش عبد المؤمن ابن على ولم يهزم إلا فى عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن .

(٢) استطاع عبد الله بن غانية أن يصل إلى مدينة « المرية » وفى هذا الثغر أمده ابن ميمون (قائد الأسطول المرابطى حينئذ) بالعون فحمل على إحدى سفن الأسطول إلى أبيه محمد بن غانية حاكم جزيرة ميورقة (الحلة السيراء ص ٢٦٢) .

(٣) من غريب الصدف أن ابن عبد العزيز فر أيضاً إلى مدينة المرية وهو لا يدرى أن عدوه عبد الله بن غانية قد فر إليها ، فسلمه ابن ميمون إلى ابن غانية الذى حمله معه إلى جنوب ميورقة .

وفى سنة ٥٣٩ ه أيضاً اجتاحت الثورة مدينة « مرسية »[١] منادية بإسقاط المرابطين ، وكانت بزعامة « أبي محمد بن الحاج اللورقى »[٢] الذى دعا فى ثورته « لابن حمدين » (صاحب ثورة قرطبة) فأعلن بهذا عن ضعف شخصيته مما أطمع « ابن هود » فى « مرسية » إذ أرسل إليها قائده « عبد الله بن فتوح الثغرى » الذى استطاع أن يطرد ابن الحاج ، وأن يحل محله داعياً « لابن هود » ولكن الثوار أجبروه على الفرار من مرسية وقدموا لزعامتهم القاضى الفقيه « محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشنى » الذى قبل الزعامة مكرهاً ، وكان ابن أبي جعفر هذا ، شهماً شجاعاً ، فأسرع فى بدء حكمه إلى تقديم العون لثوار بلنسية فى حصار مدينة « شاطبة » مما حمل عبد الله بن غانية إلى تركها واللجوء إلى المرية كما قدمنا ، ثم قدم العون لثوار غرناطة ضد المرابطين أيضاً ، ولكنه قتل فى إحدى المعارك التى دارت بين ثوار غرناطة وبين المرابطين[٣] . . فقدم الشعب المرسى . . أبا عبد الرحمن بن طاهر[٤] ، ولكن أمواج الدسائس اجتاحته ، فخاطب ثوار مرسية القاضى ابن عياض (صاحب بلنسية) فى أن يقدم عليهم ليتولى أمر « مرسية » فاستجاب لهم ،واستطاع أن ينتزع إمارة مرسية من « ابن طاهر » (دون أن يريق قطرة دم) فيما يشبه بعض حركات الانقلاب البارعة فى عصرنا الحاضر !! وذلك فى

---

(١) تقع مدينة « مرسية » فى الجنوب الشرقى وتحتل مكانة مدينة « بلنسية» فى الشمال الشرقى .

(٢) نسبة إلى مدينة لورقة التى تقع جنوب مرسية ويبدو (من هذه النسبة) أن ابن الحاج ليس مرسى الأصل .

(٣) الحلة السيراء — ص ٢١٨ .

(٤) كان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية فى عهد ملوك الطوائف كما كان عالماً أديباً . وكان أبو عبد الرحمن طاهر (الحفيد) الذى نتكلم عنه الآن عالماً فاضلا أيضاً ، ولما ولاه الثوار حقد عليه ابن حمدين (صاحب ثورة قرطبة) وأحاطه بسياج من الدسائس .

جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ[١] .

وبهذا أصبح « ابن عياض »[٢] والياً على مرسية وبلنسية ، واتخذ « مرسية » دار إقامة له ، وجعل صهره « عبد الله بن مردنيش » والياً على « بلنسية » وجعل الدعوة للأمير « سيف الدولة بن هود » فى كلتا المدينتين ولم يدع ابن عياض لابن هود عن ضعف ، ولكنها سياسة بارعة ، إذ اتقى بالدعوة لابن هود دسائسه التى أطاحت « بابن طاهر » أمير مرسية السابق ، كما اتقى شر النصارى (حلفاء ابن هود) غير أن النصارى ، قد رأوا أن الوقت قد حان لجنى ثمار دسائسهم فى إشعال الثورة ضد الحكم المرابطى فأخذوا يعتدون على أحواز مدينة « شاطبة »[٣] فأثار هذا الاعتداء الشعور الدينى فى عبد الله بن مردنيش والى بلنسية

---

(١) دخل ابن عياض مرسية فقابله كبار جيش الثوار . واصطحبوه إلى قصر ابن طاهر فقابله مقابلة كريمة دون أن يشك فى أمره ، وفى الحال طلب الثوار من أبى طاهر أن يتنازل عن الإمارة لابن عياض فأجابهم إلى ما طلبوا دون أسف . ثم لزم داره وتزهد . ولما مات محمد بن سعد بن مردنيش (حاكم الشرق) سنة ٥٦٨ هـ اعتنق دعوة الموحدين ، وارتحل إلى المغرب وتوفى بمراكش سنة ٥٧٤ هـ .
(الحلة السيراء — ص ١٢٠) .

(٢) يقول المراكشى . . . . اتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرقى الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه « عبد الرحمن بن عياض » وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ، بلغنى عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ، ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب ، وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ، ولا يستطيع لقاءه بطل . كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس ، وإذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض . هذا مائة فارس (المعجب ص ١٣٤) .

(٣) تقع مدينة شاطبة فى منتصف المسافة التى بين مرسية وبلنسية فى شرقى الأندلس ، ويذكر المراكشى أن « شاطبة » بينها وبين البحر الرومى (الأبيض المتوسط) مسيرة يوم .
(المعجب ص ٢٤٧) .

الذى بادر إلى نجدة أهل شاطبة ، ثم أدركه ابن عياض والى مرسية ، ورأى سيف الدولة بن هود أنه من العار أن يتخلف عن المعركة ، فى الوقت الذى تدعو فيه مرسية وبلنسية له ، ولا سيما أن النصارى هم البادئون بالعدوان ، وأنهم لم يرعوا حرمة صداقتهم إياه ! !

ونشبت المعركة بين جيش المسلمين وجيش النصارى فى موضع يعرف « باللج » فى ظاهر بلدة « البسيط »[1] ، فى العشرين من شعبان سنة ٥٤٠ هـ وكانت جيوش النصارى أعظم عدداً وعدة ، وأعظم نظاماً ودربة ؛ فدارت الدائرة على المسلمين ، وقتل فى المعركة سيف الدولة بن هود ، كما قتل عبد الله بن مردنيش ، وكانت ضربة شديدة أصابت المسلمين بشرقى الأندلس[2] ، وحينئذ دعا عبد الرحمن بن عياض لنفسه وغدا الحاكم المسلم المهيب فى شرقى الأندلس بأجمعه حتى لقى مصرعه فى بعض معاركه مع النصارى ، ويحدد « ابن الأبار » تاريخ مصرعه ، بأنه كان فى اليوم الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ[3] ، أما المراكشى فقد

---

(١) تسمى بالأسبانية (Albait)

(٢) والرواية النصرانية تصور « معركة البسيط » (التى قتل فيها سيف الدولة) تصويراً آخر . فتذكر أن سيف الدولة قد شكا إلى حليفه « ألفونسو ريمونديس » أمر تمرد بعض البلاد التى كانت تعترف بسيادته عليها مثل ، إبدة و « بياسة » وامتناعها عن دفع الإتاوة المفروضة له ، فأرسل ألفونسو جيشاً فتح جيان ، وأبدة ، وبياسة ثم طفق ينكل بالسكان المسلمين الآمنين الذين استغاثوا بسيف الدولة بن هود فأثاروا غيرته فطلب سيف الدولة من قواد النصارى أن يكفوا عن إيذاء المسلمين ، ولكنهم لم يأبهوا له ، فقاد بنفسه جيوش مرسية وبلنسية ، وحارب النصارى فى معركة « البسيط » التى انتهت بمقتل سيف الدولة (الذى أخذ أسيراً ثم قتله أحد جنود النصارى وهو يجهل شخصيته) والرواية العربية أصدق قيلا ، إذ كيف يستغيث بالنصارى ويحاربهم ثم يقتلونه (انظر الحلة السيراء ص ٢٢٦ ، تاريخ الأندلس لاشباخ ص ٢١٦ ٢١٧)

(٣) الحلة السيراء ص ٢٢٠ .

ذكر ما يفهم أن ابن عياض مات حتف أنفه ، ولم يحدد تاريخ وفاته قائلا : « أقام ابن عياض هذا بشرقى الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفى رحمه الله ونضر وجهه ، وشكر له سعيه لا أتحقق تاريخ وفاته »[١] . وقد قام بالأمر بعده « محمد بن سعد بن مردنيش » تحقيقاً لرغبة ابن عياض الذى أشار بتولية ابن « مردنيش » ورفض أن ابنه يلى الحكم إيثاراً لخير الوطن والدين[٢] ، ولكنه يبدو أن ابن عياض الذى كان يتصف بالتقوى والورع والفروسية والغيرة على الإسلام ، لم يوفق فى اختيار « ابن مردنيش » الذى كان بعيداً البعد كله عن السير على سنن الدين الحنيف ، إذ كان مسلماً بالاسم فقط نصرانياً فى عاداته وسلوكه ، يقيم حفلات اللهو ، ويشرب الخمر جهاراً[٣] ، فضلا عن أنه كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى فى الزى ، والملابس ، والسلاح . واللجم ، والسروج : كما كان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة . . ويبتنى لهم الأحياء والمعسكرات ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، ويغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب فى ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس

---

(١) المعجب ص ١٣٣ .

(٢) يذكر المراكشى أن ابن مردنيش هذا كان خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ، ويتصرف بين يديه فى حوائجه فلما حضرته الوفاة ، اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد ، فقالوا له : « إلى من نسند أمرنا ؟ » وبمن تشير علينا وكان له ولد فأشاروا به عليه ، فقال : إنه لايصلح ، لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بد ، فقدموا عليكم هذا (وأشار إلى محمد بن سعد بن مردنيش) فإنه كثير الغناء ، ظاهر النجدة (المعجب ص ١٣٥) .

(٣) وفى هذا يقول لسان الدين بن الخطيب : . . كان (ابن مردنيش) له يومان فى الأسبوع : يوم الاثنين (ويوم) الخميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، ويذبح الأبقار فى المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك لهو كثير ، (الإحاطة ج ١ ص ٣٠٦ – ٣٠٧) .

ويدعى « بيدرودى أثاجرا » مدينة شنتمرية بن رزين[١] ، مع سائر مرافقها وأراضيها وقد أنشأ بها الفارس المذكور « أسقفية » وكان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط « ابن سعد » فى فرض المغارم والضرائب المختلفة على رعاياه المسلمين[٢] ، وكانت هذه الأفعال الشاذة سبباً فى حمل بعض الباحثين على الظن أنه نصرانى الأصل من أولئك المسلمين المولدين الذين يؤلفون جانباً كبيراً من سكان الأندلس[٣] وأن أفعال محمد بن سعد بن مردنيش توحى بهذا الظن حقاً ، بل ترجحه ، إذ أنه ارتمى فى أحضان النصارى ، وعاهد الأسبان منهم وغير الأسبان[٤]

---

(١) شنتمريه أو شنتبرية (Santaver) تقع بجوار حدود سرقسطة الجنوبية ، وكانت حاضرة مملكة بنى رزين فى عهد ملوك الطوائف ولذا يطلق عليها الأسبان كلمة (Albarracin) انظر تعليقات الدكتور حسين مؤنس على كتاب الحلة السيراء (ص١١٩–١٢١).

(٢) انظر الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ، وأعمال الإعلام ص ٢٦١ .

وعصر المرابطين والموحدين ، للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٦٦ .

(٣) ولد ابن مردنيش فى أحواز « طرطوشة » سنة ٥١٨ هـ فى أسرة ذات حسب ، إذ كان والده سعد بن محمد « حاكماً لإفراغة » من قبل المرابطين كما كان عمه « عبد الله بن مردنيش والياً على بلنسية من قبل عبد الرحمن بن عياض» – كما أشرنا سابقا –

ويختلف المؤرخون فى نسبه : فالرواية العربية تؤيد أصله العربى ، فهو محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى التجيبى ولسبب ما : كنى بابن مردنيش ، أما الرواية الفرنجية ، فترده إلى أصل نصرانى ، فكلمة مردنيش ليست كنية منفصلة وإنما هى اسم لأحد أجداده النصارى ، وقد حرفه العرب من الاسم الأسبانى « مارتنيث » (martuez) أومارتنيثى (martinizi) أى ابن مرتنيث أو للاسم البيزنطى ماردنيوس (mardinius) (الإحاطة ج ٢ ص ٨٥) (Dozy recherches. q 365 1887)

(٤) عقد ابن مردنيش فى بدء حكمه (سنة ٥٤٢ هـ) معاهدات مع بعض الإمارات النصرانية المتاخمة لمملكته بأسبانيا ، وعقد فى السنة الثانية من حكمه معاهدات مع أمراء النصارى بأوربا مثل جنوة ، وبيزة ، كما كان على صلة مودة مع ملك إنجلترا « هنرى الثانى » إذ أهداه هدية معينة من الذهب والحرير والخيل والجمال ، فأهداه ملك إنجلترا مقابل هديته ، هدية قيمة ، انظر تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٦٧ .

ومن عجيب الأقدار أن القائد المسلم الوحيد الذى اصطفاه ابن مردنيش وصاهره ، وتعاون معه وهو إبراهيم همشك[١] ، كان يشبهـــه تماماً فى الأخلاق والعادات وكراهية الموحدين بخاصة والمسلمين بعامة[٢] ، وقد ملك ابن همشك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة ، وربما ملك قرطبة أياماً يسيرة[٣] ، وتعاون ابن همشك مع ابن « مردنيش » على محاربة الموحدين زمناً طويلا .

---

(١) يسميه ابن أبى زرع « إبراهيم » ويسميه عبد الواحد المراكشى « عبد الله » وعلى رأى ابن أبى زرع سار المحدثون ، وأبوه هو محمد بن على بن همشك (بفتح الهاء وضم الميم وسكون الشين) وابن همشك ينتمى إلى أصل نصرانى لم يختلف فيه المؤرخون وكلمة همشك أسبانية حرفها العرب من كلمة هيموشيكو (Hemochico) ومعناها —على حد ترجمة ابن الخطيب— مقطوع الأذن ، إذ كان جده مقطوع الأذن ، فعرف بهذا اللقب عند المناداة عليه فى الحروب .

وقد نشأ ابن همشك فى « سرقسطة » ولما شب اتصل بخدمة ابن هود ، فلماسقطت سرقسطة فى يد النصارى التحق بخدمة النصارى فترة قصيرة ، ثم طلب خدمة المرابطين بالأندلس بعد أن تاب واعتذر فألحقه يحيى بن غانية بخدمته بمدينة « قرطبة » فلما قامت الثورة ضد المرابطين بقرطبة ، كان ابن مردنيش حينئذ فى حاشية ابن غانية بمدينة « أشبيلية » التى ذهب إليها ابن غانية لإطفاء ثورة الغرب كما بينا فيما سبق ، فأرساه ابن غانية لمفاوضة ابن حمدين فى الصلح ولكنه لم يفلح ، ففر نحو الشرق واتصل بابن عياض وشق طريقه فى ثورة الشرق ، وتولى أمر ولاية شقورة ، ثم اقترن ابن مردنيش بابنته وتعاونا (روض القرطاس ج ٢ ص ١٥٥ ، المعجب ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ج ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧) .

(٢) كان ابن همشك قاسياً متطرفاً جباراً ، وظهرت قسوته على المسلمين فى موقعة تل السبيكة بغرناطة ، إذ عذب من وقع تحت يده من الموحدين أشنع تعذيب ، فكان يقذف بهم من الشواهق ويحرقهم بالنار ، ويسمل أعينهم . . إلخ (الإحاطة ص ٨٩) .

(٣) المراكشى : المعجب : ص ١٣٥ .

وكذلك قامت الثورة فى « ثغر المرية »[١] واستطاع الثوار أن يطردوا الجيش المرابطى ، وأن يلغوا بالتالى الإدارة المرابطية ، ثم اختلفوا فى تعيين الوالى الذى يستطيع أن ينهض ببلدتهم ، وأخيراً وقع اختيارهم على القائد البحرى « أبى عبد الله بن ميمون » على الرغم من أنه ليس من « المرية » وإنما هو من « دانية » فشكر لهم وامتنع عن الولاية قائلا : « إنما أنا رجل منكم ووظيفتى البحر ، وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر ، فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى »[٢] . . . فقدموا « عبد الله بن محمد الرميمى » ، فلم يزل أميراً عليهم إلى أن هاجم النصارى المرية من البحر والبر ، وانتزعوها من الرميمى سنة ٥٤٢ هـ .

---

(١) المرية ثغر هام يقع فى الجنوب الشرقى بالأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط وتسمى المرية بالأسبانية (Almerfa) وهى الآن إحدى المديريات الثمان لجهة الأندلس فى النظام الأسبانى الحديث .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٣٥ .

مكاسب النصارى من ثورة الأندلس

قررنا فيما سبق — أن الثورة شملت جميع نواحى الأندلس ، هادفة إلى إزالة الدولة المرابطية من الأندلس على نحو ماصنع « عبد المؤمن بن على » بهذه الدولة بالمغرب . كما أشرنا إلى أن النصارى كانوا وراء هذه الثورة يشعلون نارها ، ويشدون أزر زعمائها فى كل جهة ، ثم اصطفوا من قادتها طائفة بعينها . مثل سيف الدولة ابن هود . وابن حمدين ، وابن مردنيش ، وابن همشك ، فما كسب النصارى من هذه الثورة ؟؟

إننا لا نغالى إذا قلنا : إن النصارى قد نالوا الجزء الأكبر من الغنم فى هذه الثورة ، ولم نقل الغنم كله لأن الموحدين كان عليهم أن ينازلوا المرابطين بالأندلس أمداً طويلا . بعد الانتهاء من أمرهم بالمغرب فوفر الثوار عليهم كثيراً من الجهد والمال والزمن على غير قصد . إذ كان الثوار يرمون إلى إزالة الحكم المغربى فى جميع صوره ، ولقد كسب النصارى تحقيق أمرين على درجة كبيرة من الأهمية :

الأول : إزالة الدولة المرابطية العتيدة ، التى كان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب فى قلوب النصارى ويزلزل كيانهم . فالمرابطون هم الذين أذلوا نصارى الأندلس ، ووضعوا أنوفهم فى الرغام وكسبوا للإسلام عدة معارك تاريخية حاسمة مثل موقعة الزلاقة . وموقعة أقليش . وموقعة إفراغة وأخروا نهاية الحكم الإسلامى بأسبانيا نحو أربعمائة سنة أخرى .

الثانى : أنهم انتهزوا فرصة اشتغال المرابطين بالذود عن حكمهم بالمغرب واشتغال الثوار بدعم إمارتهم الحديثة بالأندلس وعدم تمكن الموحدين من الأمر بعد . وانقضوا على كثير من أجزاء الأندلس الهامة ، والتهموها ، وابتدءوا بانتزاع الثغور والمدن الشرقية التى تتاخم ممالكهم ، والتى سهل عليهم أمر اغتصابها تغافل حليفهم « محمد بن سعد بن مردنيش » عنها فابتدءوا

بالاستيلاء على ثغر « ألمرية » الهام ، وكان لمدينة « ألمرية » منزلة خاصة عند المسلمين ، إذ كانت مركزاً للتصوف الإسلامى فى القرن السادس الهجرى ، بالإضافة إلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية — وكان للجانب الروحى الصدارة فى حياة الأمم فى العصور الوسطى . ويبدو أن شهرة « ألمرية » الدينية جعلت النصارى يصفونها بالتعصب ، ويصفون أهلها أحياناً بالقراصنة ومن هنا رجح « أشباخ » الرأى القائل ، بأن « ألمرية » كانت إمارة مستقلة يحكمها القراصنة وأن النصارى اتجهوا إلى غزوها لأن أهلها كانوا يغيرون بسفنهم على شواطئ أسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا الجنوبية[١] . ولم نجد فى المصادر العربية مايؤيد هذا الترجيح أو يشير إليه من قريب أو بعيد وربما دفع « أشباخ » إلى ما قال : إن النصارى حاصروا ألمرية من البر والبحر[٢] بحملة صليبية على نحو تلك الحملات الصليبية التى غزت القواعد الإسلامية بالمشرق . فقد هاجمها جيش كبير مؤلف من جيوش إمارات : قشتالة ، وقطلونية ، وجنوة ، وبيزة ، بدعوة من البابا . ثم جعل على قيادتها « الفونسو السابع » ملك قشتالة[٣] (كبرى الإمارات النصرانية

---

(١) اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ص٢٢٤ وترجمة الأستاذ عبد الله عنان .

(٢) المراكشى : المعجب : ص ١٣٥ .

(٣) استدعى ابن حمدين « الفونسو السابع » ليعينه على « يحيى بن غانية » حتى يستطيع طرد « يحيى » من قرطبة وقد أخفق الفونسو وابن حمدين فى تحقيق غايتهما —كما أسلفنا — فاضطر الفونسو إلى مساومة « يحيى بن غانية » ثم عاد إلى بلاده مغيظاً محنقاً . فاستطاع الاستيلاء على « قلعة رباح » فى عودته سنة ٥٤١ هـ. وكان لقلعة «رباح» هذه أهمية عظيمة فى الصراع الذى كان بين الموحدين وبين النصارى. إذ جعلت هذه القلعة مثوى لجماعة الفرسان الذين كانوا عماد الفونسو — بصفة خاصة والنصارى بصفة عامة مقاومة الإسلام بأسبانيا وقد استطاع الراهب « ريموندو » أو « ريمون » رئيس دير « فتيرو » « بطليطلة » أن يجمع فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل من الذين وهبوا حياتهم فى سبيل الدفاع عن النصرانية (انظر أشباخ ص ٢٦٨) .

بأسبانيا) وعلى الرغم من ضخامة هذه الحملة « الصليبية » ووفرتها فى العدد والعدة . فإن « ألمرية » المسلمة صمدت فى وجهها ثلاثة أشهر ، وهى محاصرة براً وبحراً . ولما يئست من إدراك المسلمين إياها ، وقد نفدت أقواتها ، سلمت قيادها للغزاة فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٧ م)

ويبدو أن نجاح النصارى فى الاستيلاء على ثغر « ألمرية » وعظم ثغور الأندلس فى الجنوب الشرقى ، قد أغراهم بثغر « طرطوشة » الذى كان لايزال بأيدى المسلمين ، بعد سقوط مدينة « سرقسطة »[١] فى أيدى النصارى سنة ٥١٢ هـ . وكان لثغر « طرطوشة » أهمية قصوى عند النصارى . باعتباره أعظم ثغور الشمال الشرقى ، وباعتباره واقعاً على حدود إمارة برشلونة النصرانية ثم إنه كان مأوى المسلمين المجاهدين الذين كثيراً ما كانوا يغيرون على الإمارة النصرانية ، ولا سيما إمارة « برشلونة » وإمارة « أراجون » وشواطىء فرنسا ، حتى اعتقدت النصارى أن المسلمين « بطرطوشة » ربمـــا استطاعوا أن يسقطوا إمارة « برشلونة » و « مملكة أراجون » اللتين قامتا على أنقاض مملكة « سرقسطة المسلمة » بل ربما استطاعوا أن يرجعوا « سرقسطة » إلى عهدها الإسلامى[٢] . لهذا انتهز النصارى فرصة صداقتهم للأمير محمد بن

---

(١) أخذ اسم« سرقسطة » من التسمية الرومانية Caesta augusta . مما يرجح أن تكون هذه المدينة من مؤسسات العهد الرومانى الذى قام بالمغرب وأسبانيا خلال القرن السادس الميلادى (انظر : مدخل إلى تاريخ المغرب . للأستاذ عبد الله جنون ص ٥) .

(٢) انتهزت النصارى فرصة ضعف المسلمين . وتفرق كلمتهم فى عهد ملوك الطوائف فاستولى الفونسو السادس على مدينة « طليطلة » أمنع مدن الأندلس ، وعاصمة القوط قديماً سنة ٤٦٨ هـ . واشتدت شراهته فطمع فى الاستيلاء على مدينة « سرقسطة » (عاصمة الثغر الأعلى) وهاجمها سنة ٤٧٤ هـ . ولكنه لم يستطع اغتصابها من بنى هود وارتد خاسئاً وهو حسير . ولما رأى نفسه السيد المطاع ، وقد ضرب الجزية على أغلب ملوك الطوائف هدد بأخذ الأندلس الإسلامية جميعها . فاستنجد هؤلاء الملوك بيوسف بن=

سعد بن مردنيش . سيد شرقى الأندلس ، وانقضوا على ثغر « طرطوشة » العظيم بحملة صليبية على نحو حملة « ألمرية » الآنفة الذكر — قد دعا إليها البابا أوجين الثالث حيث كونت من جيوش إمارات : أراجون . وبرشلونة وبيزة وجنوة . وقد قادها الكونت « رامون برنجير » أمير برشلونة ، ثم هاجمت هذه القوة ثغر « طرطوشة » من البر والبحر ، فصمدت طرطوشة أربعين يوماً منتظرة أن يدركها المسلمون من بلنسية . ولما انقطع رجاؤها اضطرت إلى مفاوضة النصارى فى التسليم صلحاً مشترطة الاحتفاظ بأملاك المسلمين ، واحترام مساجدهم . وكان ذلك فى ١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هجرية . ثم هاجم النصارى بقية مدن الثغر العالى فوقعت فى أيديهم مدينة « لاردة » سنة ٥٤٤ هـ .

وأخذت بقية المدن والحصون تسقط فى أيديهم كأوراق الخريف لا تجد من يغار لها أو يحميها فسقطت بعد « لاردة »[١] . « إفراغة »[٢] .

=تاشفين الذى قصم ظهر النصرانية فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ كما أسلفنا ؛ فلم تستطع النصارى تحقيق أمنيتهم فى الاستيلاء على « سرقسطة » إلا فى سنة ٥١٢ هـ إذ انتهز النصارى فرصة موت عبد الله بن مزدلى والى سرقسطة . واقتحموا مدينة « سرقسطة » وليس بها وال . ولما بلغ الخبر السلطان على بن يوسف بن تشفين أرسل إلى سرقسطة جيشاً من المغرب قوامه عشرة آلاف جندى . ولكن الجيش وصل متأخراً . وقد سبق السيف العزل. فقد اشترك فى إسقاطها كثير من قادة الحرب الصليبية بالمشرق. وكثير من الأساقفة ورجال الدين المسيحى . (انظر القرطاس جـ ٢ ص ٨٧ — ٨٩) .

(١) لاردة : تقع على نهر مجرى شمال إفراغة (بالثغر الأعلى) .

(٢) إفراغة : تقع على نهر سنكا جنوب غربى لاردة . وقد انتصر فيها الأمير يحي ابن غانية على الفونسو المحارب سنة ٥٢٨ هـ . ومات الفونسو المحارب بسبب الهزيمة كمداً وقيل مات من جرح فى المعركة .

« ومكنسة »[١] . (مكناسة) و « إقليش »[٢] وغيرها[٣] .

ومن هنا نرى أن ثورة الأندلس على المرابطين كان نفعها للنصارى الذين استولوا على الثغر الأعلى بالأندلس وعلى كثير من حصونها الداخلية كما وحدت أحداث الثورة بين نصارى الأندلس وبقية العالم المسيحى ، إذ أضحى البابا يرسل إلى الأندلس حملات صليبية على نحو الحملات التى كان يرسلها إلى الشرق حينئذ . كما كان تأسيس الجمعيات الدينية التى كان لها القدح المعلى فى إزالة الحكم الإسلامى — فيما بعد — من الأندلس بإيحاء البابا .

وسوف نرى جهود عبد المؤمن بن على فى وقف تيار النصرانية الجارف ضد الحكم الإسلامى بالأندلس .

---

(١) مكنسة . أو مكناسة : تقع عند التقاء نهر سجرى بنهر أبرة . وهى قاعدة حصينة . ولكن الدفاع عنها غير ميسور لوقوعها فى سهل مكشوف .

(٢) إقليش : تقع جنوب وبذة . وشرق طليطلة . وكان بها الموقعة الشهيرة التى انتصر فيها المرابطون على الفونسو السادس انتصاراً حاسماً سنة ٥٠٣ ﻫ وهى تلى موقعة الزلاقة فى الأهمية .

(٣) ابن الخطيب : ص ٨٩ .

٤ – عبور جيش عبد المؤمن إلى الأندلس

«ا» استيلاؤه على مدن الغرب

انتهى الصراع بين المرابطين الموحدين برجحان كفة الموحدين بعد مصرع تاشفين سلطان المرابطين بمدينة «وهران» سنة ٥٣٩ هـ كما بينا فيما سبق. فكان من نتائج هذا، أن ثارت الأندلس من أقصاها إلى أدناها ضد الحكم المرابطي بإيعاز النصارى وتشجيعهم، ولم يكن النصارى يبغضون المرابطين[١]، بل هم يمقتون الحكم المغربي عامة، ويعاونون الثوار لتحقيق هدف بعينه، وهو إعادة عهد ملوك الطوائف وذلك قبل أن يـَدْهـَمَ الموحدون الأندلس ويعيدوا الحكم المغربي إليها في صورة جديدة، قد تكون أشد قسوة وضراوة من الحكم المرابطي، في معاملة النصارى بصفة خاصة . . ولكن ثورة الأندلس مهما كانت دوافعها وأهدافها . سوف لاتؤثر على خطة «عبد المؤمن» الذى آلى على نفسه أن يسقط المرابطين فى كل جزء من أجزاء مملكتهم بالمغربين الأقصى والأوسط، والأندلس. والذى آلى على نفسه أيضاً أن يحارب الصليبيين فى الأندلس وفى الساحل الإفريقى[٢]،

(١) كانت العلاقة بين المرابطين وملوك النصارى، أساسها العداوة والبغضاء إذ عرف المرابطون – من أول يوم دخلوا فيه الأندلس، بأنهم حماة الإسلام واعتبروا دفعهم النصارى جهاداً فى سبيل الله، وضموا الأندلس إلى المغرب لتأكيد صيانتها من بطش الصليبية بها، وفى هذا يقول «السلطان يوسف بن تاشفين» مؤسس دولة المرابطين الكبرى، وبطل الزلاقة ... : إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها .. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفترة (يعنى فى عهد ملوك الطوائف) إلى المسلمين ولأملأنها عليهم (أى الروم) خيلا ورجالا .. (المعجب ص ١٠٣).

(٢) استولى النصارى النورمان على مملكة بنى زيرى بالتدريج فأخذوا جزيرة=

ليظل الإسلام منيعاً قوياً فى هذه البقعة من الأرض ، فليس الموحدون بأقل حماسة من أسلافهم المرابطين فى الجهاد فى سبيل الله وإعزاز الإسلام، وهم إنما أسقطوا المرابطين لقصورهم دينياً — فيما يزعمون .

ولكننا نلاحظ أن عبد المؤمن لم يسارع إلى إرسال جيشه إلى الأندلس فى مستهل الثورة على المرابطين سنة ٥٣٩ هـ فقد آثر أن يسير على خطة حكيمة رسمها لنفسه ، وهى الفراغ من إسقاط المرابطين فى المغرب قبل أى شىء آخر ، فكان عليه بعد الاستيلاء عل « وهران » أن يقابل جيوشاً مرابطية عنيدة فى « فاس » و « مكناس » و « سلا » وأخيراً فى « مراكش » عاصمة المرابطين التى سقطت فى يده سنة ٥٤١ هـ على أن « عبد المؤمن » كان يتابع أحداث ثورة الأندلس ويراقب خطواتها فى هذه الفترة . ويتأهب للعبور إلى هذا البلد ، الذى يعتبره المغاربة إقليماً إسلامياً مغربياً . وآية هذا التأهب استيلاء عبد المؤمن على ثغرى سبتة وطنجة[1] ليكون الطريق مفتوحاً إلى الأندلس أمام جيشه وقبيل استيلاء عبد المؤمن على مراكش ، انضم إلى الجيش الموحدى أسطول المرابطين بقيادة « على بن عيسى بن ميمون » فكان هذا حادثاً ذا بال فى سبيل دعم الجيش الموحدى ، وحافزاً قوياً دفع « عبد المؤمن » إلى الإسراع نحو العبور إلى الأندلس ، وتلا هذا مجىء أحمد بن قسى زعيم ثورة غربى الأندلس إلى المغرب ، ومثوله بين يدى عبد المؤمن متبرئاً من ادعائه المهدية والإمامة فعفا عنه « عبدالمؤمن » وأكرم مثواه ، كما فر إلى عبد المؤمن زعيم ثورة قرطبة القاضى ابن حمدين وكان هذا سنة[2] ٥٤٠ هـ .

= « جربة » (الواقعة فى مدخل خليج قابس سنة ٥٢٩ هـ) واحتلوا طرابلس سنة ٥٤١ هـ وانتزعوا خليج قابس سنة ٥٥٥ هـ . ثم اسقطوا المهدية (عاصمة الزيريين) فى طليعة سنة ٥٥٥ هـ .

(١) ابن أبى زرع . القرطاس . ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢٠٠ ، ابن الخطيب : أعمال الإسلام ص ٢٥١ .

ولا بد وأن « ابن قسى » قد استطاع إقناع الخليفة « عبد المؤمن » بضرورة الإسراع فى إرسال الجيش الموحدى إلى الأندلس ، وعدم التريث إلى أن تسقط مراكش ، إذ أن فوضى الثورة بالأندلس ، قد استغلها النصارى على أوسع مدى مما ينذر بسقوط الحكم الإسلامى . فجهز عبد المؤمن حملة بقيادة « براز بن محمد المسوفى » ووجهها إلى الأندلس وقد عبرت هذه الحملة مضيق جبل طارق فى شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ[١] . فاستولت رأساً على جزيرة طريف ، ثم على الجزيرة الخضراء دون مقاومة . وكان « ابن قسى » مرشداً لهذه الحملة التى عززها « عبد المؤمن » بجيش آخر بقيادة « موسى ابن سعيد » ثم بجيش ثالث بقيادة « عمر بن صالح الصنهاجى » وزحف الموحدون على مدينة « شريش »[٢] . فاستولوا عليها صلحاً ، ثم اتجهوا غربا فاستولوا على مدينة « لبلة » وكان بها الثائر « يوسف أحمد البطروجى » الذى بذل الطاعة للموحدين بمجرد وصولهم إلى مقر حكمه ثم اتجهوا إلى مدينة « ميرتلة » — التى كانت مقر دعوة ابن قسى[٣] — فانتزعوها . ثم استولوا على مدينة « شلب » وجعلوا « ابن قسى » والياً عليها . ثم توغلوا غرباً فاستولوا على « باجة » ثم « بطليوس »[٤] .

وبهذا خضع للموحدين غربى الأندلس فيما عدا مدينة « أشبيلية »

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠ .

(٢) وينقل ابن أبى زرع عن البرنسي وابن فرحون ، أن شريش خضعت للموحدين فى ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ ، وأن الجيش الموحدى عبر إلى الأندلس فى السنة الآنفة الذكر . وهو خلاف المتفق عليه كما أنه لايتفق مع منطق الحوادث (انظر القرطاس ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦) .

(٣) ثم استولى عليها تلميذه ابن وزير الذى خرج عليه وهزم جيشه الذى كان يقوده تلميذه الآخر ابن المنذر .

(٤) كانت باجة ، وبطليوس خاضعتين لابن وزير أيضاً . فلما رأى أنه لاطاقة له بالموحدين خضع لهم .

– عاصمة الغرب – التى لم يستطع الثوار انتزاعها من الحامية المرابطية .

وترى – مما سبق – أن الجيش الموحدى لم يصادف عناء فى إخضاع ثوار غربى الأندلس ، والاستيلاء على ما بأيديهم – وهم أولئك الذين غلبوا الحاميات المرابطية ، وكونوا إمارات مستقلة – ونرجح أن السر فى نجاح الموحدين بهذه السرعة يرجع إلى حسن توجيه « ابن قسى » وإصغاء قادة الموحدين إلى إرشاداته ؛ إذ هو أقدر على ابتكار طرق الانتصار السريع على من تمردوا عليه ، وأعظم دراية لطرق بلاده ومسالكها .

وسيبتدئ الجيش الموحدى فى مناجزة المرابطين العنيدين المتشبثين بالحكم فى الأندلس . ثم فى مناجزة الصليبيين ، ومن اصطنعه الصليبيون من الثوار بشرقى الأندلس .

١

استيلاء عبد المؤمن على أشبيلية

ولقد كان من الضرورى أن يستولى الموحدون على مدينة « أشبيلية » عاصمة غربى الأندلس الذى خضع لهم . وكانت أشبيلية ماتزال تحت سيطرة المرابطين . فاتجه إليها الجيش الموحدى تعاونه جيوش البلاد التى خضعت للموحدين . فاستولى على « طلياطه » و « حصن القصر » قلعتى أشبيلية – من الجهة الغربية – اللتين قدمتا الطاعة للموحدين دون قتال ثم ضرب الجيش الموحدى الحصار حول « أشبيلية » ، وكان يحاصرها من جهة البحر الأسطول المغربى بقيادة « على بن عيسى بن ميمون » غير أن حصار « أشبيلية » « لم يدم أمداً طويلا » إذ كان الجيش المرابطى المحاصر ، تتضاءل قوته بجانب قوة الموحدين . الذين اقتحموا المدينة ، ففر أمامهم المرابطون الذين لم يدركهم القتل ، وممن قتلوا فى هذه المعركة « عبد الله بن العربى » نجل

القاضى « أبى بكر بن العربى » عميد فقهاء أشبيلية .

وقد سقطت أشبيلية فى يد الموحدين فى الثانى عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ[١] ؛ وعلم عبد المؤمن بانتصار جيشه بالأندلس وهو على وشك دخول مراكش (التى استولى عليها فى ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ)[٢] .

ولكن هذا النصر المبين الذى أحرزه الموحدون سنة ٥٤١ هـ باستيلائهم على مملكة المرابطين بالمغرب الأقصى وعلى غربى الأندلس فى آن واحد ، قد أعقبته نكسة أصابت مكاسبهم بالأندلس .

ذاك أن الموحدين قد وكلوا أمر إدارة « أشبيلية » إلى الشيخين عبد العزيز وعيسى أخوى المهدى ابن تومرت فاشتطا فى معاملة الناس . وصادف ذلك قيام ثورة الناس على عبد المؤمن بالمغرب سنة ٥٤٢ هـ فوسوس النصارى فى صدور بعض زعماء الثورة الذين انتهزوا الفرصة ، وشقوا عصا الطاعة على الحكم الموحدى الذى ابتدأ شديد الوطأة ، ثقيل الظل . ومن بين المرتدين على الموحدين « يوسف البطروجى » صاحب « لبلة » ثم أهل « طلياطة » و « حصن القصر » ثم « ابن قسى » (الذى أعاده الموحدون إلى ملكه السليب) ثم القائد البحرى « ابن ميمون » ثم « محمد بن الحجام » صاحب « بطليوس » . ولم يتمسك بعهد الموحدين سوى « ابن عزون » صاحب « شريش » وقد انتهز « يحيى بن غانية » قائد المرابطين بالأندلس هذه الفرصة ؛

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢٣٩ ، وابن الأثير . الكامل ج ١٢ ص ٤٣ ، ٤٤ ويجعل ابن أبى زرع استيلاء الموحدين على أشبيلية فى حوادث سنة ٥٤٠ هـ وهو خلاف المجمع عليه .

(٢) وفى أوائل سنة ٥٤٢ هـ وفد على عبد المؤمن وفد كبير من زعماء أشبيلية برياسة القاضى أبى بكر بن العربى للتهنئة والبيعة (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١١١) .

وانتزع الجزيرة الخضراء (باب الأندلس) من الموحدين . كما ارتد أهل « سبتة » بالمغرب الأقصى بزعامة القاضى عياض اليحصبى [1] .

وهكذا انهدم ما بناه الموحدون بالأندلس بين عشية وضحاها .

ولما علم « عبد المؤمن » بهذه النكسة ، بادر بإرسال جيش موحدى قوى برياسة قائد من أعظم قادة الموحدين هو « يوسف بن سليمان » مستشار عبد المؤمن الخاص ، الذى عبر إلى الأندلس ، واتجه رأساً إلى لبلة حيث قضى على ثورة البطروجى وأخضعه : ثم أخضع « طلياطة » و « حصن القصر » ثم اتجه إلى الغرب وأخضع « طبيرة » فأعلن عاملها « ابن مهيب » الطاعة للموحدين ، وعاد ابن ميمون قائد الأسطول ووالى قادس « وشنتمرية » إلى طاعة الموحدين ، ونحا نحوه « محمد بن على ابن الحجام » صاحب « بطليموس » وبعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه « يوسف بن سليمان » ثبت غربى الأندلس على طاعة الموحدين إلى النهاية .

---

(١) هو « عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتى » . إمام عصره فى الحديث والفقه والتاريخ والأدب وقد ولد بثغر « سبتة » فى شعبان سنة ٤٧٦ ﻫ وتلقى العلم على يد شيخ سبتة ثم ارتحل فى سبيل طلب العلم إلى الأندلس وعاد إلى سبتة واشتغل بالتدريس ، ثم اختير للقضاء (فى عهد المرابطين) وهو فى الثلاثين من عمره ، وعرف بالتحرى والدقة فى أحكامه ، غير مستمع إلى الشفاعات ، أو خاضع للمؤثرات . فكرهه الولاة . فترك القضاء إلى التدريس الذى كان يرى فيه متعة روحية وشرفاً رفيعاً . وقد دخل فى الدعوة الموحدية حين رأى تغلب عبد المؤمن بوهران سنة ٥٣٩ ﻫ ثم صدف عنها . وربما كان ذلك لخلاف مذهبي . ثم عاد إلى الموحدين مرة ثانية فقبله عبد المؤمن لفضله ونزاهته وسعة علمه وصار عضواً بمجلس عبد المؤمن حتى توفى سنة ٥٤٤ ﻫ ودفن بمراكش . وله عدة مؤلفات مفيدة منها . الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ومشارق الأنوار فى تفسير غريب القرآن . وترتيب المدارك . وتقريب المسالك و ... إلخ .

٢

أما فى وسط الأندلس — حيث مدينة قرطبة عاصمة الأندلس الكبرى — فقد ثار القاضى ابن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩ هـ . وكانت قرطبة مركزاً للقائد العام المرابطى « يحيي بن غانية »[1] فانتهز ابن حمدين فرصة خروج ابن غانية عن قرطبة لزيارة مدينة أشبيلية ، وثار على الحكم المرابطى بإيعاز النصارى ، وكان ابن غانية قائداً محنكاً قويًّا ، لا تلين قناته أمام الخطوب فبطش بالثوار فى أشبيلية وعزز حاميتها المرابطية ، ثم عاد إلى قرطبة وحارب ابن حمدين والنصارى بكفاءة نادرة نالت إعجاب ألفونسو السابع ملك قشتالة الذى رأى مسالمة « يحيي بن غانية » وتركه بقرطبة ؛ إذ رأى فيه القائد القوى الذى يستطيع رد عادية الموحدين عن الأندلس ، ولما رأى ابن حمدين أن حلفاءه النصارى تخلوا عنه وقت الشدة ، وأن

---

(١) القائد المرابطى « يحيي بن غانية » هو ابن على بن غانية اللمتونى الذى انتسب إلى أمه « غانية » ابنة عم السلطان « يوسف بن تاشفين » وكان الانتساب إلى الأم عادة دارجة عند المرابطين ، ومن هؤلاء الأمير محمد بن عائشة . (بنت السلطان يوسف) ومحمد بن فاطمة من ولاة أشبيلية السابقين . ويضع التاريخ الإسلامى « يحيي بن غانية » بين الأبطال المجاهدين ، فقد انتصر على حملة صليبية عنيدة بقيادة الفونسو الأول (المحارب) ملك أراجون . . فى موقعة أفراغه سنة ٥٢٨ هـ . وقد قتل الفونسو المحارب فى المعركة وقيل مات بسبب جراحها وقد ردت هذه المعركة كرامة المرابطين وأعادت هيبتهم فى صدور النصارى . إذ كان الفونسو المذكور . قد هزم المرابطين فى موقعة « سرقسطة » سنة ٥١٢ هـ ، وكان استيلاء النصارى على سرقسطة ضربة قاصمة أصابت المسلمين إذ هى عاصمة شمال الأندلس وكان « يحيي بن غانية » يتمتع بصفات نبيلة ، ويتمسك بدينه على أبعد مدى .

لا طاقة له بابن غانية ، فر هارباً إلى المغرب حيث التقى بالخليفة عبد المؤمن – على ما أسلفنا – وبعد اختفاء ابن حمدين من الميدان رجع ألفونسو إلى ابن غانية وأفهمه بأن بقاءه بقرطبة رهن بمشيئته ، وطلب إليه أن يتنازل له عن « بياسة » و« أبدة » لقاء حمايته من الموحدين ، وكان الموحدون – بعد فراغهم من غربى الأندلس – يتطلعون إلى قرطبة ، ولم يكن من الحكمة أن يشهر يحيى بن غانية السيف فى وجه النصارى والموحدين فى آن واحد ، فرأى أن يجيب ألفونسو إلى طلبه ، وتنازل له عن « بياسة » و « أبدة »[1] ولكن ألفونسو الذى يريد أن يحصل على أكبر قدر من الغنيمة فى هذا الوقت العصيب ، رأى فى تساهل « يحيى ابن غانية » معه ما زاد فى طمعه ، وقوى من شراهته ، فعاد يطلب من ابن غانية أن يتنازل له عن مدينة « جيان »[2] أيضاً ، فتظاهر ابن غانية بالرضا ، واستمهله بعض الوقت وهو مغيظ محنق ، ثم اتصل سراً بالموحدين وسلمهم مدينة « قرطبة » ومدينة « قرمونة » سنة ٥٤٣ هـ . فشكروا له ، وأمنوه على نفسه وماله ، وهم مغتبطون ، ثم اتجه ابن غانية إلى مدينة غرناطة – عاصمة الجنوب – التى كان يمتنع بها قائدها المرابطى « ميمون بن بدر اللمتونى » ونصحه بأن التنازل للموحدين المسلمين خير من الخضوع للصليبيين . . ولكن المنية عاجلته ، بعد تسليمه قرطبة وقرمونة للموحدين بشهر وبضعة أيام ، إذ توفى بغرناطة فى شعبان سنة ٥٤٣ هـ[3] قبل أن يهيئ الجو المناسب لتسليم غرناطة للموحدين .

---

(١) استرد الموحدون – بعد أن استولوا على قرطبة وقرمونة – بياسة وأبدة . إذ فر عنهما النصارى دون قتال .

(٢) استوى الموحدون على «جيان» قبل أن يحتلها النصارى (روض القرطاس ص ١٢٥) .

(٣) وقد دفن بقصبة غرناطة ، وصار قبره مزاراً يتبرك به (القرطاس ج ٢ ص ١٤٥) .

وقد ظلت « غرناطة » تحت سيطرة المرابطين – بعد استيلاء الموحدين على قرطبة وقرمونة – سبع سنوات ، بفضل صمود قائدها المرابطى « ميمون ابن بدر » ولما رأى هذا القائد الشجاع أن سلطان الموحدين شمل معظم الأندلس وأن تشبثه بغرناطة وسط هذه القوة الموحدية الشاملة سيعرض المرابطين بها للفناء ، بعث إلى الخليفة « عبد المؤمن » يعرض تسليم غرناطة للموحدين ، ويلتمس الأمان لنفسه ولقومه ، فاستجاب عبد المؤمن له وأمر ابنه الأمير « أبا سعيد » – حاكم سبتة والجزيرة الخضراء – بأن يسير إلى غرناطة لتحقيق رغبة القائد « ابن بدر » وأن يصطحب معه أسطول سبتة بقيادة « عبد الله ابن سليمان » لنقل المرابطين إلى المغرب ، ولما وصلا إلى غرناطة استقبلهما القائد « ميمون بن بدر » وحاشيته بالحفاوة والتكريم ، وقام بتسليمهما المدينة العظيمة[1] ثم عاد ميمون وحاميته بالأسطول الموحدى إلى سبتة ، حيث صحبهم القائد « عبد الله بن سليمان » إلى مدينة مراكش التى استقبلهم أهلها بين مظاهر الإعجاب والتقدير ، وقد أنزلهم الخليفة عبد المؤمن خير نزل ، ومنحهم الأرزاق المغدقة ليحيوا حياة طيبة .

ثم صار الأمير « أبو سعيد » والياً على غرناطة بجانب ولايته لسبتة والجزيرة الخضراء[2] .

(١) المصدر السابق ص ١٥٤ ، والمعجب ص ١٤٤ .
(٢) القرطاس ج ٢ ص ١٥٩

٣

لم يلق الموحدون كبير عناء فى السيطرة على غربى الأندلس وجنوبيها ووسطها ، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على شرقيها — فى عهد عبد المؤمن ولم يتم لهم هذا إلا فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، بعد أن جاهدوا إلى الوصول إلى ذلك جهاداً مريراً ، فقد استطاع النصارى أن يصطنعوا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره « إبراهيم بن همشك »[١] ، وأن يقلقوا بهما بال الموحدين كلما دعا الداعى فكانا بحق حرباً عواناً على المسلمين ، وأداة طيعة فى يد الصليبيين .

وقد آل إلى ابن مردنيش حكم « بلنسية » و« مرسية » (بشرقى الأندلس) بعد وفاة سيده[٢] الشيخ عبد الرحمن بن عياض الذى أشار بإسناد الأمر إلى ابن مردنيش مؤثراً إياه بالملك على ابنه[٣] . ولكنه أخلف الظن فيه وارتمى فى أحضان النصارى ، وأخلص فى محالفتهم إخلاصاً أضر بمصير الإسلام بالأندلس أيما إضرار .

فقد استغل النصارى فرصة ثورة الأندلس على المرابطين وفوضى انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين ، وانقضوا على ما بقى للمسلمين من

---

(١) سبق التعريف بهما .

(٢) يقول المراكشى « كان محمد —ابن مردنيش— خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ، ويتصرف بين يديه فى حوائجه » (المعجب ص ١٣٥) .

(٣) ويقول المؤرخ المذكور آنفاً : « لما حضرته —أى ابن عباس — الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد ، فقالوا له : " إلى من نسند أمورنا وبمن تشير علينا "، وكان له ولد فأشاروا به عليه . فقال : إنه لا يصلح لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ، ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا وأشار إلى محمد ابن سعد بن مردنيش » (نفس المصدر والصفحة) .

قواعد وثغور بشمالى الأندلس وأسقطوها بحملات صليبية قوية بعد أن حاصروا المسلمين بها حصاراً طويل الأمد ، وقد استغاث المسلمون بابن مردنيش بوصفه ملك « بلنسية » التى كان لها الإشراف على هذه القواعد منذ سقوط مدينة « سرقسطة » — عاصمة الشمال — فى أيدى النصارى سنة ٥١٢ هـ . ولكن ابن « مردنيش » الملك المسلم ترك هذه القواعد الإسلامية تسقط فى أيدى النصارى الواحدة تلو الأخرى دون أن يحرك ساكناً . . وقد استطاع الصليبيون إسقاط هذه القواعد الإسلامية فى ظل تحالفهم مع « ابن مردنيش » فى الفترة الواقعة بين سنة ٥٤٢هـ وسنة ٥٤٥ هـ قبل أن يستوى عود الحكم الموحدى بالأندلس .

وظل النصارى يسخرون « ابن مردنيش » فى تنفيذ خططهم تجاه الموحدين ويسندون ظهره ، دون أن يقاتلوا الموحدين وجهاً لوجه . فعندما استولى عبد المؤمن على مدينة بجاية (عاصمة بنى حماد[1] الزيريين) بأفريقية سنة ٥٤٧ هـ . وكانت هذه المدينة على وشك الوقوع بين مخالب النصارى النورمان الذين كادوا يطبقون على أهم مدن شمال أفريقيا فى ليبيا وتونس والجزائر ، دفع النصاوى « ابن مردنيش » إلى حرب الموحدين بجنوب الأندلس وقد استطاع « ابن مردنيش » أن يستولى على « وادى آش » و « بسطة » التابعتين للموحدين فى سنة ٥٤٦ هـ أيضاً[2] . وبذلك أصبح ابن مردنيش يواجه

---

(١) لما عزم المعز لدين الله الفاطمى على نقل عاصمة الفاطميين إلى القاهرة استخلف « بلكين » (يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى) على أفريقية (تونس) وكان هذا على ما عند بن خلكان فى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ . وكان ليوسف ولدان : « المنصور » الذى تولى حكم أفريقية بعد أبيه « وحماد » الذى تولى حكم المغرب الأوسط (الجزائر) وقد أسس بنو حماد مدينة « بجاية » واتخذوها حاضرة . كما بنوا قلعتهم التى اشتهروا بها . والتى يقول فيها المراكشى : « وملك "عبد المؤمن" قلعة بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم . وحرزهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرهم . . » (المعجب ص ١٣٢) .

(٢) دفع النصارى ابن مردنيش إلى هذا لمناوأة الموحدين الذين استولوا على « بجاية » .

قواعد الموحدين فى الجنوب والشرق ، وبعبارة أوضح أصبح الجيش الموحدى بالأندلس مكشوفاً للنصارى فى الجنوب والشرق ، وكان الغرض الأول الذى يرمى إليه النصارى من وراء مبادرة ابن « مردنيش » بحرب الموحدين تحويل وجه عبد المؤمن عن الصليبيين ، فربما أراد عبد المؤمن بالاستيلاء على «بجاية» ضرب الصليبيين الذين احتلوا مدينة المهدية وأسقطوا دولة الباديسيين الزيريين بأفريقية سنة ٥٤٣ هـ أو ربما كان سوف يسدد ضربته التالية إلى صدر نصارى الأندلس الذين انتزعوا ثغر « ألمرية » العظيم سنة ٥٤٢ هـ[(١)] فى فوضى ثورة الأندلس على المرابطين .

ولقد اضطر النصارى إلى مواجهـــة الجيش الموحدى ، عندما أراد الموحدون إعادة ثغر ألمرية إلى الأندلس الإسلامية ، ومن المخجل حقاً أن نرى محمد بن محمد بن مردنيش يقود جيشـــه للحرب فى صف الصليبيين ضد الموحدين ، ولكن الصليبيين لم يجترئوا على منازلة الموحدين فارتحلوا عن الثغر العظيم ، وارتحل معهم ابن مردنيش يجر أذيال الخزى والعار[(٢)] . . .

ومن مواقف ابن‌مردنيش المؤسفة حقاً ، أنه عندما هجم الجيش الموحدى على النصارى النورمان بأفريقية وضرب عبد المؤمن الحصار على مدينة المهدية وضيق على الصليبيين الخناق ، جن جنون نصارى الأندلس وثارت — مع الصليبيين — ثائرة ابن مردنيش حليفهم المخلص الذى خرج من فوره على رأس جيش جرار أكثره من نصارى قشتالة ودهم مدينة « جيان » الموحدية على حين غفلة من أهلها ، ولم تستطع حاميتها ، أن تصد هذا

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) الإحاطة : ج ١ ص ٢٧٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣٧ .

الجيش الكبير فوقعت المدينة فى يد المعتدين[١] .

وأغلب الظن أن ابن مردنيش وحلفاءه أرادوا بانتزاع جيان ، إشعار « عبد المؤمن » بحرج موقف الموحدين بالأندلس ، لعله يفك الحصار عن الصليبيين بالمهدية : ولكنه ازداد عناداً وإصراراً ، واستمر مشدداً الحصار حتى سقطت المهدية فى يده ، وبذلك زال شر الصليبيين عن شمال أفريقيا[٢] .

أما ابن مردنيش ، فإنه سَدَرَ فى غيه ، وطفق يعيث فساداً فى أرض المسلمين ، إذ سار من « جيان » يريد « قرطبة » — أعظم معقل للمسلمين بالأندلس — فخرج إليه قائد حامية الموحدين « عبد الرحمن بن يجيت » واستطاع أن يشل حركة الجيش الغازى حتى تمكن الموحدون من الاحتماء بالمدينة وإغلاق أبوابها على أنفسهم ، فضرب « ابن مردنيش » الحصار على قرطبة فترة ، ثم تركها وخرج بكل جيشه[٣] إلى مدينة أشبيلية ؛ التى كان الموحدون بها قد عرفوا أمر ابن مردنيش ، وأخذوا

---

(١) يلوم « ابن صاحب الصلاة » « محمد بن على الكومى » والى جيان ، ويرميه بالتقصير ، ويعتبر تسليمه « جيان » بهذه السرعة خيانة ونكثا بعهد الموحدين . وهذا اللوم لا محل له إذ بغته ابن مردنيش بقوة هائلة تتضاءل بجانبها حامية الموحدين الصغيرة .

(٢) سقطت المهدية فى يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير ١١٦٠م).

(٣) يذكر ابن صاحب الصلاة أن القائد عبد الرحمن بن يجيت والقاضى أخيل ابن إدريس ابتكرا خدعة أخرجا بها ابن مردنيش من قرطبة . وخلاصتها . أنهما كتبا رسالة على لسان « سدراى بن وزير » الذى كان له سابق صداقة مع ابن مردنيش ، واحتالا فى إيصالها إلى ابن مردنيش مع شخص زيات ادعى أنه من أهل إشبيلية . وفيها ينصح ابن سدراى بفك الحصار عن قرطبة والإسراع إلى دخول « إشبيلية » التى لا تحرسها حامية ذات قوة . فانخدع ابن مردنيش ، وترك قرطبة مسرعاً إلى « أشبيلية » التى صدمت آماله بقوة حصانتها .

حذرهم من مباغتته لمدينتهم ، وحصنوها تحصيناً شديداً ، فلما بلغ « ابن مردنيش » « أشبيلية » وأدرك مبلغ حصانتها ارتد عنها مسرعاً وهو حسير [١] .

٤

ثم يبتدئ ابن مردنيش وحلفاؤه النصارى جولتهم الأخيرة مع الموحدين — فى عهد عبد المؤمن — فيقلدون « ابن همشك » قيادة الجيش ، وابن همشك ، هو صهر ابن مردنيش ومعاونه ، وهو قبل هذا ربيب النصارى وعرف بالقسوة والغلظة فى معاملة المسلمين بعامة ، والموحدين بخاصة ، وفى أوائل سنة ٥٥٥ هـ خرج ابن همشك من « جيان »[٢] على رأس جيش ضخم (أكثره من النصارى) قاصداً « قرطبة » ، ولما دخل أحوازها أخذ يتلف الزرع والضرع ، ويلقى الرعب فى قلوب الناس ، ويعيث فى الأرض فساداً ، ولما التقى الجمعان تظاهر بالهزيمة وانسحب فى جنح الظلام وفى غفلة من الموحدين ، وضع كمائنه فى الطريق ، ولما أصبح الصباح ، ابتهج الموحدون لانسحابه ، وخرجوا فى إثره للاستطلاع والمطاردة ، فانقضت عليهم الكمائن وفتكت بالكثير منهم ، وكان من بين شهدائهم القائد « عبد الرحمن بن يجيت » ثم فر الباقون ، وأسرعوا إلى دخول « قرطبة » والامتناع بها ، وإغلاق أبوابها قبل أن يدهمها « ابن همشك » الذى رجع وحاصر المدينة ، ولكنه لم يحقق هدفاً بحصاره إياها ، فرأى أن يفك الحصار عن قرطبة ، ويتجه إلى « أشبيلية » — على نحو ما صنع ابن مردنيش فى حملته — وعندما أشرف على أشبيلية

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان . مخطوطة المعهد الإسلامى بأسبانيا ورقة رقم ٤٣

(٢) كان ابن مردنيش قد قلد صهره «إبراهيم بن همشك» ولاية «جيان» .

راعه تحصينها المنيع ، فاعتراه اليأس من محاولة احتلالها ، واتجه نحو الشمال الشرقى ، وحاصر مدينة « قرمونة » (إحدى قلاع أشبيلية) فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ واستطاع أن يدخلها بخيانة أحد زعمائها ، ويدعى عبد الله بن شراحبيل ، ولكن الموحدين ظلوا معتصمين بقصبة المدينة[١] .

وكان الأمير أبو يعقوب يوسف والى أشبيلية على أهبة السفر إلى جبل طارق ومعه حشد كبير من المهندسين والصناع والعمال الذين أعدهم لإنشاء مدينة جبل طارق على وجه السرعة ، تحقيقاً لرغبة والده (الخليفة عبد المؤمن) الذى قرر العبور إلى الأندلس — بعد أن طرد الصليبيين من أفريقية — فتريث الأمير المذكور قليلا عندما بلغه خبر اقتحام ابن « همشك » مدينة قرمونة ، وأرسل قوة موحدية لإنقاذها ثم ارتحل إلى جبل طارق ، وظل به حتى أنجز بناء المدينة التى لم يستغرق تشييدها أكثر من سبعة أشهر ، ثم احتفل بوالده الخليفة وظل بجواره حتى عبر إلى المغرب فى سنة ٥٥٦ هـ ، وبعد ذلك رجع « أبو يعقوب يوسف » إلى مقر ولايته بإشبيلية ، وكانت « قرمونة » ما تزال تتلظى بنار ابن همشك وحلفائه النصارى ، فأسرع الأمير إلى إنقاذها حيث أرسل إليها جيشاً قوياً بقيادة الشيخ « عبد الله بن أبى حفص » وعززه بآخر بقيادة « أبى العلاء ابن عزون » واستطاعت القوات الموحدية أن تعيد قرمونة (التى ظلت تحت سيطرة ابن همشك نحو سنة) فى النصف الأول من سنة ٥٥٦ هـ[٢] .

---

(١) قصبة المدينة وسطها . والمقصود هنا مكان الحكم والجيش .

(٢) هذه رواية ابن صاحب الصلاة وقد رجحتها لاتفاقها مع منطق الأحداث ، إذ أن الأمير أبا يعقوب يوسف ودع أباه الذى عبر إلى المغرب فى المحرم سنة ٥٥٦ هـ ، وعاد رأساً إلى أشبيلية وأرسل الجيوش — دون تريث — إلى قرمونة ولم تصمد حامية بن همشك كثيراً فى وجه جيوش الموحدين « وهناك رواية لابن عذارى تشير إلى أن الموحدين استعادوا قرمونة فى سنة ٥٥٥ هـ ونراها ضعيفة (راجع نظم الجمان المخطوط ورقة رقم ٤٣ ثم البيان المغرب ج ٣ ص ٥٧) .

وفى الوقت نفسه أرسل الخليفة عبد المؤمن جيشاً من المغرب لتعزيز جيوش الأندلس فى منطقتى : أشبيلية ، وقرطبة بقيادة القائد الشهير : يوسف بن سليمان[1] : فاستقر الأمن ، واطمأنت النفوس .

وهكذا فشل النصارى فى شخص ابن مردنيش ثم فى شخص ابن همشك فى زعزعة قوة الموحدين بغربى الأنداس ووسطه ، ولكن فشلهم هذا لم يوقف تيار مناوراتهم الموحدين ، فدفعوا « ابن همشك » إلى الهجوم على مدينة « غرناطة » — حاضرة جنوبى الأندلس — التى استطاع أن يدخلها بخدعة حربية[2] عاونه فيها بعض اليهود الناقمين على الحكم الموحدى الذى بلغ نهاية التعصب للإسلام فى زعم اليهود والنصارى ، فلا غرو أن ينتهز اليهود فرصة غياب الأمير « أبى سعيد » بن عبد المؤمن — والى غرناطة — فى زيارة أبيه بالمغرب : ليقوموا بتنفيذ المؤامرة بدخول « ابن همشك » المدينة خلسة فى إحدى ليالى سنة ٥٥٧ هـ إذ فتحوا له باب الربض[3] فدخل الجيش غرناطة على حين غفلة من أهلها . ولما شعر به الموحدون تجمعوا بالقصبة فى حماية الجيش الموحدى بالمدينة ، ولم يستطع جيش « ابن همشك » اقتحام القصبة ، ويبدو من رواية ابن صاحب الصلاة أن جيش الموحدين بغرناطة لم يكن ضعيفاً وأنه كانت لديه أقوات ومعدات تمكنه

---

(١) يوسف بن سليمان « هو مستشار عبد المؤمن ، وهو الذى أعاد غربى الأندلس إلى الموحدين بعد أن ثار على حكمهم وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، فشخصيته بين قادة الموحدين تماثل شخصية « يحيى بن غانية » ابن قادة المرابطين .

(٢) عاون ابن همشك فى تدبير مؤامرة هذه الخدعة ، يهود غرناطة الذين أكرهوا — فى زعمهم — على اعتناق الإسلام وانضم إلى المتآمرين شخص مسلم يدعى « ابن دهرى » (انظر نظم الجمان — نشر التازى) فى درجة الماجستير ورقة رقم (٥)

(٣) الربض : بفتحتين . والمربض وزان مجلس ، الغنم مأواها ليلا . والربض للمدينة ما حولها . والمراد هنا الباب المخصص للدواب حيث تخرج للمرعى وتعود .

من المقاومة مدة طويلة[١] ، ويثبت هذا أن ابن همشك قد طلب من ابن مردنيش والنصارى الإمدادات حتى يتمكن من قهر الموحدين ، فسارع ابن مردنيش إلى إرسال بعض جيوشه ، ومن بينها كتائب نصرانية من جنود الحلفاء بقيـــادة « البار ريدجس » الذى تسميه الرواية العربية « العلج الأقرع »[٢] .

وعندما عرف « عبد المؤمن » أمر هجوم ابن همشك على غرناطة أمر ابنه أبا سعيد بأن يسارع إلى الأندلس لينقذ غرناطة ، فاتجه الأمير إلى « مالقة » واستدعى منها جيوش أشبيلية بقيادة عبد الله بن أبى حفص ، واجتمعت الجيوش الموحدية بالقرب من غرناطة ، واتخذت نظامها الهجومى فى مكان يسمى « مرج الرقاد »[٣] . فأسرع ابن مردنيش إلى لقاء الموحدين فى قوات كبيرة من جيان ومرسية مع قوات النصارى المتحالفين واضطرمت المعركة التى أبلى فيها الموحدون بلاء حسناً ، ولكن الدائرة دارت عليهم لكثرة جموع ابن همشك وحلفائه ، وتناثر جيش الموحدين فكان بين قتيل أو غريق فى آبار المرج أو أسير ، ولم ينج منه إلا القليل ، وعلى الرغم من فداحة الكارثة التى ألمت بالموحدين ، فإن ابن همشك أخذ يتفنن فى تعذيب أسراهم بما تقشعر من ذكره الأبدان[٤] ، وكان يتعمد

---

(١) يقول ابن صاحب الصلاة : « وأمد الله الموحدين بالقصبة ، وأعانهم وثبتهم بمعونته ونصرته ، وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها — مع عون الله — عدتهم (المن بالإمامة : نشر التازى : ورقه رقم ٥٢) .

(٢) وهو حفيد « البارهانس » أشهر قادة ألفونسو السادس ملك قشتالة (المعاصر للسلطان يوسف بن تاشفين) .

(٣) المرج : أرض فسيحة ذات نبات ومرعى . ومرج الرقاد بالأندلس موضع يقع على بعد أربعة أميال من مدينة غرناطة ، وعلى بعد أربعة كيلو مترات من بلدة الطرف Altarf قرب مجرى نهر شنيل الذى يسمى الآن Magdnnocal

(٤) كان ابن همشك يتفنن فى تعذيب الموحدين . إذ كان يلقى بهم من الشواهق ، ويعبث بهم ، ويضعهم فى كفة المنجنيق إلى غير ذلك من الفظائع ، وكان يفعل هذا على مرأى من الموحدين الممتنعين بقصبة غرناطة ليحملهم على التسليم ولكنهم لم يستسلموا (مخطوط نظم الجمان ورقم ٦٢) .

أن يمثل بالأسرى أمام إخوانه المعتصمين بالقصبة لعلهم يستسلمون ، ولكن هذه الأفعال الوحشية زادتهم عناداً وصلابة ، مؤمنين بأن الله سينزل الهزيمة لا محالة بالطاغية ابن همشك ، وقد ارتاع الخليفة عبد المؤمن لتلك الكارثة التى أصابت جيشه ، فجهز جيشاً ضخماً وزوده بالمئونة والعدة الكافية ، وجعل على رأسه ابنه يوسف بن عبد المؤمن (الذى تولى الخلافة بعده) وأحاطه بطائفة ممتازة من قادة الموحدين على رأسهم القائد العظيم « يوسف بن سليمان » واتجه الجيش إلى غرناطة ولما علم ابن همشك بهذا الاستعداد الموحدى الهائل ، طلب النجدة العاجلة من ابن مردنيش والنصارى فقاد ابن مردنيش جيشاً كبيراً من جنوده ومن جنود النصارى ، وكان ابن همشك معسكراً بالقلعة الحمراء المطلة على قصبة غرناطة وبجواره جيوش ابن مردنيش ويفصل بينهما نهر « حدرة » . أما الموحدون فقد عسكروا فوق الجبل المطل على وادى شنيل تجاه جبل السبيكة[1] والقلعة الحمراء التى عسكر عليها ابن همشك .

وفى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ (١٢ يوليه سنة ١١٦٢ م) جمع يوسف بن سليمان جنده وخطب فيهم خطبة دينية حماسية ، ونظمهم تنظيماً هجوميا ، واتجه بهم نحو ابن همشك ، وعند الفجر وصل بهم إلى محلته فوق جبل السبيكة ، وانقض الموحدون على أعدائهم على غرة قبل أن يركبوا خيولهم ، واضطرمت المعركة التى أبلى الموحدون فيها عظيم البلاء ، وقتلوا من جنود ابن همشك والنصارى أعداداً لا تحصى ، وقد أشرقت الشمس على انتصار الموحدين الذين مزقوا أعداءهم شر ممزق ، وقتلوا معظم قادتهم ومن بينهم قائد جيوش النصارى « البار ريديجس » الذى رُفع رأسه على باب القنطرة « بقرطبة » ومنهم « ابن عبيد » صهر ابن مردنيش ؛ ولم يستطع ابن مردنيش إنجاد جيش ابن همشك ، لأن نهر « حدرة » كان

---

(١) السبيكة : أرض خصبة تقع فى الجنوب الشرقى لقصر الحمراء .

Dozy; Rechenches I. P. 364.

يفصل بينهما ، وكان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت ، وقد أخذهم الموحدون على غرة ، فوقف ابن مردنيش مأخوذاً ينظر إلى جيش ابن همشك فى حسرة وألم ، دون أن يستطيع إنقاذه . . .

وتعرف هذه المعركة بمعركة « السبيكة » وكان لانتصار الموحدين فيها آثار بعيدة ، فقد وضعت حداً لغرور ابن مردنيش وصهره ابن همشك اللذين لم تقم لهما قائمة بعدها ، واللذين كانا يرميان إلى طرد الموحدين من الأندلس ليصفو الجو لهما ولحلفائهما النصارى ، ومن جهة أخرى فقد حطم انتصار الموحدين بالسبيكة آمال الصليبيين فى اصطناع ابن مردنيش وابن همشك للتعجيل باسترداد الأندلس الإسلامية ، وكان من نتائجها أيضاً التفاف الأندلسيين حول الموحدين ، واعتناقهم للدعوة الموحدية ، إذ سارعت نواحى غرناطة إلى إعلان الطاعة للموحدين .

وقد أخذ الأمير يوسف بن عبد المؤمن والقائد يوسف بن سليمان فى إصلاح ما أفسده ابن همشك من معالم غرناطة ، كما سارعا إلى إثابة الجنود البواسل الذين امتنعوا بالقصبة ولم يخضعوا لابن همشك والنصارى ، ثم أصدر الخليفة عبد المؤمن أوامره بتحصين مدينة غرناطة تحصيناً هائلا بحيث تصبح مقر الدفاع الرئيسى للجيوش الموحدية ، وبأن ينتقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، من أشبيلية إلى مدينة « قرطبة »[١] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة . مخطوط ورقة ٦٢ .

٥

النصارى يتجنبون مواجهة الموحدين

أشرنا فيما سبق إلى أن النصارى كان لهم القدح المعلى في إشعال الثورة على الحكم المرابطي الذي ابتدأ سنة ٥٣٩ هـ . وإلى أنهم آزروا الثوار ، واستطاعوا في النهاية أن يحالفوا ابن مردنيش وابن همشك وأن يظفروا في ظل هذا التحالف . بالاستيلاء على أهم ثغور المسلمين بشرقي الأندلس وعلى ما بقي لهم من مدن وقلاع الثغر الأعلى . مثل « ألمرية » التي انتزعوها بحملة صليبية سنة ٥٤٢ هـ ومثل « طرطوشة » التي سقطت في أيديهم سنة ٥٤٣ ، ولاردة ثم إفراغة ثم مكناسة سنة ٥٤٤ هـ وأوائل سنة ٥٤٥ هـ . وبذلك كانت لهم السيادة على أكثر مدن الشرق والشمال .

وربما كان من الممكن أن يعيد الموحدون — في عهد عبد المؤمن — هذه الثغور الإسلامية وتلك القلاع لو لم تشغلهم تلك الحروب التي ابتدعها بن مردنيش وابن همشك ، دون فائدة جنياها اللهم إلا تحقيق مآرب النصارى .

ومما هو مقرر أن النصارى لم يشتبكوا مع الجيوش الموحدية — في عهد عبد المؤمن — في حرب سافرة . بل كانوا يتفادون ذلك . فإذا ما توقعوا أن يحاربهم الموحدون ، دفعوا بابن مردنيش أو ابن همشك إلى خوض حرب مع الموحدين لامتصاص الوقت — في أقل تقدير — ويكتفون بإمدادهم بالرجال .

فنرى أن « يحيى بن غانية » حين تخلى عن قرطبة ودخلها النصارى . ثم زحفت الجيوش الموحدية صوب قرطبة أسرعت جيوش النصارى إلى مغادرة قرطبة دون أن تلتقي بالموحدين الذين بسطوا سلطانهم على هذه المدينة العظيمة في رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ .

ثم تخلى النصارى عن « جيان » وبياسة ، وأبدة[١] بمجرد أن عرفوا رغبة الموحدين فى الاستيلاء عليها . وكانوا قد اغتصبوها من المرابطين ثم نرى عبد الرحمن ابن يكيت (والى قرطبة) يهاجم حصون النصارى فى منطقة قرطبة . فيستولى على حصن البطروج Pedroche وحصن منتور Montoro وحصن المدور Almodouar وبعض حصون أخرى . وهذه الحصون كان النصارى قد استولوا عليها فى فترة الثورة على المرابطين ليطوقوا بها قرطبة — عاصمة المسلمين الكبرى ، ولكن الموحدين أخذوا يستولون عليها الواحد تلو الآخر دون أن تثور ثائرة النصارى كثيراً . ودون أن يفكروا فى حرب جدية مع الموحدين على نحو ما كانوا يصنعون مع المرابطين . وفى الوقت ذاته يقوم عبد الله ابن أبى حفص (والى أشبيلية) بغزو بلاد البرتغال . فيتغلب على حصن « أطرونكس » (Trancoso) ويضمه إلى أملاك المسلمين دون أن يفكر البرتغاليون فى حرب الموحدين[٢] .

ولكن الموحدين — فى عهد عبد المؤمن — لم يقوموا بغزوة كبرى على نحو غزوة « الزلاقة » التى قام بها « يوسف بن تاشفين » عاهل المرابطين بالأندلس . كما أنهم لم يستطيعوا أن يستردوا الثغور والقلاع التى اغتصبها النصارى فى فترة انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين فى منطقة الثغر الأعلى . والسبب فى ذلك راجع إلى مناوأة ابن مردنيش وابن همشك إياهم وضياع الوقت فى صدهما عن وسط جنوبى الأندلس على أن الموحدين استعادوا ثغر « المرية » أعظم ثغور الجنوب الشرقى للأندلس فقد حاصره الموحدون من البر والبحر . ولم تستطع الحامية النصرانية مقاومة الموحدين . فاستسلمت . واستولى المسلمون

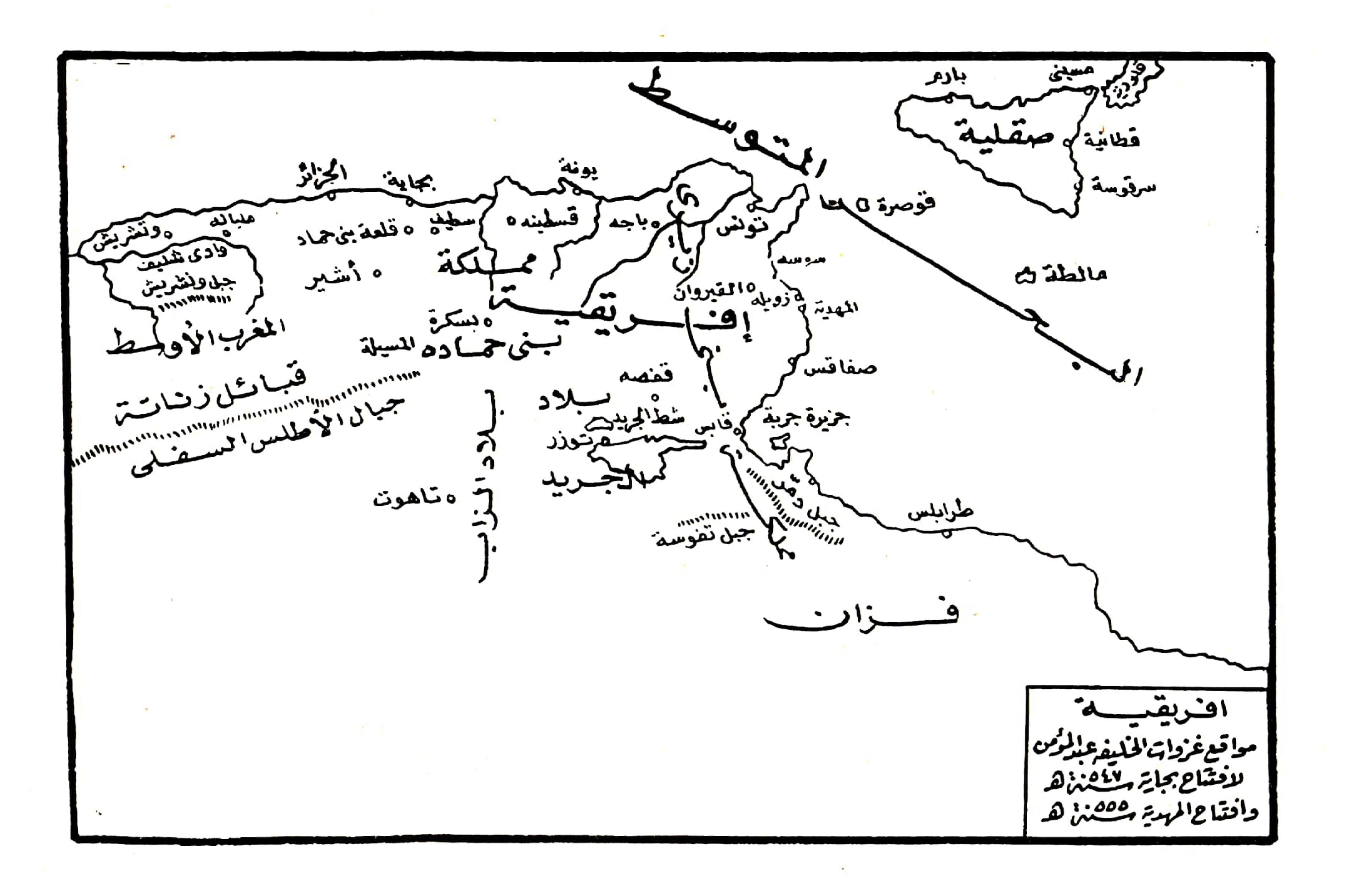
---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣١ — ٣٤ .

على الثغر المذكور فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) وسمحا للحامية النصرانية بالخروج دون أن يعتدوا عليها[١] .

(١) ولقد استنجدت الحامية — قبل أن تسلم — بالفونسو السابع الذى هرع إلى نجدتها هو وحليفه المسلم : محمد بن مردنيش فى جيش كبير ليحارب إلى جانب الصليبيين المغتصبين . وقد حاول النصارى وابن مردنيش أن يفكوا الحصار الموحدى ، ولكن جهودهم ذهبت سدى . غير أن الرواية النصرانية تصور جهود الفونسو السابع بمبالغة بطولية ولكن النتيجة تبطل دعواها إذ اضطرت الحامية أن تسلم ، وارتد الفونسو السابع إلى بلاده ومرض فى الطريق ومات قبل وصوله إلى وطنه وبذلك عادت المرية إلى المسلمين بعد أن مكث بها النصارى عشر سنوات . ويعتبر أخذ الموحدين لهذا الثغر من أعظم الأعمال التى قام بها الموحدون فى عهد عبد المؤمن بالأندلس .


افريقية
مواقع غزوات الخليفة عبد المؤمن
لافتتاح بجاية سنة ٥٤٧ هـ
وافتتاح المهدية سنة ٥٥٥ هـ
البحر المتوسط
صقلية
بارم
مسيني
قطانية
سرقوسة
قوصرة
مالطة
تونس
باجه
سوسه
زويله
المهدية
القيروان
صفاقس
جزيرة جربة
قابس
طرابلس
جبل دمر
جبل نفوسة
فزان
إفريقية
قفصه
شط الجريد
توزر
بلاد الجريد
بلاد الزاب
تاهوت
بونة
قسطينه
بجاية
سطيف
الجزائر
قلعة بني حماد
أشير
مملكة بني حماده
بسكرة
المسيلة
مليانه
وانشريش
وادى شليف
جبل وانشريش
المغرب الأوسط
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى

(ب) فتوح عبد المؤمن بشمال أفريقيا

ا ــ بجاية

كان هناك عدة اعتبارات أوجبت على « عبد المؤمن » أن يضم مملكة بنى حماد الزيريين الصنهاجيين إلى ملكه ، أولئك الذين أسسوا مدينة « بجاية » فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) واتخذوها حاضرة لملكهم .

وفى مقدمة هذه الاعتبارات اغتصاب النصارى مملكة بنى باديس الزيريين الصنهاجيين (أبناء عمومة الحماديين أصحاب بجاية) . إذ استولى النورمان الصقليون على مدينة « المهدية » سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وعاثوا فساداً فى الثغور الأفريقية على طول ساحل ليبيا وتونس وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من مملكة بنى حماد . وقد استغاث المسلمون بهذه الثغور بالخليفة عبد المؤمن ولم يكن هناك من سبيل إلى إنقاذ هذه الثغور من يد الصليبيين دون الاستيلاء على مملكة بنى حماد التى تفصل المملكة الموحدية عن أفريقية (تونس) التى استأسد بها النصارى . وكانت بجاية أيضاً قد انتابها الضعف الشديد لانغماس حكامها فى اللهو والترف ، ولشدة حملات العرب الهلاليين [١] ،

---

(١) أطلق على هؤلاء العرب اسم « العرب الهلاليين » من باب تسمية الكل باسم الجزء لشهرته . والحقيقة أنهم ينتمون إلى قبيلتين من قبائل الحجاز هما : قبيلة بنى هلال التى كان مقرها جبل غزوان « بالطائف » . وقبيلة بنى « سليم » وكانت تقطن بالقرب من المدينة . وربما جمعت بينهما الصفات المشتركة التى تحولت إلى مصاهرة وتطورت إلى تماسك حيوى ومصيرى فكانوا يرتحلون أو يستقرون معاً حتى نسبهما الكثيرون من المؤرخين إلى أصل واحد وقد رماهم « ابن خلدون » بالتهور والشراسة والاعتداء والإفساد ونحو ذلك من الصفات المنفرة . لأن العصابات التى كانت تنقض على السابلة والحجاج والتجار كانت تنتمى إلى سفهاء هؤلاء الأعراب ..

وكثيراً ما انحازوا إلى الطوائف والإمارات ليستنبطوا لأنفسهم العيش الكريم فقد =

وإغاراتهم التى لاتنقطع عنها فإذا لم يسارع عبد المؤمن إلى ضم مملكة الحماديين إليه . فإن النصارى سيبطشون بهم — دون شك — وهناك اعتبار آخر لايقل خطورة عما سبق وهو أن المرابطين المتمردين على عبد المؤمن بالمغرب والأندلس كانوا سوف يتخيرون بجاية الصنهاجية عشاً يلجأون إليه ويتجمعون فيه ويكيدون منه للدولة الموحدية التى يعتبرونها مغتصبة لملكهم التليد ، ولاسيما أن النصارى بالأندلس كانوا قد وضعوا حلفاً من . محمد بن مردنيس وصهره ابن همشك وبنى غانية[1] المرابطين الذين أسسوا مملكة قوية بجزائر البايار

=انضموا إلى القرامطة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ولماتغلب القرامطة على الشام وحاربوا الفاطميين بمصر . وانتهى أمرهم بالهزيمة على يد الخليفة العزيز بالله . أعجب الخليفة المذكور بشجاعة هؤلاء ورغبتهم فى الإقامة بمصر . وأسكن بعضهم بالصحراء الشرقية والبعض الآخر بالصعيد . ولما انفصل المعز بن باديس عن مذهب الشيعة الفاطمية وتحول إلى مذهب أهل السنة وقطع اسم الفاطميين من الخطبة فى سنة ٤٤٠ هـ . فى عهد الخليفة المستنصر ، انتقم هذا الخليفة من الباديسيين بالإيعاز إلى هؤلاء العرب بالرحلة إلى المغرب والاستيلاء على خيراته الواسعة . وقد حارب المعز بن باديس هؤلاء العرب فهزموه شر هزيمة فى موقعة « حيدران » سنة ٤٤٣ هـ . وهدموا القيروان .

(١) ينتمى بنو « غانية » إلى قبيلة « مسوفة » وهم أبناء عمومة قبيلة « لمتونة » التى أنجبت أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » مؤسس مملكة المرابطين ومسوفة ولمتونة بطنان من بطون قبيلة صنهاجة الكبرى « وبنو غانية » هم أبناء « على بن يوسف المسوفى » أحد ضباط جيش يوسف بن تاشفين . وقد أنجب على هذا ولدين هما « يحيى » و« محمد » وكان لهذين الولدين شأن كبير فى عهد السلطان على بن يوسف بن تاشفين إذ صار « يحيى » قائداً عظيماً من قواد المرابطين الأفذاذ وهو الذى كسب للمسلمين النصر فى موقعة « إفراغة » الشهيرة التى قتل بسببها الفونسو المحارب ملك « ارجون » ذلك الملك الذى كان يضطرم حقداً على الحكم الإسلامى بالأندلس، ويقول المراكشى فى « يحيى بن غانية » هذا : كان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له الكثير من المناقب . . . فمنها أنه كان رجلا صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل والتعظيم له . والاحترام للصالحين . هذا مع علو قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث . وكان مع هذا شجاعاً فارساً . إذا ركب عد=

(ميورقة . ومنورقة . ويابسة) ويهدف هذا الحلف إلى إضعاف الموحدين والقضاء عليهم بالأندلس والمغرب على السواء ، فلهذه الاعتبارات أو لشيء منها رأى عبد المؤمن أنه من الضرورى أن يضم الموحدون بجاية إلى المغرب .

وقد أحاط عبد المؤمن حملته إلى بجاية بالسرية التامة . ولكى يضلل أعداءه فيما يتجه إليه أذن للوفود الأندلسية التى كانت قد طلبت الإذن فى لقائه — بأن تقدم إليه لتقابله بمدينة « سلا » . ثم أخذ يزود هذه الوفود بالنصائح ، وبعد أيام معدودة اتجه إلى مدينة « سبتة » موهماً أنه سيعبر إلى الأندلس تحقيقاً لرغبة هذه الوفود الآنفة الذكر . ولكنه اتجه بجيشه فجأة صوب الشرق ، وسار مسرعاً نحو بجاية واستولى فى طريقه إليها على جزائر بنى مزغان[1] (مدينة الجزائر الحالية) وكان يحكمها ولى عهد بجاية[2] ، الذى فر وتركها للموحدين ، وأسرع نحو بجاية ليبلغ أباه (يحيى بن العزيز بالله الصنهاجى) بهجوم الموحدين . وكان يحيى هذا رجلاً لا يحفل بغير الصيد واللهو . فحين أبلغه ابنه بمقدم عبد المؤمن ، فر عن ملكه إلى مدينة « بونة » ثم إلى

= وحده بخمسمائة فارس ... واستقر محمد فى جزر البليار وكان طموحاً . حتى قيل : إنه كان يغزو بلاد الروم مرتين فى كل سنة فقوى أمره ، وهابه ملوك أوربا . وتوفى سنة ٥٧٩ هـ (فى عهد يوسف بن عبد المؤمن) .

ولم يستطع الموحدون أن يخضدوا شوكة بنى غانية إلا فى عهد الخليفة الرابع « الناصر » . وقد استولى الموحدون على عاصمتهم « ميورقة » فى ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٢٠٣م) ولكن « يحيى بن غانية » ظل يحارب الموحدين بأفريقية ويقلق بالهم حتى سنة ٦٠٧ هـ حيث لجأ إلى الشيخ أبى حفص الذى أوصله إلى الخليفة الناصر ، وظل « يحيى » هذا فى كنف الخليفة الموحدى الناصر حتى وافته منيته . (المعجب ص ١٧٦ — ١٧٧ و (الروض المعطار ص ١٨٩) .

(١) تسمى جزائر بنى « مزغان » أو « مزغنان » أو مزغنة : ومكانها مدينة الجزائر الحالية .

(٢) ويسمى القائم بن يحيى بن العزيز .

مدينة « قسنطينة »[1] كما فر أخواه — الحارث وعبد الله — إلى صقلية ليحتميا بالفرنج . . . وهذا برهان واضح على تفكك العائلة الحمادية وضعفها ، وعلى أن بجاية كانت موشكة على وقوعها فى قبضة النصارى ، لولا أن تداركها الله ، ووجه إليها « عبد المؤمن » الذى دخل هذه المدينة فاستسلمت له دون مقاومة وكان ذلك سنة ٥٤٧ ﻫ .

ولكن قبيلة « صنهاجة » الكبرى ، عز عليها أن تسقط مملكة الحماديين الصنهاجيين فى يد عبد المؤمن بهذه الكيفية المزرية ، فأخذتها العزة ، وجمعت جموعها وحشودها من القبائل المجاورة مثل « كتامة » « ولواتة » و اتجهت إلى حرب عبد المؤمن ببجاية بقيادة شخص يدعى « أبا قصبة » من بنى زالدوى الصنهاجيين . وكانت صنهاجة تهدف إلى إعادة بجاية إلى الحماديين . ولكن الموحدين خيبوا آمالهم ، إذ التقوا بهم بجيش كبير بقيادة « أبى سعيد يخلف » — من أهل الخمسين — فانهزمت صنهاجة وحلفاؤها[2] . ويزعم البيدق أن هذه الحملة كانت بقيادة عبد المؤمن[3] ولما استقرت أمور بجاية ، عين عبد المؤمن ابنه « عبد الله » والياً عليها ثم ارتد راجعاً إلى مراكش .

(١) ولما حاصر الموحدون مدينة قسنطينة . وضيقوا عليها الخناق . أرسل « يحيى ابن عبد العزيز » شيوخ صنهاجة إلى « عبد المؤمن » يحملون إليه خضوعهم واستسلامهم ، ويطلبون إليه الأمان . فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوا . وقابل يحيى « عبد المؤمن » ولزمه ، فحمله عبد المؤمن ضمن حاشيته إلى مراكش حيث عاش هو وأسرته فى كنف عبد المؤمن فى عزة وسعة عيش .

(٢) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٦٠ .

(٣) البيدق : كتاب أخبار المهدى : ص ١١٥ .

ب ـ مدينة المهدية

قامت الخلافة الموحدية على فكرة الجهاد فى سبيل إعادة مجد الإسلام الأول ، ولم يكن استيلاء عبد المؤمن على مملكة المرابطين بالمغرب والأندلس هو الغاية النهائية التى يسعى إليها الموحدون ، بل كانت الخطوة الأولى فى سبيل تكوين خلافة إسلامية قوية تستطيع رد الزحف الصليبى فى المشرق وفى المغرب على السواء ، وكان هذا هو السر فى مهدوية ابن تومرت الذى رأى بعينى رأسه مدى ما وصلت إليه الخلافتان الفاطمية والعباسية فى أواخر القرن الخامس الهجرى من ضعف وتدهور وشيخوخة . أطمعت الصليبيين فى مهاجمة المسلمين بالشام والأندلس ثم بشمال أفريقية . فأما المشرق فقد ظهر به نور الدين زنكى [(١)] . ومن بعده صلاح الدين الأيوبى الذى أوقف الزحف الصليبى وهزمه . وأما المغرب فقد ظهر به عبد المؤمن بن على وخلفاؤه ، الذين كان عليهم أن يردوا كيد النصارى للإسلام بالأندلس وشمال أفريقيا

---

(١) احتل الصليبيون كثيراً من أراضى المسلمين — ولاسيما أملاك الخلافة الفاطمية بالشام . فتعطلت الحياة الاقتصادية . منذرة بوقوع مجاعة مهلكة ، لهذا أسرع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل العباسيين — إلى عقد اتحاد بين الموصل وحلب واستطاع به أن يهزم الصليبيين فى « الرها » ولما وافته منيته سنة ٥٤١ هـ . سار ابنه « نور الدين زنكى » على سياسته فى العمل على وحدة المسلمين فاستطاع توحيد جميع أقاليم الشام . ثم خطا خطوة جريئة فى سبيل الوحدة فأسقط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ بفضل همة قائده العظيم « صلاح الدين الأيوبى » وأمر بذكر اسم الخليفة العباسى على منابر مصر . إذ لم يكن من المستطاع جمع كلمة المسلمين . وبالتالى هزيمة الصليبيين إلا بسقوط إحدى الخلافتين الكبيرتين — الفاطمية أو العباسية — إذ كان الاتحاد بينهما مستحيلا بسبب التنافس السياسى التقليدى . ثم بسبب الخلاف المذهبى بين الشيعة وأهل السنة . الذى زال بمجرد اتحاد المسلمين تحت راية صلاح الدين ضد الصليبيين (دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية : ص١٩٩) .

قبل كل شيء ، ثم هم بعد ذلك يمدون أيديهم إلى المشرق الإسلامى بالعون والحماية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا[١] . طلباً لنظرية المهدوية التى تهدف إلى ملء الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ، وقد حملت الجيوش الموحدية لواء الجهاد بالأندلس ابتداء من سنة ٥٤١ ﻫ كما أسلفنا . واستطاع عبد المؤمن أن يضم مملكة الحماديين إلى مملكته سنة ٥٤٧ ﻫ حماية لها من النصارى النورمان الذين زحفوا على الساحل الأفريقى شرقاً وغرباً .

وفى سنة ٥٥٤ ﻫ بدأ ينظم حملته القوية لطرد النصارى نهائيًّا من شمال أفريقيا . وقد سنحت الفرصة لدى عبد المؤمن ، إذ ثارت الولايات الإسلامية على الحكم النورماندى . منتهزة فرصة موت الملك « روجار » النورماندى وتولية ابنه « وليم » أو « غليالم » كما يسميه مؤرخو العرب وكان « وليم » هذا لايتمتع بصفات أبيه من الشجاعة والحزم . فثارت عليه الثغور الأفريقية . وابتدأت جزيرة « جربة » بالثورة ونبذ طاعة النصارى ، ثم تلتها مدينة « صفاقس » التى قاد واليها « عمر بن أبى الحسن » ثورتها بنفسه . وأمر بقتل

---

(١) كان خلفاء الموحدين يأملون أن يستولوا على العالم الإسلامى . وفى ذلك يقول عبد السلام الجراوى مادحاً الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

ستملك أرض مصر والعراقا ... وتجرى نحوك الأمم استباقا

ويمدح الشاعر المذكور الخليفة يعقوب المنصور قائلا :

سينظم السعد مصراً فى ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذى كانت الدنيا تؤمله ... وكل بمصر له ما زال مرتقبا

وكثيراً ما صرح يعقوب المنصور هذا برغبته فى فتح مصر . وفى هذا يقول المراكشى : « بلغنى من غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى الشرق وجعل يذكر البلاد المصرية ، وما فيها من المناكر والبدع ويقول – أى يعقوب المنصور – نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات – رحمه الله – فى صدر سنة ٥٩٥ ﻫ » (المعجب ص ١٨٨) .

جميع النصارى ببلده فأبيدوا عن آخرهم . وذلك سنة ٥٥١ هـ[1] ثم قام الشيخ أبو يحيي بن مطروح بالثورة بمدينة « طرابلس » وأسر جميع الحامية النصرانية سنة ٥٥٣ هـ ، وكذلك فعلت مدينة « قابس » ثم قام جيش الموحدين « ببجاية » بانتزاع « بونة » من النصارى . وبذلك لم يبق بأيدى النصارى سوى مدينة « المهدية » . و« سوسة » وفضلا عن هذا ، فقد وفد على « عبد المؤمن » بمراكش وفد كبير من هذه الثغور يستغيثون به . ليرد عنهم انتقام ملك صقلية النورماندى . الذى يعدهم بالشر وسوء المصير لثورتهم على حكمه .

وفى فاتحة شوال سنة ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨) غادر الخليفة عبد المؤمن مدينة « مراكش » مستخلفاً عليها ابنه الأمير « علياً » والشيخ « أبا حفص » « عمر بن يحيي الهنتانى » كما استخلف على « فاس » القائد الشهير « يوسف ابن سليمان » . ونزل بمدينة الرباط حيث نظم جيوشه وحيث وفدت عليه جموع غفيرة من رجال القبائل ثم اتجهت هذه الجيوش الكثيفة إلى المشرق فى شهر صفر ٥٥٤ هـ فوصلت إلى مدينة «تونس » فى جمادى الثانية من السنة المذكورة آنفاً . وكان الأسطول الموحدى يحاذيها بالبحر الأبيض بقيادة « أبى عبد الله بن ميمون » فطلب عبد المؤمن من التونسيين أن يدخلوا فى طاعته صلحاً فأبوا ، وكان على رأسهم حاكمها « أحمد بن خراسان » فابتدأ الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة . ولما أقبل الليل ، اتصلت طائفة من أعيان المدينة بالخليفة عبد المؤمن طالبة الأمان . فقبل أن يمنحهم الأمان فى أنفسهم وأهليهم فقط . أما الأموال والأملاك فتكون بالنصف بين الموحدين

---

(١) كان الملك « روجار » قد ولى عمر بن الحسن على « صفاقس » وأخذ والده « الشيخ أبا الحسن القريانى » رهينة عنده لكى لايحيد عمر عن طاعته، ولكن الشيخ أبا الحسن . قد أرسل سرًّا إلى ابنه بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم نير النصارى . ولا يبالى بمصير أبيه . وعندما خرج « عمر بن الحسن » على النصارى عمدوا إلى شنق والده الشيخ وهو يتلو القرآن الكريم (رحلة التيجانى ص ٧٥) .

والتونسيين . فقبلوا . . ثم عرض عبد المؤمن على النصارى واليهود الإسلام أو القتل ، فاعتنقوا الإسلام . ثم غادر عبد المؤمن مدينة تونس ، واتجه إلى المهدية لمناجزة النصارى ، فوصل إليها بجيوشه وأساطيله فى رجب سنة ٥٥٤ هـ (أغسطس ١١٤٩ م) ولم تكن مدينة المهدية يسيرة المنال ، إذ كانت تضم بين جناحيها حامية فرنجية قوية ، كما كان يسكنها الكثير من أشراف النصارى وفرسانهم ، بالإضافة إلى حصانتها الطبيعية فالبحر يحميها من ثلاث جهات ، وأسوارها غاية فى المتانة والقوة[١] ، وكان بها من الأقوات والمعدات الشئ الكثير .

وحين شعر النصارى باقتراب الموحدين من المهدية ، أخلوا « زويلة » – ضاحية المهدية الشمالية – وأمروا سكانها بدخول المهدية ليتحصنوا بها فأسرع عبد المؤمن إلى احتلال « زويلة » التى امتلأت بالموحدين ، والعرب والصنهاجيين وابتدأ الموحدون ينازلون النصارى بالمهدية ، ويحاولون اقتحامها على غير طائل لشدة مناعتها ، وقوة حصانتها ، وكان النصارى يخرجون لمقابلة الموحدين بين الحين والآخر . فينالون منهم ، ويعودون سريعاً إلى مدينتهم متحصنين بها . . فأدرك عبد المؤمن أنه لاسبيل إلى اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وأن السبيل إلى الانتصار على النصارى لايكون إلا بحصار المهدية والصبر والمطاولة ، وأمر بجمع الأقوات الضرورية لهذا الحصار الطويل . ثم حول جزءاً من جيشه إلى فتح البلدان والثغور التى لايزال بها النصارى . فاستطاع فى مدة قصيرة أن يفتح طرابلس ، وقابس ، وبلاد الجريد (وهى توزر ، وقفصة ، والحامة ، ونفطة) .

---

(١) يقول المراكشى : « فنزل عبد المؤمن عليها – أى المهدية – فحاصرها أشد الحصار . وهى من معاقل المغرب المنيعة ، لأن بنيانها فى غاية الإحكام والوثاقة . بلغنى أن عرض حائط سورها يمشى ستة أفراس فى صف واحد ولا طريق لها من البر إلا من باب واحد . والبحر فى قبضة من فى البلد . وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً . . ثم افتتحها عبد المؤمن رحمه الله بعد أن أمن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد . (المعجب ص ١٤٨)

ثم فتح جبال نفوسة . وأخرج النصارى إلى بلادهم [١] وكان لأخبار فتوحه هذه ، وطول الحصار على المهدية أثر كبير فى زعزعة إيمان النصارى المحاصرين فى إمكان بقائهم بالمهدية على الرغم من أن الملك « وليم » قد أرسل إلى المهدية أسطولا ضخماً لإنقاذها . وأنه كان على استعداد للاستمرار فى إرسال الإمدادات. ولكن هزيمة هذا الأسطول على يد قائد الأسطول المغربى « أبى عبد الله بن ميمون » قد ملأ النصارى يأساً . لهذا قرروا أن يتصلوا بالخليفة عبد المؤمن . ليطلبوا الأمان وينسحبوا . فأرسلوا عشرة فرسان ليفاوضوا عاهل الموحدين . فى أن يؤمن النصارى على أرواحهم فقبل . وأمر بتجهيز السفن الموحدية لنقل النصارى إلى بلادهم سالمين . وكان قراراً حكيماً . إذ كان « وليم » ملك صقلية قد قرر أن يقتل جميع المسلمين ببلاده إذا أقدم عبد المؤمن على الفتك بنصارى المهدية .

ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية ظافراً [٢] فى يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير ١١٦٠ م) [٣] . وظل عبد المؤمن بمدينة المهدية نحو عشرين يوماً ، يرتب أمورها . وندب لولايتها أبا عبد الله بن محمد بن فرج الكومى ومعه ملكها السابق « الحسن بن على الصنهاجى » .

---

(١) وجاءت وفود هذه الثغور والبلدان إلى عبد المؤمن (وهو يحاصر المهدية) مقدمين طاعتهم ، وولاءهم للدعوة الموحدية . وألقى شاعر « قفصة » الفقيه . محمد ابن أبى العباس التيفاشى . بين يدى عبد المؤمن قصيدة كان مطلعها :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فطرب الخليفة لسماعه لقب خلافته . وأشار على الشاعر بأن يقتصر على هذا المطلع ومنحه ألف دينار (القرطاس ح ٢ ص ١١٢) .

(٢) ويقول المراكشى معلقاً على انتصار عبد المؤمن : « فمحا الله به الكفر من أفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ، فانتبه بها الدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله ، إلخ (المعجب ص ١٤٩) .

(٣) (الحلل الموشية ص ١١٧ – ١١٨ روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٠ – ١٦١ . والاستقصا ج ١ ص ١٥٥ .

ولا شك أن انتزاع المهدية من النصارى ، وتطهير أفريقيا الشمالية منهم على يد « عبد المؤمن بن على » يعتبر من الأعمال الخالدة التى قام بها عبد المؤمن لخدمة دينه وعروبته .

وفى أثناء عودته إلى المغرب ، وقعت بينه وبين العرب الهلالية مناوشات . حاول بعدها أن يجذبهم إلى جيوشه لينتفع بهم فى غزو نصارى الأندلس . وينسبون إليه قصيدة قالها مستنفراً بها هؤلاء العرب إلى غزو نصارى الأندلس جاء فيها :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدوا على الأعداء شدة صائل

فما العز إلا ظهر أجرد سابح ... يفوت الصبا فى شده المتواصل

وأبيض مأثور كأن فرنده ... على الماء منسوج وليس بسائل

* * *

ومنها :

بنى العم من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابن باسل

تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية ... عواقبها منصورة بالأوائل

هى الغزوة الغراء والموعد الذى ... تنجز من بعد المدى المتطاول

بها تفتح الدنيا بها يبلغ المنى ... بها ينصف التحقيق من كل باطل

(المعجب ص ١٤٥ — ١٤٦)

جـ ــ عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق

أرسل الخليفة عبد المؤمن إلى ولديه : « أبي يعقوب يوسف » ــ والى أشبيلية ــ « وأبي سعيد عثمان » ــ والى غرناطة ــ بأخبار انتصاره على الصليبيين بشمال أفريقية، وبفتح مدينة المهدية ، وبرغبته فى العبور إلى الأندلس . ولتحقيق هذا كلفهما بإنشاء مدينة بجبل طارق لتكون (كما يقول ابن صاحب الصلاة) : « منزلا عند إجازة العساكر المنصورة ، ومحلا ريثما تتقدم الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم »[(١)] . فصدع الأميران بالأمر ، واجتمع جميع ولاة الأقاليم الموحدية بالأندلس ، وتشاوروا فى سرعة تنفيذ بناء المدينة وذلك بتوجيه جميع الصناع والعمال والمهندسين إلى جبل طارق لإنجاز هذه الرغبة فى أقرب وقت ممكن . « فأحكم البناءون بناء القصور والديار ، واخترعوا فى أسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض . . . والفعلة يجتهدون فى أعمالهم قدر طاقتهم . فظهر البناء فى أقرب مدة[(٢)] ... « ولم يتجاوز إنجاز مدينة جبل طارق أكثر من سبعة أشهر . . إذ ابتدئ فى بنائها فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ، وحضر عبد المؤمن لافتتاحها[(٣)] . فى ذى القعدة من السنة المذكورة . ويقول ابن صاحب الصلاة عن عبور عبد المؤمن : « وبرز إليه ــ أى عبد المؤمن ــ يوم إجازته ــ عبوره ــ البحر من الناس النظارة على سيف البحر ، عالم

---

(١) المن بالإمامة على المستضعفين : (مخطوط) ورقة ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٧ .

(٣) يقول المراكشي : « فسار عبد المؤمن » حتى نزل مدينة « سبتة » فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق . وسماه هو جبل الفتح . ووفد عليه فى هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة . . . وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفى مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ، مالم يجتمع لملك قبله . (المعجب ص ١٣٧) .

لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، مالم يتقدم فى سالف الأزمان ، ولا تخيل مرآه فى الأذهان[١]..

« وقد جمع ولاة الأندلس وأعيانهم وعلماؤهم وأدباؤهم لاستقبال الخليفة عبدالمؤمن ولما استقر بالخليفة المقام أمر وزيره وابنه السيد الأعلى — الأمير — أبا حفص أن يجمع الوفود من كل البلاد ، وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالى للسلام ولتجديد البيعة الكريمة ، وتقبيل اليد المباركة ... فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة ، وتكلموا كلاماً إقراراً بالطاعة[٢]... إلخ . وتقدم الخطباء والفقهاء فبينوا للناس حقوق البيعة ولزومها ، وارتباطها بالشرع الشريف ، والإثم فى الإخلال بعهودها . وتلاهم الشعراء ، فمدحوا وأجادوا وكان أبرز الأفكار التى اشتملت عليها قصائد هؤلاء الشعراء : الاعتراف بالدعوة الموحدية المهدوية ، وحفز عبد المؤمن إلى القيام بحرب جهادية ضد الصليبيين بالأندلس .

ويذهب المراكشى إلى أن أول من أنشد فى هذا الحفل هو الشاعر المغربى أبو عبد الله محمد بن حبوس[٣] ، ومطلع قصيدته قوله :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا ... وتعلمت أيامه أن تعــدلا

وبحسبه أن كان شيئاً قابلا ... وجد الهداية صورة فتشكلا

وهذا المطلع البارع يقوم على مبدأ المهدى المنتظر ، الذى يملأ الأرض هداية وعدلا — فى زعم الشيعة — وعبد المؤمن هو خليفة المهدى ، وقد بلغ الزمان بهديه ما أمل — فى زعم الشاعر .

ونرى ابن صاحب الصلاة ، قد أغفل ذكر الشاعر ابن حبوس الآنف[٤]

---

(١) المن بالإمامة على المستضعفين ورقة ٢١ .

(٢) المصدر السابق ورقة ٢٣ .

(٣) مدح ابن حبوس السلطان على بن يوسف بن تاشفين . ولما سقط المرابطون مدح عبد المؤمن ثم مدح ابنه يوسف وتوفى سنة ٥٧٥ هـ .

(٤) ربما كان مرد هذا إلى نزعة التعصب الإقليمى ؟

الذكر بين شعراء هذا الحفل التاريخى وجعل أبا بكر بن المنخل الشلبى الأندلسى أول المنشدين . ودون له قصيدة بلغت خمسين بيتاً مطلعها :

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا فإن نسيم النصر بالفتح قد هبا

ومنها :

أقيموا إلى ابن الريق بعض صدورها وليس عليكم أن ترى ضمراً قبا[1]

فإن تبدءوا بالغرب فالفتح واضح وأن نجوم الدين طالعة غربا

ضمان عليكم أن تبيحوا حريمه وأن تكسروا فيها التماثيل والصلبا

ثم أنشد أبو العباس بن سيد الأشبيلى المعروف باللص قصيدة طويلة مطلعها :

غمض[2] عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل[3]

أنى استقر له ، أنى استقل به أنى رأى شصه العالى فلم يزل ؟!

ومنها :

خليفة الله ما جاء الزمان به إلا ليرنو ما فيـــه من الخلل

ملك إذا تشغل الدنيا أخا ترف ألفيته بالمعـــالى جد مشتغـــل

وإن نظرت إليه وهو منفرد رأيت فيه جميع الناس فى رجل

وكم له وقعة فى كل طاغيـــة علت على وقعات الأعصر الأول

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة من قب التمر يقب ، أى يبس . والمقصود الخيل البالغة الضمور .

(٢) أنكر عبد المؤمن هذا الاستهلال . قائلا غمّض غمّض! (صاحب الصلاة ورقة ٢٨) .

(٣) انتقد عبد المؤمن هذا التعبير قائلا : ثقلتنا يا رجل . وأمر الشاعر فأجلس (المعجب ص ١٣٩).

ومنها :

حتى إذا استوسق الأمر العلى له ... بالشرق كر لنصر الغرب فى عجل

أضحى بكـرّته الإسلام فى جذل ... والمشركون وأهل الكفر فى جدل

أبلغ ذوى الشرك والإلحاد قاطبة ... أن مالهم من جنود الله من قبل

ريعوا إلى السلم والإسلام ويحكم ... لاتحسبوا دولة التوحيد كالدول

ثم أنشد الشريف القرطبي المعروف بالطليق قصيدة بلغت خمسة وخمسين بيتاً مطلعها :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب [١] ... كيف المفر وخيل الله فى الطلب ؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة ... إذا رمتــه سماء الله بالشهب

ومنها :

حدث عن الروم فى أقطار أندلس ... البحر قد ملأ العبرين [٢] بالعرب

من كل من يترك الهيجاء فى حلك ... جمر إذا اخضرت الغبراء بالعشب

ومنها :

وطود طارق قد حل الإمام به ... كالطور كان لموسى أيمن الرتب

لو يعرف الطور ماغشاه من كرم ... لم يبسط النور [٣] فيه الكف للسحب

ولو تيقن بأسا حــل ذروته ... لعاد كالعهد من خوف ومن رهب

---

(١) لم يستحسن « عبد المؤمن » أن يهرب منه الأعداء ، فقال حين سماعه هذا الشطر : إلى أين إلى أين ؟ فقال الشاعر : كيف المفر وخيل الله فى الطلب (المعجب ١٣٨) .

(٢) يقصد العدوتين : عدوة المغرب وعدوة الأندلس : اللتين يفصلهما بوغاز جبل طارق .

(٣) النور : زهر الشجر والنبات . والمعنى أن الزهر يستغنى بندى عبد المؤمن عن ماء السحب .

منـــه يعاود هذا الفتح ثانية[١] أضعاف ماحدثوا فى سالف الحقب

ومنها :

سما إلى الشرق الأقصى بهمتـــه دين مريح وعـــز دائم التعب

وحـــين جلى تدلى فوق أندلس وجارح الطير لا ينفك من كثب

فكأن سيفك نقـــاد له بصر نفى الزيوف وأبقى خالص الذهب

إن الجزيرة من طـــول انتظاركم لهـــا بكل طريق لحظ مرتقب

وأنشد الشيخ أبو الحسين عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى قصيدة طويلة مطلعها :

تلألأ من نور الخلافـــة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاســـق

وأشرقت الدنيـــا به فكأنهـــا من البشر فى كل الجهـــات مشارق

ومنها :

ومن جعل التقوى سراجاً لقلبه أضـــاء ولم تحجب لديه الحقائق

ومنها :

فطاف بأرض الكفر حتى أعادها إلى الحق وانقاد الأبى المشاقق

وكر إلى نصر الجزيرة بعـــد ما أتاه مع الركبـــان ناع وناعق

بجيش تضيق الأرض عنه بطولها وترهبـــه لو عاينته العمـــالق

تنام عيون الروم عنـــه وإنمـــا تنـــام وســـعد للخليفة طارق

ولا يزال أمـــر الله للدين سارياً وأنت لدين الكفر ماح وماحـــق

وكان من بين شعراء هذا الحفل الشاعر الشاب « أبو عبد الله محمد ابن غالب المعروف بالرصافى »[٢] أنشد قصيدة طويلة أوردها المراكشى فى اثنين وستين بيتاً ، ومطلعها :

---

(١) الفتح الأول : فتح الأندلس على يد طارق بن زياد . والفتح الثانى : فتح عبد المؤمن إياها .

(٢) هو الوزير الكاتب الشاعر « محمد بن غالب » المعروف بالرصافى وأصله من بلنسية ، وقد هاجر منها واستوطن مدينة مالقة . وجاء يمثل وفدها فى إلقاء قصيدته .

لوجئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لسار ولم تشبب لمقمور

فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلو ظلمة الزور

ومنها :

نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدى مذخور

وآية كآيات الشمس بين يدى ... غزو على الملك القيسى منذور

ومنها :

لله ما جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر فى الأجيال مذكور

تمشى النجوم على إكليل مفرقه ... فى الجو حائمة مثل الدنانير

كفاه فضلا أن انتابت مواطنه ... نعلا مليك كريم السعى مشكور

ما عنّ فى الدين والدنيا له أرب ... إلا تأتى له من غير تعذير

ولا رمى من أمانيه إلى غرض ... إلا هدى سهمه نجح المقادير

حتى كأن له فى كل آونة ... سلطان رق على الدنيا وتسخير

ومنها :

إذا صدعت بأمر الله مجتهداً ... ضربت وحدك أعناق الجماهير

وإنما هو سيف الله قلده ... أقوى الهداة يدا فى دفع محذور

فإن يكن بيد المهدى قائمه ... فموضع الحد منه حد مشهور

وممن أذن لهم بالإنشاد شاعر حدث لم يبلغ العشرين من عمره . هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد[١] . وكان ضمن قومه وفد غرناطة . فألقى بين يدى عبد المؤمن قصيدة رائعة مطلعها :

---

(١) هذا الشاعر . هو سليل بنى سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة وهو أحد مؤلفى كتاب « المغرب » الذى تعاقب فى تأليفه بنو سعيد واختتم تأليفه ابن أخيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد .

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر وما لسواك اليوم نهى ولا أمر

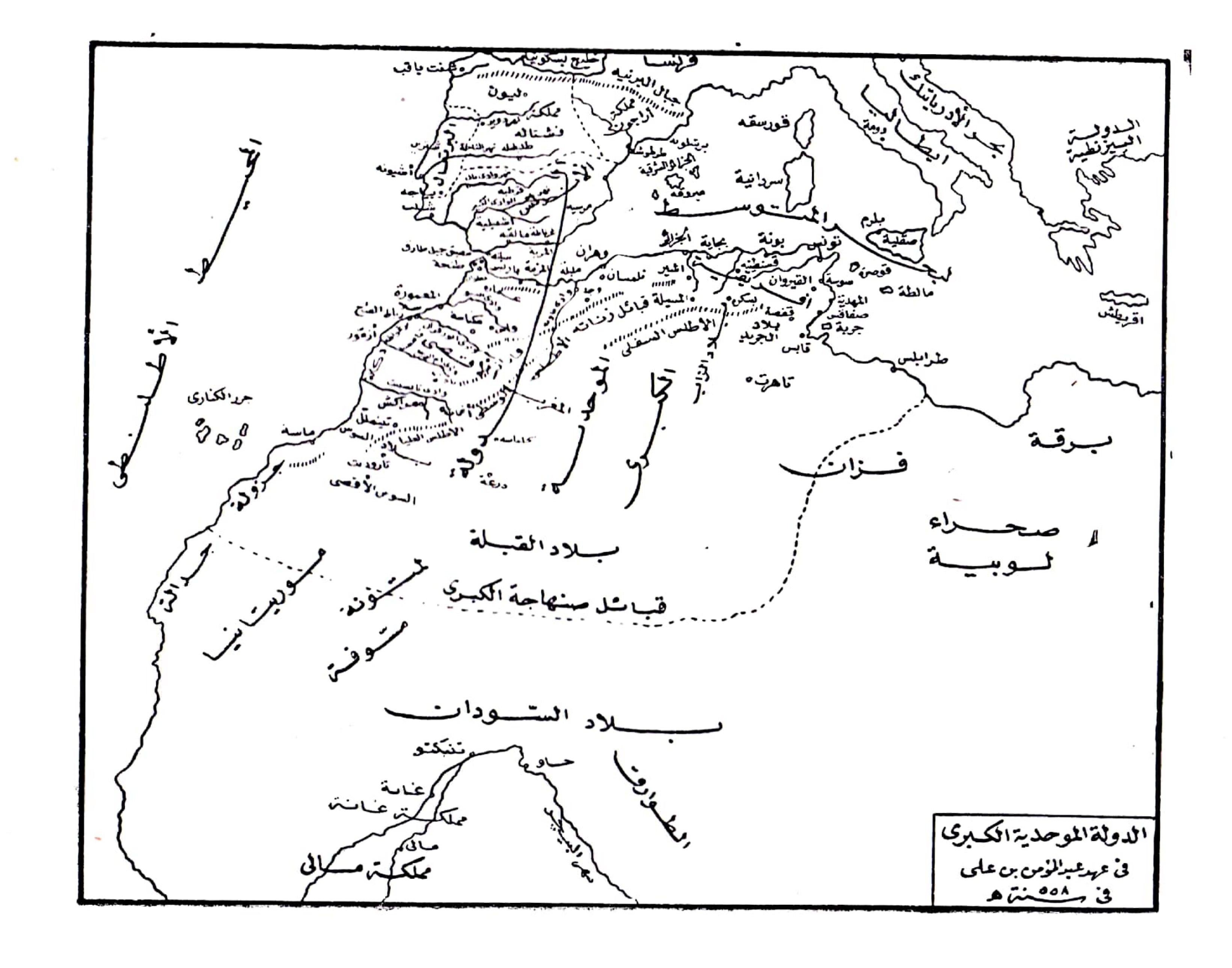
ورم كل ماقد شئته فهو كائن وحاول فلا بر يفوت ولا بحر

ومنها :

أطل على أرض الجزيرة سعدها وجدد فيها ذلك الحبر الخُبْر

فما طارق إلا لذلك مطرق ولابن نصير لم يكن ذلك النصر

هما مهداها لكي تحل بأرضها كما حل عند التم بالهالة البدر


الدولة الموحدية الكبرى
فى عهد عبد المؤمن بن على
فى سنة ٥٥٨ هـ
المحيط الأطلنطى
البحر المتوسط
دولة الموحدين الكبرى
فرنسا
فورسقه
سردانية
صقلية
إيطاليا
بحر الأدرياتيك
الدولة البيزنطية
اقريطش
برقة
فزان
صحراء لوبية
بلاد القبلة
قبائل صنهاجة الكبرى
موريتانيا
لمتونة
مسوفة
بلاد السودان
تنبكتو
غانة
مملكة غانة
مالى
مملكة مالى
الطوارق
طرابلس
تاهرت
قابس
تونس
بونة
بجاية
الجزائر
وهران
تلمسان
القيروان
المهدية
صفاقس
سوسة
مالطة
مراكش
جزر الكنارى
جزولة
حدالة
ماسة

الباب الثالث

النظام الاجتماعى

(ا) حالة الشعب

(ب) نظام الحكم

حالة الشعب فى عهد عبد المؤمن

١

طبقات الشعب

(ا) الطبقية القبلية :

قام المجتمع الموحدى — منذ البداية — على الطبقية . إذ اختار ابن تومرت أعضاء مجالسه الحكومية الاستشارية[1] : من بين أبناء القبائل التى سارعت إلى الاستجابة لدعوته وتأييدها ، ونصرتها . فكان من البديهى أن يكون لهذه القبائل منزلة سامية لدى صاحب الدعوة . ويذكر ابن القطان أن المهدى ابن تومرت «اختص هذه القبائل بكثير من الاختصاص ، وعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم»[2] . وقد عين المراكشى هذه القبائل فقال : « . . . وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم ، وهم الجند والأعوان والأنصار ، ومن سواهم من سائر البربر المصامدة رعية لهم ، وتحت أمرهم ، سبع قبائل : أولاها قبيلة " ابن تومرت " وهى قبيلة تسمى " هرغة " وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين . ثم قبيلة عبد المؤمن وتسمى " كومية " وهى قبيلة كثيرة العدد ، جمة الشعوب ، لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر فى رياسة ، ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب فلاحة ، ورعاة غنم ، وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن

---

(١) هذه الهيئات هى مجلس العشرة ، وكانوا بمثابة الوزراء . ومجلسا الخمسين والسبعين ، وكانا بمثابة مجلس الأمة فى عصرنا الحاضر .

(٢) ابن القطان : نظم الجمال (مخطوط) : ورقة ٣٣ . إعداد الدكتور محمد على مكى .

والحطب[١] ، وسوى ذلك من سقط المتاع ، فتبارك المعز المذل ، المعطى المانع ، فأصبح القوم اليوم ، وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ، ولا تطاول أيديهم يد، لكون عبد المؤمن منهم . . ثم أهل تينمل، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ، ثم هنتاتة، وهى أيضاً قبيلة ضخمة جداً ، وفى بعضها رياسة وشرف فى الدهر القديم . . . ثم كنفسية ، وهى قبيلة عزيزة منيعة . . . ثم كدميوة ، وليست كلها بل بعضها رعية . ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ، ثم بعض قبائل هسكورة»[٢] ثم يزيد المراكشى قائلا : « فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء ، وتجمعهم الجيوش ، وينفرون فى البعوث . وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم »[٣] . ويؤخذ من النص أن الشعب طبقتان . قبائل موحدية لها السلطان . ورعية هى باقى القبائل البربرية التى تؤلف أغلبية الشعب الساحقة . ولسنا نوجه شيئاً من الملامة إلى صاحب الدعوة الموحدية . فما كان إكرامه لتلك القبائل التى آزرته وناصرته فى وقت المحنة محلا للمؤاخذة، والإنسان بفطرته مجبول على أن يكرم من ينصره ويخلص له، على أنه من المحتمل أن ابن تومرت لو قدر له أن يعيش ويحكم المغربين وأفريقية وأغلب ليبيا والأندلس على نحو ماقدر للخليفة عبد المؤمن ، لعمد إلى المساواة بين الناس، ولما لجأ إلى فرض هذا النظام الطبقى الذى أكده عبد المؤمن حين اختص أبناء هذه القبائل السبع بالوظائف الكبرى ، وقصر التعليم العالى على النابهين من أولادهم إذ أنشأ عبد المؤمن مدرسة للبحرية ، ومدرسة لتخريج الموظفين ، واختار طلابها

---

(١) يقصد اللبن (بكسر الباء) وهو مايعمل من الطين ويبنى به إذ كان قوم عبد المؤمن معروفين بصناعته وبيعه .

(٢) المعجب ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق — ص ٢٢٦ .

من أبناء الموحدين [١] . ومن هنا استأثرت هذه القبائل بأكبر قسط من السلطان والنفوذ ، واحتلت — فى بادئ أمر الدولة — معظم المناصب الرئيسية كالوزارة والولاية والقيادة . فأصبحت — عمداً أو عفواً — طبقة شعبية ممتازة آمرة ناهية ، وأضحى الشعب الكبير فى المغرب والجزائر وأفريقية وليبيا والأندلس رعية لها . بل كان صوتها فى بعض الأحيان يسكت صوت عبد المؤمن نفسه ، وقد لاحظنا ذلك فى أمرين : الأول حين قتل ابن أحد صحابة المهدى أخا عبد المؤمن (بأحواز تلمسان) وطالب عبد المؤمن بالقصاص من القاتل فأجبر رجال القبائل عبد المؤمن على التنازل عن دم أخيه لأن القاتل ابن أحد صحابة المهدى . . . والثانى حين استولى الجيش الموحدى على مراكش وأسر السلطان الصغير إبراهيم بن تاشفين ، وأبدى عبد المؤمن رغبته فى الصفح عن السلطان الصغير الذى لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، والذى كان مغلوباً على أمره . فأبى عليه القائد الموحدى « أبو الحسن بن واجاج » هذه الرغبة الكريمة ، ونفذ حكم الإعدام فى السلطان الصبى ضارباً برأى الخليفة عرض الحائط [٢] . وقد كان عبد المؤمن يدرك تماماً تجاوز هذه القبائل حدود المعقول ، ولكنه كان إزاءها يتحصن بالصبر وضبط النفس . لأنه غريب ، ليس له قبيلة تحميه ، ولأنه يعرف مدى أهمية هذه القبائل فى صون الدعوة وتشييد صرح الدولة ، ثم فى إطفاء الثورات الداخلية التى اشتعلت فى أنحاء المغرب ضد الحكم الموحدى

---

(١) ذكر صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن كان ينشئ الحفاظ (التلاميذ) على حفظ كتاب موطأ المهدى ابن تومرت (وهو سوى موطأ مالك) وكتاب أعز مايطلب للمهدى . وغيرهما من تآليف ابن تومرت ثم يأخذهم يوما بالعوم فى بحيرة صنعها خارج بستانه ، وكانت سعتها ثلاثمائة باع مربع ويأخذهم يوماً آخر بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمى بالقوس . ثم يجتمع بهم فى أيام الجمع من كل أسبوع وكان هؤلاء التلاميذ من أولاد المصامدة وغيرهم وهم متساوون فى العمر كأنهم أبناء ليلة واحـــدة . الحلل ص ١١٤ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٤ ، البيان المغرب قسم ٣ ص ٢٤ .

الذى يناهض مذهب مالك . وظلت هذه الثورات تقوم ويخبو أوارها حتى سنة ٥٤٩[١] هـ . ولما استقرت الأمور شيئاً ما . عمد عبد المؤمن إلى القيام بعدة أمور قصد السيطرة التامة على هذه القبائل وتقليل نفوذها : منها أنه اختار ابنه الأكبر ليكون وليًّا للعهد ، ثم عين أبناءه الآخرين ولاة للأقاليم[٢] . وكان عبد المؤمن يعلم قبل غيره أن هذا الإجراء يناقض مبادئ الدعوة الموحدية التى قامت على الشورى . فكان عمله هذا أول خطوة فى سبيل نقض المبادئ التومرتية ، فلما اعترضت قبيلة « هرغة » على هذا الإجراء . وبدأت تفكر فى التآمر على حياة « عبد المؤمن » قابلها عبد المؤمن بالصرامة والحزم وقتل قائدها الشهير « يصلاتن بن المعز الهرغى »[٣] ثم قتل أخوى المهدى . عبد العزيز وعيسى[٤] . وقد انتهز الثوار فرصة هذا الشقاق الذى نزل بقبائل الموحدين ، فقامت الثورة بجنوب بلاد السوس ضد مبادئ ابن تومرت وارتدت قبيلة « جزولة » عن التوحيد وتبعتها قبيلة « لمطة » ثم قبيلة « ايت ييغر » . ولقد اعترى عبد المؤمن كثير من القلق على مصيره ، ولاسيما أن هذا الاضطراب نشأ من قيامه بتولية ابنه ولاية العهد . وإيثار بقية أبنائه بحكم الأقاليم . لذلك جمع جيشاً جراراً وجعل على قيادته رئيس شيوخ القبائل الموحدية « الشيخ أبا حفص عمر الهنتاتى » وألحق به الكثيرين من القادة المشهورين أمثال « وسنار » و « عبد الله ابن أبى بكر بن ونكى » و « عبد الله بن فاطمة » و « عمر بن ميمون »

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) القرطاس ج ٢ ص ١٥١ .

(٣) يصلاتن أو يصلاسن بن المعز الهرغى هو من أقرباء المهدى . ومن أهل الدار وله نشاط عظيم فى كسب المعارك ضد المرابطين . ثم ضد الثوار الذين قاموا ضد الموحدين بعد استيلائهم على الملك (القرطاس ج ٢ ص ١٥٣) .

(٤) يذكر ابن عذارى أن عبد العزيز وعيسى أخوى المهدى ، قد قتلا ضمن من قتلوا من الخوارج على عبد المؤمن ، فقتل عيسى بباب الدباغين بمراكش وقتل عبد العزيز بباب أغمات بمراكش أيضاً (البيان المغرب — قسم ٣ ص ٣٨) .

واستطاع الجيش الموحدى الكبير أن ينزل الهزيمة بالثائرين . وأن يعود بالكثير من السبايا والغنائم ، حتى كان نصيب الخليفة عبد المؤمن – على حد تعبير البيدق – ثمانمائة ناقة[1] . .

والإجراء الثانى – الذى قام به عبد المؤمن للحد من غلواء القبائل الموحدية السبع – أنه بعد اطمئنانه إلى مقدرة خريجى المدرسة العامة للموظفين ، آثرهم بالوظائف الهامة ، وعزل بهم شيوخ القبائل الآنفة الذكر ، قائلا لهذه الطائفة : « العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم » فتنازل كثير منهم عن مناصبهم ، للعلماء عن طيب خاطر . وكان هؤلاء العلماء قد أخذوا بقسط من دراسة إدارة حكم الأقاليم ، ومزاولة شئون الدولة المختلفة[2] فأحسنوا عملهم وتنفس الشعب الصعداء من غلظة حكام القبائل . الذين فهموا الحكم ، على أنه نوع من الغطرسة والاستعلاء . .

ثم اتخذ عبد المؤمن خطوة وقائية لحماية نفسه ، وتأمين مستقبل ذريته ، بعد أن رأى القبائل الموحدية تنظر نحوه بعيون غادرة[3] فأحضر قبيلته كومية من الجزائر[4] ، وقرب أبناءها من نفسه ، وجعلهم بطانته يركبون خافه ويقفون

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص١١٧ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ .

(٣) اكتشف عبد المؤمن مؤامرة على حياته ، قام بتدبيرها رجال قبيلة « هرغة » انتقاماً لمقتل أخوى المهدى ، والقائد يصلاتن الهرغى ، وحقداً على « عبد المؤمن » الذى استأثر بثمرة الدعوة الموحدية فى جعل الملك وراثياً فى ذريته (القرطاس ج ٢ ص ١٦٢) .

(٤) أخذ « عبد المؤمن » يتصل بزعماء قبيلته « كوميه » سراً . واتفق معهم على أن يقدموا عليه بمراكش . وأن يركب كل من بلغ الحلم منهم ، وأن يأتوا فى أحسن زى ، وأكمل هيئة وعدة ، و بعث إليهم بالأموال الطائلة والكسى الفاخرة ، فاجتمع منهم أربعون ألفاً . ثم أقبلوا على عبد المؤمن بمراكش للخدمة بين يديه وشد أزره ، فارتاع أهل المغرب لدخولهم المفاجئ وقد تجاهل عبد المؤمن ، وأبدى دهشته لمجيئهم وأخذ يستفسر عن سبب قدومهم . ثم أمر الشيخ أبا حفص عمر الهنتاتى أن يخرج إليهم ، ليتعرف أخبارهم وعند لقائه إياهم سألهم . أسلم أنتم أم حرب ؟ . فقالوا : « بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير =

على رأسه ، ويمشون بين يديه ، وهكذا ثبت عبد المؤمن النظام الملكى الوراثى فى ذريته وحماه من كيد الكائدين . ولنا الآن أن نتساءل أكان النظام الشورى — الذى سار عليه ابن تومرت — خيراً للشعب أم هذا النظام الملكى الوراثى الذى أقامه « عبد المؤمن » على الرغم من مخالفته لنظام الدعوة . . ؟ .

ربما كان النظام الملكى أدعى إلى استتباب الأمر ، وقطع دابر الحروب الأهلية ، التى تنشأ عادة بين القبائل طلباً للسيادة . ولكن الذى لاشك فيه أن الدعوة الموحدية المهدية قد أخذ عودها يذبل على يد خلفاء عبد المؤمن ، الذين لم يكتفوا بإهمالها . بل سخروا بها وحاربوها .

= المؤمنين ، عبد المؤمن بن على الكومى » نحن كومية الزناتيون . . فأمر عبد المؤمن قبائل الموحدين أن تستقبلهم وأن تحتفل بهم . فكان يوم دخولهم مراكش من أعياد آل عبد المؤمن. ثم رتبهم عبد المؤمن فى المرتبة الثانية بين القبائل الموحدية .

(القرطاس ج ٢ ص ١٦٥ — ١٦٦) .

ب – الطبقية المذهبية

كانت كلمة « الشعب »[١] تطلق على جميع القبائل والطوائف والأفراد الذين يقطنون بمملكة الموحدين الكبيرة بالمغرب : الأقصى والأوسط ، والأدنى والأندلس ، باستثناء القبائل الموحدية السبع ، صاحبة النفوذ والسلطان[٢] تلك التى أشرنا إليها آنفاً .

ولم يكن هذا الشعب يتمتع بالمساواة ، فقد قصر « عبد المؤمن » وظائف الدولة ، والتعليم الرسمى الموصل إلى هذه الوظائف ، على الذين انخرطوا فى سلك الدعوة الموحدية دون سواهم[٣] ، وربما لجأ عبد المؤمن إلى هذا ليغرى الشعب المالكى بالدخول فى دعوة الموحدين ، ولكن هذا الشعب – فى عمومه – شعب قبلى لا تعتمد حياته على الوظائف . ولا يكترث بها ، ومن ناحية التعليم ، فقد كانت حريته مكفولة لجميع طبقات الشعب[٤] فكان للمالكية مناهجهم التى لم تنطفئ شعلتهـــا فى الكتاتيب والمساجد والزوايا والرباطات ، ومكتباتهم العريقة المليئة بمختلف أنواع المعارف الدينية واللغوية وغيرها .

ولم تستطع مبادئ الموحدين أن تزحم مبادئ المالكية ، فالشعب جميعه

---

(١) أو الرعية كما يعبر المراكشى (المعجب ص ٢٢٥) .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٤) وكان ذلك مقترناً بحرية الرأى : فكان العلماء يكتبون الكتب التى تطعن فى حكومة الموحدين ، وفى المبادئ التى تقوم عليها . ومن هؤلاء الكاتب القرطبى عبد الملك ابن أياس ، وكان موقف عبد المؤمن من مثل هذه الحالات أن يأمر بعض علماء الموحدين بالرد على المنتقدين وكان هناك حرية اختيار الأستاذ على نحو ما كان متبعاً بالأزهر للشريف إلى عهد قريب (انظر كتاب تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٥٤ ، وصلة الصلة رقم ١٢٦) .

– مالكية وموحدون – كان يسير فى أمور الفقه على مذهب مالك – رضى الله عنه – فأما مبادئ الموحدين التوحيدية . فهى مبادئ كلامية لا يدركها إلا الخاصة . والشعوب – غالباً – تؤمن بالعاطفة والقلب ، لا بالعقل والجدل ، كما أنه من غير الممكن أن تحمل بالقوة على اعتناق ما لا تريد .. والموحدون أنفسهم – إذا استثنينا عدة أفراد لم يلتفوا حول ابن تومرت بطريق الجدل الكلامى . بل بطريق فكرة المهدى المنتظر التى كثيراً ما يرددها العوام ، ويتمنون معها ظهور المهدى ، الذى سيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت ظلماً ، ويعيد قوة الدين . ويصلح العالم ، ويعم الخير الأرض فى عهده ، وينقطع الشقاء فى الدنيا بعد ظهوره ، هذا إلى أن ابن تومرت – صاحب الدعوة الموحدية – قد انتصر بقبيلته الكبرى التى ألفت جيشه ، وشدت أزره ، وأقدرته على القتال ضد الدولة المرابطية العتيدة .

والمالكية – وهم سنيون سلفيون – يرون أن المهدوية خرافة . إذ ليس لها سند من القرآن أو الحديث الصحيح[١] . .

لهذا عجز مذهب الموحدين بشقيه : التوحيدى[٢] والمهدوى[٣] ، عن مغالبة مذهب مالك ، وأضحت الدعوة الموحدية – بعد استقرار الدولة الموحدية – فى شبه جمود . إذ فترت الدعاية للدعوة بعد أن وصل الموحدون إلى تحقيق مأربهم فى إقامة الدولة .. ولم يكن فى طبيعة مبادئ الدعوة ما يدفعها إلى الأمام من قبيل نفسها . كما أشرنا آنفاً .

ولقد شعر عبد المؤمن بخطورة جمود الدعوة الموحدية ، وعدم قدرتها الذاتية على الذيوع والانتشار على الرغم من إغرائه من ينضم إلى الموحدين

---

(١) من أعظم المراجع التى عرضت للأحاديث المردودة فى المهدى المنتظر مقدمة ابن خلدون من ص ٢١١ – ٢٢٣ .

(٢) باعتبار الموحدين اعتنقوا المذهب الكلامى القائم على تأويل المتشابه .

(٣) باعتبار الموحدين قد آمنوا بنظرية المهدى المنتظر ، إذ ادعى ابن تومرت المهدوية .

بالمناصب والتعليم المجانى ، فقام بخطوة فى سبيل إضعاف سيطرة مذهب مالك على نفوس الشعب . إذ أصدر أوامره « بإصلاح المساجد وبنائها فى جميع بلاده ، وتغيير المنكر ، وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث ، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة » وفى هذا النص الذى ذكره ابن أبى زرع[١] . وأشار إليه المراكشى[٢] ونقله السلاوى[٣] عنهما . ملاحظات خليقة بالاعتبار . منها أن عبد المؤمن ابتدأ هذا القرار الخطير – الذى بدا فيه مجتهداً فى الفقه – بإصلاح المساجد وبنائها . ثم بتغيير المنكر ، وفى هذا البدء ، ما يهدئ النفوس ، ويثلج الصدور ؛ ثم يذكر بيت القصيد من أمره . وهو تحريق كتب الفروع . ورد الناس إلى قراءة الحديث فى نهاية الأمر .

ومنها أنه أناط الطلبة (العلماء) بتنفيذ الأمر دون الولاة ورجال الجيش . ليجس بذلك نبض المالكية بطريق الإقناع حتى يجنب نفسه عواقب الثورات المسلحة التى ربما يشعلها المالكية ضده فى أنحاء البلاد . ومنها أن تأخير أمره بتحريق كتب الفروع إلى نهاية الرسالة ، ما يشعر بأنه يخشى عاقبة التنفيذ وبالتالى ما يوحى إلى العلماء بالكف عن التنفيذ إن صادفوا تذمراً من المالكية .

ويبدو أن هؤلاء الطلبة الموحدين لم يستطيعوا القيام بتنفيذ رغبة الخليفة عبد المؤمن . ولم تحرق كتب الفروع فى عهد عبد المؤمن ولا فى عهد يوسف بن عبد[٤] المؤمن . وإنما قام بالتنفيذ الخليفة يعقوب

---

(١) القرطاس ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) المعجب ص ١٨٥ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤) لم يقم « يوسف بن عبد المؤمن » بعمل ضد كتب المالكية ، ولكنه أبدى استياءه الشديد لكثرة الأقوال الواردة فى الحكم الواحد ، لأن هذا من شأنه أن يضلل الناس فى أمر عبادتهم . فيذكر المراكشى ، أن الحافظ أبا بكر بن الجد قال : « لما دخلت على =

المنصور[١] حفيد عبد المؤمن وكان « يعقوب » هذا يرمى إلى محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحـــدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث[٢] .

وانتهت هذه المعركة الفقهية بوضع فقه على أساس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فظن الخليفة يعقوب المنصور ، أنه بهذا قضى على الفقه المالكى ، ولم يكن فقه الموحدين الجديد سوى فقه مالك — بعد حذف الأسانيد وآراء الفقهاء .. ثم أقبل الناس على حفظ الفقه الجديد ، ولكن فقه مالك هو الذى يسير الناس عمليًّا على هديه . والفقهاء المالكية لم يغمطهم

= أمير المؤمنين أبى يعقوب (يوسف عبد المؤمن) أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى فقه مالك) فقال لى يا أبا بكر : أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله . أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ، وأيها يجب أن يأخذ به المقلد . فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى — وقطع كلامى — يا أبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف . أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه — أو السيف ! ! (المعجب ص ١٨٥) .

(١) يذكر المراكشى ، أن يعقوب المنصور (حفيد عبد المؤمن) أنزل بكتب مذهب مالك محنة كبرى ، فانقطع فى أيامه تعليم كتب الفروع ، وخافه علماء المالكية ، وأحرق كتبهم — بعد أن يجرد ما فيها من حديث وقرآن — وقد أحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس . ونوادر ابن أبى زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب . وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها . ويقول المراكشى عن مشاهدته هذه المحنة : « لقد شهدت عنها — وأنا يومئذ بمدينه "فاس" — يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار وأمر يعقوب المنصور بعدم الاشتغال بعلم الرأى وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة . ثم أمر المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين ، والترمذى والموطأ ، وسنن أبى داود — وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى والأحاديث التى جمعها ابن تومرت فى الطهارة) فجمع المحدثون ما أمرهم به ، فكان يمليه بنفسه على الناس . ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الشعب قيد أنملة من مظاهر الإجلال والإكبار ، ثم يحدث الله بعد ذلك أمراً ، يغير الحال تماماً وهو أن « يعقوب المنصور » نفسه ، أخذ ينقد مبادئ المهدوية ، ويعلن عدم اعترافه بالعصمة والإمامة[١] . فتحدث هذه الآراء دوياً هائلا : ويرتاب الناس — بعد خليفتهم — فى مهدوية ابن تومرت ثم يبتدئ المالكية فى استعادة مكانتهم ، ثم يحكم المغرب الخليفة المأمون[٢] — أحد أبناء يعقوب المنصور — بعد أبيه بثلاثين سنة فيصعد المنبر ويعلن على الملأ إلغاء أسطورة المهدوية ، ومحو عبارات التنويه بالمهدى المنتظر من الخطبة . ومما قاله فى هذا : « لا تدعوه بالمهدى المعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، ألا لا مهدى إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النحس »[٣]

---

(١) يقول المراكشي : « أخبرنى للشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المرى . ونحن بحجر الكعبة قال : « قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف "يعقوب المنصور" يا أبا العباس : اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة ، يعنى عصمة ابن تومرت ، قال — أى الشيخ أبو العباس المذكور — وقال لى يوماً ، وقد استأذنته فى فعل شىء يفتقر إلى وجود الإمام — يا أبا العباس أين الإمام . أين الإمام ؟ . . » (المعجب ص ١٩٣) .

(٢) لم يل « المأمون » شئون الخلافة بعد موت أبيه يعقوب المنصور مباشرة فقد تولى بعد يعقوب المنصور ابنه « الناصر » (من سنة ٥٩٥ — ٦١٠ هـ) ثم تولى عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن — أخو يعقوب المنصور — (من سنة ٦٢٠ — ٦٢١ هـ) ثم تولى العادل بن يعقوب المنصور (من سنة ٦٢١ — ٦٢٤ هـ) ثم تولى يحيى المعتصم بن الناصر (من سنة ٦٢٤ — ٦٢٦ هـ) ثم تولى إدريس المأمون — الذى نتحدث عنه — (من سنة ٦٢٦ — ٦٣٠) .

(٣) ولم ينته الأمر عند الخطبة المذكورة . فقد أرسل المأمون الكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدى ابن تومرت من السكة والخطبة ومحو سننه التى ابتدعها للموحدين وجرى عليها الخلفاء بعده ، وأنكر النداء للصلاة باللغة البربرية ، وزيادة المهدى فى أذان الصبح عبارة « أصبح ولله الحمد » وغير ذلك من الأوضاع التى وضعها المهدى ابن تومرت . ثم يقول المأمون — فى كتبه التى أرسلها إلى جميع الولايات — كل ما فعله المهدى ، وتابعه عليه أسلافنا ، فهو بدعة . ولا سبيل إلى إبقائه ثم بطش بأشياخ الموحدين . حيث أمر بهم =

وبعد أن هاجم الموحدون مبادئهم على هذا النحو ، لم يعد هناك أى قيد يحد من نشاط المالكية ، فأعادوا قوتهم فى الفقه وفى العقيدة على السواء . وذلك فى الوقت الذى أخذ فيه أمراء الموحدين يتناحرون على الملك . ولم يعد أحد منهم يفكر فى شىء من أمر العقائد .

= فأحضروا بين يديه . فقال لهم يامعشر الموحدين .. إنكم قد أظهرتم علينا العناد، وأكثرتم فى الأرض الفساد ، ونقضتم العهود ، وبذلتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الإخوان والأعمام ولم ترقبوا فيهم إلاً ولا ذمة ، ثم أخرج لهم كتاب بيعتهم إياه ، واحتج عليهم بنكثهم الذى نكثوا بعده فقامت الحجة عليهم وبهتوا وسقط فى أيديهم . فالتفت إلى أحد القضاة فقال ما ترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إن الله تعالى يقول : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فقال المأمون : صدق الله العظيم . فإنا نحكم فيهم بحكم الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا إلى مصارعهم وقتلوا (الاستقصاء : للسلاوى ج ٢ ص٢١١-٢١٤) .

حـ ــ العرب الهلالية

ومن العناصر الهامة فى الشعب المغربى ــ فى عهد عبد المؤمن ــ قبائل العرب الهلالية . وقد ذكرنا فيما سبق ، كيف توغل هؤلاء العرب فى مملكة الباديسيين بأفريقية ، ثم فى مملكة الحماديين ببجاية ، وإلى أى قدر بلغ نفوذهم وبطشهم فى هاتين المملكتين ولا سيا بعد أن ضعف الباديسيون قبيل استيلاء النصارى على حاضرتهم « المهدية » . وكذلك بعد أن دب الخلل فى جسم الدولة الحمادية ، إذ أضحى هؤلاء الأعراب فى رغد من العيش ، وسعة من السلطان ، ثم بلغوا من العزة والقوة مبلغاً سما بهم إلى قمة الغرور والطغيان والبطش . فلما استولى « عبد المؤمن » على مملكة الحماديين فى ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ[١] ثار عليه هؤلاء الأعراب ، وتحدوا قوته ، والتحموا بجيشه سنة ٥٤٨هـ[٢] ، وتفانوا فى حربه ، إذ أفقدهم « عبد المؤمن » ما كانوا يتمتعون به من سلطان ونفوذ فى عهد الحماديين الضعفاء ، ولكن عبد المؤمن استطاع بجيشه المنظم أن ينزل بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، وأن يقتل زعيم زعمائهم « هلال بن عامر » ثم يمم وجهه شطر « مراكش » وفى ركابه منهم كثير من سلاطينهم ــ على حد تعبير البيدق[٣] ــ وكان عبد المؤمن يدرك أخلاق هؤلاء الهلاليين ويعرف ما طبعوا عليه من أنفة وعزة وكبرياء ، كما يعرف أنهم لا يتركون ثأرهم ، ولو فنوا عن آخر رجل منهم فعالجهم بكرم الخلق ، لا بالسلاح ، ورد إليهم ما غنمه منهم ، وأكرم زعماءهم ، وأطلق سراحهم آملاً أن يخلدوا إلى السكينة ، وأن يعاونوه على استقرار الأمن حتى يستطيع أن يفرغ للنصارى بالأندلس وأفريقية أعداء دين الله ، وأعداء العرب وآملاً أيضاً أن يصبح هؤلاء العرب الشجعان ، عنصراً عاملا فى شعبه ، وسنداً

(١) روض القرطاس حـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ ــ ١١٦ .

قويًّا فى جيشه . فسالم الهلاليون « عبد المؤمن » ولكنهم لم يقبلوا أن يكونوا تحت إمرة الموحدين الصارمة . فتقهقروا شرقى منطقة بجاية . وتجمعوا فى منطقة أفريقية (تونس) . ولكن عبد المؤمن تجمعت لديه الأسباب التى توجب عليه ، أن يلبى صريخ المسلمين الذين سامهم النصارى الخسف بمدينة المهدية عاصمة أفريقية ، هذه المدينة الإسلامية العظيمة التى انتزعها النصارى كما انتزعوا ما جاورها ، وما تبعها من بلاد المسلمين — كما مر — فاتجه عبد المؤمن إلى المهدية . واستولى — وهو فى طريقه إليها — على مدينة « تونس »[1] التى اتخذ الهلاليون منزلهم فى أحوازها — بعد أن فقدوا أحواز بجاية — وفتح الله للمسلمين ، مدينة المهدية ، ورد عبد المؤمن جميع أرض أفريقية للمسلمين . ولكن هذا النصر المبين الذى أحرزه الموحدون على الصليبيين . لم يثلج صدر الهلاليين ، الذين طاردهم عبد المؤمن وضيق عليهم الخناق فى كل مكان . فثاروا على الخليفة « عبد المؤمن » ثورة عارمة وانتزعوا من أملاك الموحدين مدينة « قابس » آملين أن يتخذوها مقرًّا جديداً . ولكن عبد المؤمن وجه إليهم جيشاً كبيراً ، أنزل بهم الهزيمة وأعاد إلى الموحدين مدينة « قابس »[2] فشعر الهلاليون بأنه لا قبل لهم بجيش عبد المؤمن ، وبدءوا يفتحون صدورهم لمفاوضة الموحدين ، فهداهم عبد المؤمن إلى العيش الكريم فى كنف الموحدين ، وأكد لهم إعجابه بهم ، وطفق يستميلهم إلى الانتظام فى جيشه ، ليكون لهم ثواب الإسهام فى نصرة الإسلام ، وطلب إليهم أن يعدوا عشرة آلاف من شجعانهم للجهاد فى سبيل الله بالأندلس ، فتعاهدوا على هذا ، ثم نكثوا الأيمان بعد توكيدها وارتأوا أن يحاربوا عبد المؤمن ليطلق سراحهم ، ويعيدهم إلى حالة الفوضى التى ألفوها من آماد بعيدة . ولكنه هزمهم هزيمة نكراء فى موقعة جبل القرن (جنوبى القيروان) فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ[3]

---

(١) كان ذلك فى سنة ٥٥٤ هـ (أغسطس ١١٥٩م) .

(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣) وكان يقود المعركة من الهلاليين ، أبو محفوظ محرز بن زياد ، وجبارة بن كامل بن سرحان ، ومسعود بن زمام (أشباخ جـ ٢ ص ٢١٥) .

وسقط متاعهم ، ونساؤهم ، وأولادهم غنيمة فى أيدى الموحدين ، . ولكن عبد المؤمن عاد إلى سياسة لين الجانب معهم كعادته ، وأمر بعدم المساس بالغنائم التى أخذت منهم ، وحراستها بعين الشرف ، والنبل ، وحين أقبلت وفود بنى هلال ، أكرم مثواهم وأحسن إليهم ، ورد إليهم أشياءهم كاملة غير منقوصة[١] . وبهذا الصنيع الكريم المتكرر ، استطاع أن يجذبهم إليه ، وأن يضم كثيراً منهم إلى جيشه . وأن يسلس قيادهم فأضحى هؤلاء الأعراب طائفة مستقرة من طوائف الشعب المغربى ، وعنصراً مميزاً من عناصر الجيش الموحدى ، غير أن عبد المؤمن لم يطل به أجله . ليقودهم فى معركة ، ولم يبتدئ ظهورهم فى الجيش الموحدى كقوة محاربة إلا فى عهد الخليفة الثانى « يوسف بن عبد المؤمن »[٢] ثم ضخم عددهم فى الجيش ، وانتشروا بكثرة بالمغرب الأقصى والأندلس فى عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، بطل

---

(١) أخبار المهدى ص ١١٧ .

(٢) وقد طلب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى طبيبه الفيلسوف ابن « طفيل » أن ينظم قصيدة حماسية يحرك فيها نخوة الهلاليين لحرب نصارى الأندلس فصدع بالأمر ومما جاء فى هذه القصيدة قوله :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنا ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم ... على الهول ركاب ظهور المصائب

ومنها :

ألا فابعثوها همة عربية ... تعز بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال وعامر ... وما جمعت من ظاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب

ومنها :

نعدكم السيف الذى ليس ينثنى ... إذا ما نباسيف براحة ضارب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ... ولكن فعل الحر أصدق خاطب

(المن بالإمامة ص ٧٠) .

معركة « الأرك »[١] أعظم معارك الدولة الموحدية بالأندلس على الإطلاق .

ومما هو جدير بالذكر ، أن إسهام العرب الهلاليين فى الجيش الموحدى لم يكن ذا أثر فعال لمقتهم للنظام ، وعدم إصغائهم لأوامر القادة ، وانطباعهم على التمرد والعصيان فى كثير من الأحيان .

ولكن هؤلاء الأعراب كانت لهم آثار بعيدة المدى فى تعريب الكثير من قبائل البربر القاطنة بمتاهات الجبال ومغاراتها ، مما لم يسهل على غير هؤلاء الأعراب فى الماضى أن يصلوا إليه ، وقد ظل العرب الهلاليون ذوى منزلة كريمة بين طبقات الشعب المغربى ، سيراً عل سياسة عبد المؤمن وسنته فى إكرامهم .

(١) انتصر فيها الخليفة يعقوب المنصور على النصارى . وكانت موقعة الأرك هذه أخت موقعة الزلاقة (التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين) فى خضد شوكة النصارى والتمكين للإسلام بالأندلس .

عبد الله كنون : مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٥٧ .

د ـ موقف عبد المؤمن من أهل الذمة

كان الموحدون فقهاء متمسكين بأحكام الشريعة الغراء فحملوا رعاياهم على إقامة أركان الإسلام وتنفيذ أحكامه بصرامة وحزم ، فالقتل دون غيره لمن لم يؤد الصلاة ، أو يمتنع عن أداء الزكاة ، أو يشرب الخمر أو . . . إلخ[1] .

وربما كان الغرض من هذه الصرامة ، ردع المستهترين ، وخلق مجتمع إسلامى نقى ، ولذلك رأى عبد المؤمن ، أن يقى هذا المجتمع الجديد من دنس الكفر[2] وأن يحمى الشباب الموحدى من مخالطة اليهود والنصارى ، شاربى الخمور ، وآكلى لحم الخنزير . أولئك الذين لا يخفون عداوتهم للموحدين

---

(١) إذا عرفنا أن المهدى ابن تومرت قد سفك الكثير من دماء أبناء القبائل . لترددهم ، أو لشكهم فى مبادئه المهدوية فلا عجب أن يقتل من يهمل تنفيذ أحكام الله ـ كتاب أعز ما يطلب (ص ٢٥٤) .

(٢) كان الموحدون يعتبرون أعداء الإسلام ، نجساً ودنساً ورجساً . فهذا شاعرهم « على بن حزمون » يمدح الخليفة « يعقوب المنصور » الذى هزم الصليبيين فى موقعة الأرك ، بقصيدة طويلة جاء فيها :

أإمام الحق وناصره ... طهرت الأرض من الدنس
ورفعت منار الدين على ... عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما ... صدع الديجور سنا قبس
ومضيت لأمر الله على ... ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلا كلـه ... بظباك على بشر رجس ! !

(المعجب ص ١٩٤)

بصفة خاصة[١] ، وللمسلمين بصفة عامة[٢] . فأصدر عبد المؤمن أوامره إلى جميع عمال مملكته بالأندلس والمغربين — الأقصى والأوسط — وأفريقية — بأن يخيروا اليهود والنصارى المواطنين بين : الجلاء عن البلاد ، أو اعتناق الإسلام ، وضرب لذلك أجلا معلوماً . فمن أسلم منهم كان له ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ، ومن امتنع عن الإسلام فى الأجل المحدد فقد حل دمه وماله .

وقد أسلم الكثير ، وهاجر القليل ، وبعض اليهود اعتنق الإسلام متظاهراً[٣] . ونفذ أحكامه ، مداراة وخشية من القتل ، فلما واتته فرصة الخروج من البلاد بأثقاله وأهله ، هاجر وعاد يهودياً كما كان ومن هؤلاء الطبيب اليهودى موسى ابن ميمون الذى هاجر إلى مصر واشتغل طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وتوفى بمصر سنة ٦٠٢ هـ[٤] .

وقد اتبع « عبد المؤمن » هذه الطريقة فى البلاد التى فتحها فيما بعد فعندما فتح مدينة « تونس » سنة ٥٥٤ هـ[٥] أقام بها ثلاثة أيام ، وعرض بنفسه

---

(١) كان النصارى المواطنون بالأندلس يتجسسون على المسلمين لحساب ملوك النصارى ، وكثيراً ما أغروهم بحرب المسلمين وغزوهم . ومن هؤلاء نصارى « قرطبة » الذين هيأوا للفونس السابع — ملك قشتالة — احتلال قرطبة سنة ٥٤٠ هـ واحتلال قلعة رباح سنة ٥٤١ هـ واحتلال ميناء ألمرية الإسلامى سنة ٥٤٢ — وذلك قبل أن يتمكن الموحدون من فتح الأندلس . أما اليهود فقد تآمروا مع ابن هشمك على الموحدين . وفتحوا له باب الربض بغرناطة ليلا . فدخل ابن هشمك مدينة « غرناطة » ليلا وفتك بكثير من الموحدين واشتد فى تعذيب المحاصرين (مخطوط المن بالإمامة ورقة ٧٥) .

(٢) والله جل شأنه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » (سورة آل عمران ٣ الآية ١٢٠) .

(٣) ويقول سبحانه وتعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا . وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم » . السورة الشريفة السابقة آية ١١٩ .

(٤) القفطى : أخبار العلماء . بأخبار الحكماء ص ٢٠٩ (ط القاهرة ١٣٢٦ م) .

(٥) القرطاس جـ ٢ ص ١٦٠ .

الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل من امتنع عن اعتناق الإسلام وسار على سنة عبد المؤمن كل خلفائه الذين حكموا الموحدين قبل عهد المأمون . ويبدو أن معاملة عبد المؤمن لأهل الذمة على النحو السابق قد أعجب بها شعبه أيما إعجاب ، بل ربما أثلجت صدر كثير من المسلمين فى العصور الوسطى ، ولا سيما أن عبد المؤمن ظهر فى فترة الحروب الصليبية التى اشرأبت فيها الأعناق إلى قائد مسلم ، يتسم بالصرامة والحزم تجاه الصليبيين المعتدين. فنرى الرحالة ابن جبير يشيد بالإسلام عند الموحدين فيقول : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب . لأنهم — أى المغاربة — على جادة واضحة كما أنه لا عدل ، ولا حق ، ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين »[١] .

ولكنه يبدو أن هذا الإسلام الذى أكره « عبد المؤمن » النصارى واليهود على اعتناقه كان — فى أغلب الأحيان — كالبذر الذى ألقى فى أرض سبخة ، فلم يحقق أمل الزارع ، فأولئك الذين أسلموا من اليهود بصفة خاصة لم يكفوا عن أذى الموحدين ، والتجسس على جيوشهم ، ونقل أسرار المسلمين إلى الأعداء ، ولما فطن الخليفة يعقوب المنصور إلى شر اليهود أراد أن يميزهم — على الرغم من إسلامهم فى الظاهر — ليتقى المسلمون شرهم وليحذروهم ، فوضع لهم لباساً مميزاً يختصون به ، وهذا الملبس عبارة عن ثياب كحلية اللون ذات أكمام مفرطحة السعة ، وطولها يصل إلى أقدامهم ، وبدلا من العمائم ، جعل على رءوسهم « كلوتات » على أشنع صورة كأنها البراديع ، واصلة إلى ما تحت آذانهم . وشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ، وظلوا يلبسونه طول أيام « يعقوب المنصور » وصدر عهد ابنه « الناصر » ثم توسلوا إلى الناصر بجميع الوسائل فغير زيهم إلى ثياب صفر ، وعمائم صفر كذلك[٢] .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٩ .

(٢) المعجب ص ٢٠٣ ويزيد المراكشى قائلا كان يعقوب المنصور يقول لو صح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى=

وكان هذا الزى المميز بمثابة إعلان يحذر الشعب منهم ، فقل خطرهم ، ولكن هذا الزى جعل منهم طبقة معينة من طبقات الشعب . فلما أخذت الدولة الموحدية فى الضعف عقب حكم « الناصر » (ت ٦١٠) تنفس هؤلاء اليهود الصعداء ، وأخذوا يسهمون فى الفتن التى انتشرت فى أنحاء الدولة ، وابتداء من عهد المأمون أخذ اليهود حظهم من الحرية شأنهم شأن النصارى فكانت لهم مدارسهم ومجتمعاتهم الخاصة . وكان من سيئات المأمون ، خروجه على المبادئ التى قامت على أساسها الدولة التى أعزته وأعزت الإسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم قتله شيوخ الموحدين . ثم السماح للنصارى بإقامة كنيسة بمدينة مراكش ، ليقيم النصارى شعائرهم [(١)] .

وإذا كان لنا أن نزن عمل عبد المؤمن تجاه النصارى واليهود وحملهم على الإسلام كرهاً . فإن هذا الأمر قد استند فيه إلى سياسة ابن تومرت القائمة على أصول الشيعة . وهذا كطريقته فى قتل تارك الصلاة ومانع الزكاة ، وشارب الخمر ، والأحكام الإسلامية السنية لا تقول بهذا ، كما لا تقول بتخيير النصرانى أو اليهودى بين الإسلام أو القتل . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » والتخيير يكون بين الإسلام أو الجزية أو الحرب . وربما كان عبد المؤمن مستنداً على قاعدة اختص بها مذهب مالك — رضى الله عنه — وهو إدخال عنصر المصلحة المرسلة ضمن الأقيسة الفقهية .

= كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للسلمين . ولكننى متردد فى أمرهم » (نفس المصدر والصفحة) .

(١) الاستقصا جـ ٢ ص ١١٢ — ٢٥١ .

٢
المرأة

كانت المرأة فى عهد المرابطين أكثر ظهوراً فى مجال الحياة العامة وأعظم نفوذاً ، وأشد حرية من المرأة فى عهد الموحدين[١] . فقد أثبت التاريخ أنه كان لبعض نساء المرابطين رأى مسموع فى سياسة الدولة[٢] . ومن هؤلاء النسوة السيدة « زينب النفزاوية » زوج السلطان يوسف بن تاشفين — مؤسس دولة المرابطين — والسيدة « قمر » زوج السلطان على بن يوسف ، وإننا نلمس مكانة المرأة المرابطية فى حمل كثير من قادة المرابطين وأمرائهم ، اسم الأم لا اسم الأب « مثل يحيى بن غانية ، ومحمد بن عائشة » ومحمد بن فاطمة .

ولم يقدر للمرأة الموحدية — فى عهد عبد المؤمن — أو بعد عبد المؤمن ، مثل هذه المكانة العالية التى كانت للمرأة المرابطية ، على أن المرأة الموحدية — ابتداء من عهد عبد المؤمن — قد نالت قسطاً وافراً من التعليم لم يقدر للمرأة المرابطية . وكانت بنات أمراء الموحدين : القدوة الصالحة لبنات الشعب فى الإقبال على العلم والأدب . ومن هؤلاء الأميرة زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن التى درست علوم الدين واللغة ، ونبغت فى علم الأصول . إذ كانت هذه

---

(١) ربما يرجع ذلك إلى أن المرابطين، قد نشأوا فى الصحراء ، والمرأة الصحراوية هى الركن الركين فى إقامة بناء الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فهى التى ترعى الإبل والغنم ، وهى التى تطهو الطعام وتربى الأولاد وتحوك الثياب . أما الرجل فأهم أعماله حماية الأسرة ، والذود عن ذمار القبيلة .

(٢) وقد اشتطت المرأة فى سلطتها حتى انحرفت عن الجادة. وفى هذا يقول المراكشى .. واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل . وصاحب خمر وماخور . . إلخ (المعجب ١١٤ — ١١٥) .

الأميرة ، عالمة صائبة الرأى، وقد استطاعت أن تدفع بالمرأة المغربية إلى ميدان العلم والمعرفة[١] .

ومن مناقب عبد المؤمن . أن جعل التعليم الابتدائى إجبارياً[٢] مفروضاً على كل مكلف من الرجال والنساء[٣] . وقد دفعه إلى هذا إصراره على أن يلم كل أبناء الشعب بعقيدة ابن تومرت ومبادئه . ولكن الشعب – مالكياً أو موحدياً – استفاد الإلمام بالقراءة والكتابة . مما هيأ للراغبين فى الاستزادة من العلم من الجنسين أن يقتحموا ميادين المعرفة العالية ومن الشواعر اللائى ظهرن فى عهد عبد المؤمن . الأديبة الشاعرة المربية حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية[٤] التى قالت فى مجلس عبد المؤمن مرتجلة :

يا سيد الناس يا من يؤمل النـــاس رفـــده
امنن على بطرس يكون للدهر عـــده
تخط يمناك فيـــه الحمد لله وحـــده[٥]

ومن الأديبات الشهيرات اللائى ظهرن فى عهد « عبد المؤمن » السيدة « ورقاء بنت ينتان » الفاسية . وممن تثقفن بالعلوم الدينية « أم العز العبد رية » التى كانت تدرس القراءات السبع كما كانت تقوم بتدريس صحيح البخارى . ومنهم أم المجد مريم بنت الشيخ أبى الحسن الغافقى الذى فتح مدرسة للغرباء بمدينة « سبتة » وحبس عليهم أول مكتبة من نوعها بالمغرب . وقد نوهنا عنه

---

(١) التكملة ترجمة رقم ٢١٢٢ .

(٢) ربما كان عبد المؤمن أول ملك فى العالم قرر أن يكون التعليم إجباريا .

(٣) ليفى بروفنسال : مجموع رسائل موحدية من ص ١٣١ حتى ص ١٣٧ .

(٤) كانت حفصة هذه تشتهر بالحسب والجمال والمال ، وكانت أستاذة بالإضافة إلى شهرتها الأدبية . وقد طال عمرها حتى علمت نساء الخليفة يعقوب المنصور – حفيد عبد المؤمن – وتوفيت بمراكش سنة ٥٨٦ هـ .

(٥) تشير بهذا إلى العلامة السلطانية عند الموحدين إذ كان الخليفة يمهر الكتب السلطانية بخط يده بعبارة « الحمد لله وحده » .

فيما سبق ، ومنهن السيدة خيرونة الفاسية العالمة المتصوفة التى أخذت التصوف على الإمام عثمان السلالجى صاحب الطريقة البرهانية ، وشيخ أهل فاس فى عصره . ومن النساء اللائى ظهرن فى عالم الطب بصفة خاصة السيدة « أم عمرو » بنت الطبيب الذائع الصيت فى العصور الوسطى « أبى مروان بن زهر » وكان لأم عمرو هذه ابنة نبغت فى الطب أيضاً تدعى « أم أبى العلاء »[1] .

وكان المهدى ابن تومرت يعيب على المرابطين ؛ أن رجالهم يتلثمون . بينما تسفر نساؤهم عن وجوههن[2] . ويروى السلاوى أن ابن تومرت . لقى الصورة – أخت السلطان على بن يوسف – فى الطريق وهى حاسرة قناعها على عادة المرابطين فى زى نسائهم فوبخها ، فدخلت على أخيها شاكية باكية[3] .

فهل نستنتج من هذا أن المهدى كان من أنصار الحجاب ، وأن نساء الموحدين التزمن النقاب .

إننا لا نستطيع أن نجزم بحالة معينة ، لأن المرأة الريفية صحراوية كانت أم جبلية ، إنما تسفر عن وجهها فى أغلب الأحيان ، إذ حياتها الاجتماعية الجادة تملى عليها الثقة ، وتمنعها من اصطناع التكلف . كما تمنعها تقاليدها من مواجهة الرجل الأجنبى . وهى بعد هذا إنما تعيش بين إخوتها وأبناء عمومتها وخئولتها . من أولئك الذين فتحت الحياة عينها عليهم منذ نشأتها ، وأزالت أواصر القربى بينهم ما تلتجئ إليه المرأة من أنواع التكلف والاحتجاز . على أننا نرجح أن المرأة الموحدية كانت تحتجب عندما تضطرها الضرورة إلى لقاء رجل غريب عن عشيرتها ، استناداً إلى نقد المهدى الآنف الذكر . وكان الموحدون لا يسمحون باختلاط الرجال بالنساء فى الأسواق العامة ، أو فى الأعياد والمواسم[4] ولم تكن المرأة الموحدية ذات نفوذ سياسى فى الدولة ،

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ١٢٦ .

(٢) كتاب أعز ما يطلب : للمهدى ابن تومرت ص ٢٩٢ – ٢٩٥ .

(٣) الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) وقد سن لهم ابن تومرت هذه السنة . فكان ينزل الأسواق ويفرق الرجال من النساء بالعصا . وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

كأختها المرابطية كما ذكرنا . ولكنها كانت ذات رأى محترم فى ميدان الأسرة ، إذ كانت تسهم بنصيب كبير فى بناء الأسرة اقتصادياً واجتماعياً . ولا سيما النسوة السوسيات اللائى يقرر البكرى عملهن بقوله : « . . . إن أهل السوس وإغمات ، أكثر الناس تكسباً ، وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب . . . » [١]

ولقد كان العرف البربرى يحرم المرأة من الميراث ، حتى لا تخرج أملاك القبيلة إلى الأجانب . فلما انتشرت أحكام الإسلام السمحة بين القبائل — ولا سيما فى عهد المرابطين والموحدين — أخذت المرأة حقها الشرعى من الميراث . إلا عند القبائل التى تحايلت على الشرع [٢] . كأن تحمل البنت على أن تتنازل لبعض إخوتها عن حقها ، أو تبيع حقها بثمن بخس . ومثل هذا نراه فى بعض الأسر عندنا . .

والمرأة الموحدية كانت تشتهر بجمالها ، وترتدى ملابس ساذجة ، وتختلف الملابس باختلاف أحوال الأسرة الاقتصادية والاجتماعية . وكان الموحدون رجالاً ونساء يؤثرون الألوان البيضاء . وربما كان السبب فى ذلك راجعاً إلى أن المرابطين كانوا يفضلون اللون الأسود شعار العباسيين . إذ كان المرابطون تابعين أدبياً للدولة العباسية ذات الشعار الأسود . فسار الموحدون على النقيض منهم .

---

(١) البكرى : المسالك والممالك ص ١٦٣ — ١٧٠ .

(٢) ولا يخفى أن هذا التحايل لا يقره الشرع الشريف .

٣
الملاهى والمحافل

كانت الحياة الاجتماعية فى عهد عبد المؤمن — بصفة خاصة — تستمد مظاهرها من ذلك النهج الصوفى الذى شرعه ابن تومرت صاحب دعوة الموحدين ، وكان ابن تومرت يرى أن ما أصاب المسلمين بالمشرق والمغرب من ضعف وتدهور ، إنما مرده إلى حياة الترف والعكوف على اللهو بريئاً أو غير برىء ، وصدوفهم عن منهج الدين الحنيف وأساليبه الجادة الطاهرة ، لهذا بدأ حياته الإصلاحية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبعد أن نبتت حوله جماعة صغيرة من التلاميذ ، أخذ يقودهم إلى مهاجمة المتاجر التى تبيع آلات اللهو ، وينزل بها العطب ، وفى هــذا يقول البيدق : « . . . فقال الإمام — ابن تومرت — لنا تفرقوا على الحوانيت ، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر ومزامير وعيداناً ؛ . . . وجميع أدوات اللهو فقال لنا المعصوم : اكسروا ما وجدتم من أدوات اللهو ، فقام أصحابها بالصراخ ، وساروا شاكين نحو قاضيهم — أى قاضى مدينة فاس — ابن معيشة . . . فقال لهم القاضى : . . لولا ما رأى — أى ابن تومرت — فى السنة ما كسرها ومزقها . مروا . . فإنكم مخالفون للحق »[١] .

ونستنتج من هذا النص أن الشعب المغربى فى عهد المرابطين — الذين ظهر ابن تومرت فى عهدهم — كان يستعمل آلات الطرب ويمارس حياة اللهو . على حين قاومها ابن تومرت وتلميذه عبد المؤمن ، وقد أشار المراكشى

(١) كتاب أخبار المهدى ص ٦٥ .

إلى ما يفهم أن الموحدين بعد عبد المؤمن ساروا على نهجه فى اطراح فن الموسيقى جانباً . فيتحدث المراكشى عن الفيلسوف ابن طفيل قائلا . . . وبلغنى أنه (أى ابن طفيل) كان يتخذ الجامكية (الراتب) مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين ، والكتاب ، والشعراء والرواة ، والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف ، وكان (ابن طفيل) يقول : . . . لو نفق عليهم علم الموسيقا لأنفقته[١] عندهم ، وكان ابن طفيل هذا من رجال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن .

ولكن الموحدين كان لهم وسائل أخرى للتسلية منها ، ندواتهم العلمية ، والأدبية ، واستعراض الجيوش ، ومحافلهم الكثيرة التى كانت أسواقاً للشعر والخطابة .

فمن ندواتهم العلمية ، تلك الندوات الأسبوعية التى كان يعقدها عبد المؤمن بقصره للعلماء والحفاظ ، إذ كان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محبًّا لهم ومحسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى السكون عنده ، وللجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والإعظام لهم[٢] .

وقد كان عبد المؤمن يتذوق الشعر وينقده ، وعلى شاكلته كان ابنه « يوسف » كما كانا ينعمان بنوادر الأدباء : ومن هؤلاء ، الأديب أبو العباس أحمد الكروانى[٣] ، الذى جالس بنوادره الخليفتين عبد المؤمن

---

(١) المعجب ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩

(٣) ينتسب أحمد بن عبد السلام الكَروانى إلى قبيلة كَروان التى تقطن بضواحى مدينة فاس ، ولعل بلدة كروان إحدى قرى المنوفية بمصر . كانت أول أمرها منزلاً لإحدى بطون هذه القبيلة التى هاجرت مع الفاطميين إلى مصر ، وكان الكروانى شاعراً ، ومن قوله يمدح يوسف عبد المؤمن :

إن الإمام هو الطبيب وقد شفا ... علل البرايا ظاهراً ودخيلا

حمل البسيطة وهى تحمل شخصه ... كالروح يوجد حاملا محمولا

وابنه يوسف[١] .

وكان الشعب المغربى فى عهد عبد المؤمن يعيش حياة جدية ، وربما كان أهل المدن يمتعون أنظارهم ، ويروحون عن نفوسهم بمناظر استعراض الجيوش ، وإقامة محافل النصر على النصارى ، ولم يكن هناك ما يمتع نفس عبد المؤمن كاستعراضه لجيشه ، فقد ذكر المراكشى عن الوزير أبى جعفر بن عطية أنه قال: « . . . دخلت على "عبد المؤمن" وهو فى بستان له ، قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد فى قبة مشرقة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يمنة ، وشأمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لى : " أى عبد المؤمن " يا أبا جعفر أراك كثير النظر إلى هذا البستان ، قلت : يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله ، إن هذا المنظر حسن . . فقال يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا ؟.. قلت : " نعم " ، فسكت عنى ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر ، آخذى أسلحتهم ، وجلس فى مكان مطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة ، وكتيبة إثر كتيبة ، لا تمر كتيبة إلا والتى بعدها أحسن منها جودة سلاح ، وفراهة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى "عبد المؤمن" ذلك ، التفت إلى وقال : « يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك وأشجارك . . »[٢] وهذا النص يكشف لنا عن مزاج عبد المؤمن ، وأنه

---

(١) من نوادر الكروانى : أنه زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وكان يصحب الكروانى الطبيب سعيد الغمارى ، فقال الخليفة متفكهاً من عجائب الدنيا ، شاعر من كروان ، وطبيب من غمارة ، فقال الكروانى : يقول الله سبحانه : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » ، أعجب منهما والله خليفة من كومية . . فكظم الخليفة غيظه وقال أعاقبه بالحلم وهذا يكشف عن مدى الحرية التى كان يتمتع بها الأدباء فى عهد الموحدين ، ومدى شجاعة أهل المغرب فى إبداء الرأى .

(السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٤١)

(٢) المعجب ص ١٣٠ – ١٣١

لا يطرب ، إلا للأمور التى تثير الحماس النبيل وتدفع النفوس نحو المجد والعظمة ، والناس على دين ملوكهم .

ولم تذكر مصادر التاريخ ، من الآلات التى من الممكن اعتبارها من أدوات الطرب سوى « الطبل » الذى كان يدق بقوة فى مسيرة جيش عبد المؤمن نحو القتال ، أو فى محافل الاستعراض ، أو الابتهاج بالنصر على الأعداء ، فتطرب له نفوس الموحدين ، ويملؤهم حماساً وقوة ، بينما تنخلع له قلوب الأعداء ، من هذا ما ذكره ابن صاحب الصلاة أن عبد المؤمن حين انتصر على الصليبيين ، ورد المهدية إلى المسلمين أرسل إلى ابنه « يوسف » كتاباً بالفتح المبين ، فأمر يوسف — وكان والياً على أشبيلية — أن يكتب العلماء والناس هذا الكتاب ، وأن يحفظوه عن ظهر قلب ، وأن يتلى من فوق المنابر[١] ، وأمر يوسف أيضاً ، بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول والإطعام ثلاثين يوماً والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء ينشدون قصائدهم بالتهنئة فى مختلف المناسبات والمواطن[٢] ، وهذا النص يعطينا صورة عن محافل الابتهاج ، وأنها كانت تشتمل على إلقاء الشعر ، وإقامة المآدب للشعب ، وقرع الطبول .

---

(١) وقد تضمن الكتاب قصيدة رائعة جاء فيها :

ولما قضينا بالمشارق أمرنا	وتم مراد الله فى كل مطلب
وطهر هذا الصقع من كل كافر	وعاد بها الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة	ونادى منادى الحق فى كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم	فطار بها شأو السرور بمغرب
ولا بد من يوم أغر محجل	يسيل دماء الكفر من كل مذهب
وتشفى صدور المؤمنين بغزوة	تكون على حكم الحسام المدرب

(مخطوط المن بالإمامة ، ورقة رقم ٦ . إعداد التازى)

(٢) المصدر السابق ورقة رقم ٧ .

وكان الشعب المغربى ينفعل فى المناسبات ويتكبد المشاق ليمتع نفسه بالمشاهد التاريخية ، ويصف لنا ابن صاحب الصلاة — وكان ممن شاهدوا الأحداث بأنفسهم — منظر الشعب المحتشد على الشاطئ لرؤية عبد المؤمن ، وموكب الاحتفال به بجبل طارق فيقول : . . وبرز إليه (أى إلى عبد المؤمن) يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مذكوراً مشهوداً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، مالم يتقدم فى سالف الأزمان ، ولا تخيل مرآه فى الأذهان[١] .

ولما اكتمل الحفل ، قابل عبد المؤمن الوفود مرتبة ، ثم أمر بدخول الشعراء ، وقد نوهنا عنهم فيما سبق .

---

(١) نفس المصدر السابق ورقة رقم ٢١

٤
الحياة الاقتصادية

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغرب شهد فى عهد سلطان المرابطين « يوسف بن تاشفين » وفى صدر عهد ابنه السلطان على بن يوسف ، خير أيامه رخاء وأمناً وعدلاً[١] . فلما قامت الحرب الأهلية بين الموحدين ، والمرابطين فى عهد السلطان « على بن يوسف » وانقسم الشعب إزاءها فريقين متعادين ، شلت اليد العاملة ، وحل الكدر والأسى محل الصفاء والبهجة ، وعم الخوف والفزع لانتشار اللصوص وقطاع[٢] الطريق ، فصار الناس إلى البؤس والفقر .

ولما انتهى الصراع بين الموحدين ، والمرابطين . باستيلاء عبد المؤمن على حكم المغرب فى سنة ٥٤١هـ . لم تنقطع الاضطرابات . ولم يخلد الشعب إلى السكينة ، فقد انتهى دور الدولة المرابطية فى مقاومة الموحدين ، وبدأ دور الشعب عنيفاً قوياً . إذ هبت الثورات على عبد المؤمن من كل مكان . ولم تنطفئ نارها إلا فى سنة ٥٤٩ هـ . أى أن الشعب المغربى عاش فى حياة مضطربة نحو ثلاث وثلاثين سنة ، ابتداء من قيام الدعوة الموحدية سنة ٥١٦هـ.

---

(١) يقول الأستاذ « عبد الله كنون » — عضو مجمع اللغة العربية — فى الدولة المرابطية : « .. كان حكمها مثالاً للعدالة الإسلامية ، والرحمة الإنسانية وكان التسامح رائدها ، ونصرة الحق ديدنها ، فنشطت الهمم ، وحييت النفوس ، وقويت معنويات الأمة ، وتحسنت الحالة الاجتماعية (مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٤٤ — ٤٥) .

(٢) المراكشى : المعجم : ص ١١٥ .

لم ينعم فى أثنائها بالأمن والرخاء[1] . ثم ابتدأت حياة الشعب تستقر ، وأمنه يستتب ، وأخذت الحياة الاقتصادية تنتعش ، وأحوال الشعب المعيشية تتحسن تحسناً مطرداً . ولم يتعد « عبد المؤمن » — فى بادئ الأمر — منهج ابن تومرت الذى قرره فى تحصيل الأموال الضرورية . فقد اكتفى بجمع الزكاة وتحصيل الأعشار وأخماس الغنائم حتى لا يرهق الشعب ، ثم أخذت الإمبراطورية الموحدية تتسع حتى شملت المغرب الأقصى والأوسط ، والأدنى ، والأندلس ، وابتدأت مرحلة الجهاد فى سبيل الإسلام بالأندلس وغير الأندلس . ولقد سبرت جيوش عبد المؤمن غور النصارى فى المهدية وفى الأندلس . ولمسوا عنادهم ، وعناد تابعهم محمد بن مردنيش ، وصهره ابن همشك . فأدركوا أنه لا مناص من القوة القاهرة لهزيمة الصليبيين ، وليس من سبيل إلى القوة المنشودة بغير المال الكثير المتصل الذى يستند على نظام اقتصادى يثمر إنتاجاً مطرداً . إذ كيف يقيم عبد المؤمن المنشآت الحربية من قلاع وحصون ، ويزود الجيوش الجرارة بمختلف الأسلحة ، وينشئ الأساطيل ، ويزود المحاربين بالأقوات والنفقات ؟ أيمكن أن يفى بهذا كله من مالية أساسها الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم لقد أصدر عبد المؤمن أوامره إلى عماله فى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى بأن

---

(١) (السلاوى . الاستقصاء ج ٢ص ٩٩) .

مثل ثورة مدينة « سبتة » بتدبير القاضى عياض كبير علماء المالكية فى عصره . وقد أسندت للقيادة الحربية فى هذه الثورة إلى القائد المرابطى الأمير « يحيى الصحراوى » وقد أيدت ثورة سبتة قبائل : برغواطة وتادلا وسلا ، وطنجة ، وكادت تزعزع دولة الموحدين الحديثة . ولكن عبد المؤمن أرسل القائد . . يصلاتن الهرغى . . فكان بارعاً فى إطفاء الثورة إذ اتصل بالشيخ عياض . وقدم إليه آيات الإجلال والتعظيم ورجاه فى أن يعمل على حقن دماء المسلمين ، فانصاع القاضى ورجا مقابلة عبد المؤمن . فهيأ له يصلاتن هذه المقابلة . وقد عظمه عبد المؤمن وجعله أحد مستشاريه وظل القاضى بمراكش حتى وافته منيته سنة ٥٤٤ هـ . وهناك كثير من الثورات التى ظلت قائمة حتى سنة ٥٤٩هـ . بالمغرب (لا محل لتفصيلها فى هذا المقام) كثورة برغواطة . بقيادة ابن تمركيد . وثورات الأندلس التى أشرنا إليها سابقاً — انظر ثورة ابن تمركيد بالقرطاس ج٢ص١٤٥ .

يمسحوا الأرض ويسقطوا الثلث مقابل الجبال والغياض والأنهار والطرق والحزون والسبخ ، ويفرضوا الخراج على ثلثى الأرض . ففعلوا ما أمروا به وألزمت كل قبيلة بقسطها من الزرع والمال[1] . وقد استند فى هذا إلى قاعدة شرعية أقرها العلماء ، وهى أنه فتح البلاد بالسيف[2] ؛ ثم عمد إلى مصادرة أموال اليهود والنصارى الذين لم يسلموا طبقاً لقراره الذى أشرنا إليه فيما سبق . وقد نظم قانون الخراج زراعة الأرض . فلم يهمل جزءاً من الأرض الصالحة للزراعة دون زراعة وأصبح من المحتم على الزراع أن ينهضوا بزراعاتهم ليفوا بما تتطلبه معايشهم وبما تستحقه الحكومة ، ومن جهة أخرى فقد راقبت الدولة أحوال الزراعة وكثيراً ما أسدت النصائح العلمية للزراع لتدر الأرض أكبر قدر ، وأرض المغرب من أخصب بقاع العالم[3] ، وأطيبها تربة ، وأكثرها أنهاراً[4]

---

(١) ابن أبى زرع : القرطاس ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ ؛ والسلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٧٨ .

(٣) يقول المراكشى : . . وحد عمل المغرب عند الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط تارة إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون . . وهى أخصب رقعة على الأرض فيما علمت ، وأكثرها أنهاراً مطردة (الجريان) وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعناباً . » (المعجب ص ١٦٧ — ١٦٨) ونحن لا نقول : إنها أخصب بقعة على الأرض كما يقول المراكشى . ولكننا شاهدنا المغرب وأدركنا أنه من أخصب بلاد العالم .

(٤) كتب المراكشى : باباً عنوانه « ذكر أسماء الأنهار العظام بالمغرب » ذكر فيه . نهر جرده ببلاد تونس ونهر الوادى الكبير ببجاية (وهو خلاف الوادى الكبير بالأندلس) ونهر وادى ملوية . وهو بين تلمسان — بالجزائر . ورباط تازة بالمغرب . ونهر « سبو » وهو محيط بمدينة فاس ويجاوره نهر آخر يسمى ورغة ونهر بهتا بين سلا ومكناسة ونهر أم الربيع بين سلا ومراكش . ونهر تانسيفت . بجوار مراكش ونهر سوس الأقصى . ونهر شفشاوة ببلاد حاجة . ويقول المراكشى . إن ماء هذه الأنهار لا ينقطع فى الصيف أو الشتاء . هذا عدا الأودية الصغار . والأنهار التى يجف ماؤها صيفاً .

(المعجب ٢٤٣) .

ثم نهض عبد المؤمن بالتجارة فى الداخل والخارج. ولكى يكثر المبيعات الداخلية. ويسهل التعامل بين أبناء شعبه ، ضرب الدرهم ، ونصفه ، وربعه . وثمنه . ثم الخراريب . ولم يضع للتجارة الداخلية ضرائب . ولكنه راقبها برجال الحسبة لضبط الموازين ، وعدم عرض غير الصالح من المبيعات . أما التجارة الخارجية فقد نشطها ووضع لها أنظمة ، وعقد من أجلها المعاهدات مع البندقية . وجنوة ومرسيليا .

ثم نهض عبد المؤمن بالصناعة ، وساعده على ذلك ما اشتملت عليه مملكته الواسعة من مختلف المعادن التى عمد عبد المؤمن إلى تكليف المتخصصين باستخراجها والانتفاع بها فى إنهاض الحالة الاقتصادية بالبلاد ، ثم استغل هو وخلفاؤه ما وهب الله البلاد من مواد أخرى صالحة للصناعة كالصوف الذى قامت عليه صناعة النسيج والرمل والجير ، ثم النباتات الصالحة لصناعة الورق والزيوت التى قامت عليها صناعة الصابون والجلود التى قامت عليها صناعة الحقائب والأحذية والدباغة وغيرها وليس هناك من شك فى أن نهضة الزراعة ، والصناعة والتجارة ، قد عادت على الشعب بالخير العميم ، ومكنت الحكومة من تحقيق مشروعاتها الداخلية والخارجية . إذ تدفقت الأموال على خزانة الدولة ، وبلغ الخلفاء[1] والشعب جميعاً مبلغاً كبيراً من الرخاء والطمأنينة

---

(١) يقول المراكشى فى يوسف بن عبد المؤمن : « وكثرت فى أيامه الأموال ، واتسع الخراج وكان سخيًّا جواداً . وكان الذى يسهل عليه بذل الأموال ، ما جبل عليه من كرم وسعة الخراج ، وكثرة الوجوه التى تتحصل منها الأموال . فكان يرتفع إليه خراج أفريقية وجملته فى كل سنة ، وقر مائة وخمسين بغلا . هذا من أفريقية وحدها خلا بجاية وأعمالها والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة . فلم يرتفع لملك من الملوك — أعنى ملوك المغرب — قبل أبى يعقوب هذا وبعده (من الملوك الذين أدركهم المراكشى الذى توفى قبل زمن المأمون غريباً) ما ارتفع إليه من الأموال (المعجب ص ١٦٦ — ١٦٨) .

والأمن[١] ، وأخذت الحضارة الموحدية تشق طريقها نحو الظهور والتفنن .

ويشير تراس (Terrasse) إلى أن عبد المؤمن هو الذى وضع أساس الأنظمة الاقتصادية التى سببت الرخاء للمملكة الموحدية فى عهده ، وفى عهد خلفائه فيقول : « لم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء عبد المؤمن أريكة الملك حتى كانت منجزاته تثير الإعجاب ، فبفضل هذه المنجزات بلغت بلاد المغرب مبلغاً من الازدهار لم تصل إليه من قبل[٢] » .

وأحصيت الصناعات بمدينة فاس وحدها — زمن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن — فكانت اثنى عشر مصنعاً للمعادن . وثلاثة آلاف وأربعة وتسعين نولاً للنسيج وسبعة وأربعين معملا للصابون . وستة وثمانين مصنعاً للدباغة وثمانمائة وستة عشر مصنعاً للصباغة . وأحد عشر مصنعاً للزجاج ومائة وخمسة وثلاثين مصنعاً للجير وأربعمائة مصنع للكاغد . وهذا عدا المطاحن والمعاصر والحرف اليدوية التقليدية[٣] .

---

(١) يقول الأستاذ عبد الله كنون : . . قيل عن انبساط الأمن (فى عهد عبد المؤمن وخلفائه الأوائل) إن المرأة كانت تخرج وحدها من أقصى المغرب إلى أدناه فلا يتعرض لها أحد بسوء . وذلك ناتج من عدل خلفاء الموحدين ، واهتمامهم بمصالح الرعية ، وتربية الناس بالترغيب والترهيب . فيقال : إن الدينار كان يقع من الرجل فى الشارع العمومى فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه . . (مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٦٤— ٦٥) .

(٢) Hist. du Maroc, P. 380.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ص٣٣ .

١

ب ـ نظم الحكم

وضع المهدى ابن تومرت نظاماً حكومياً لجماعة الموحدين ، عقب مبايعته بالمهدوية سنة ٥١٥ هـ . وقد راعى ابن تومرت فى النظام الذى وضعه ، أن يمثل القبائل التى استجابت لدعوته المهدوية والتوحيدية وأبدت استعدادها للقتال فى سبيل نصرة هذه الدعوة ، كلما دعت الضرورة .

وهذا النظام ـ كما ذكره ابن القطان ـ يتألف من أربع عشرة طبقة مرتبة بحسب أهميتها على النحو الآتى :

الطبقة الأولى : أصحاب المهدى العشرة ، المسمون أهل الجماعة .
« الثانية : أهل الخمسين .
« الثالثة : أهل السبعين .
« الرابعة : الطلبة (وهم علماء الموحدين) .
« الخامسة : الحفاظ (وهم صغار الطلبة) .
« السادسة : أهل الدار (وهم أفراد بيت المهدى) .
« السابعة : قبيلة هرغة (قبيلة ابن تومرت) وهى إحدى بطون مصمودة .
« الثامنة : أهل تينمل (وهم بطون متعددة من قبيلة مصمودة وغيرها) .
« التاسعة : قبيلة كدميرة .
« العاشرة : قبيلة كنفسية .

الطبقة الحادية عشرة : قبيلة هنتاتة .

« الثانية عشرة : قبائل ناصرت المهدى (وليست من قبيلة مصمودة — قبيلة ابن تومرت العليا) .

« الثالثة عشرة : الجند (وهم المتطوعون الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة غير مناصرة للمهدى) .

« الرابعة عشرة : الغرات (وهم الموالى)[١] .

وكانت طبقة العشرة بمثابة الوزراء للمهدى باعتباره رئيس الحكومة الموحدية وزعيم الموحدين الروحى ، وطبقتا الخمسين والسبعين معاً ، بمثابة مجلس الأمة فى عصرنا . وفى أوقات الحرب كانت جميع الطبقات تشترك فى القتال بقيادة المهدى ثم بقيادة عبد المؤمن فيما بعد[٢] . وقد ظل هذا النظام قائماً ، حتى انتصر عبد المؤمن على المرابطين وأسقط دولتهم ونكل بالثوار الذين قاموا فى وجهه ، ثم تفرغ لقبائل المصامدة ، وأخذ يفكر فى الحد من نفوذهم ، فانتهز فرصة موت أغلب صحابة المهدى العشرة وأكثر أعضاء جماعتى الخمسين والسبعين ، وعمد إلى تغيير نظام طبقات المهدى الأربع عشرة الآنفة الذكر ، وصنف الموحدين ثلاث فئات :

الفئة الأولى : ممن لا يزالون على قيد الحياة من صحابة المهدى العشرة ، وأهل الخمسين وأهل السبعين والسابقين الأولين الذين سبقوا إلى مبايعة المهدى ونصرته ، أو ممن صلوا خلفه دون التقيد بقبيلة معينة .

---

(١) الغرات : جمع غرة (بضم الغين) وكلمة غرة من أسماء الأضداد ، فتطلق على السيد والعبد . فيقال غرة القوم ، أى سيدهم ، كما تطلق هذه الكلمة على العبد والأمة (المختار ، مادة غرر) .

(٢) مخطوط نظم الجمان . ورقة رقم ٣٣ أ وراجع كتاب الدعوة الموحدية ص ١٦٨ — ١٧٥ .

والفئة الثانية : من الموحدين الذين دخلوا فى الدعوة الموحدية بعد موقعة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ حتى موقعة وهران سنة ٥٣٩ هـ دون التقيد بقبيلة بعينها أيضاً .

والفئة الثالثة : هم الذين دخلوا فى الموحدين ابتداء من موقعة وهران إلى مالا نهاية . دون تقيد قبلى كذلك[١] .

وظاهر هذا النظام ينبئ عن عدالة عبد المؤمن . فالسابقون الأولون خليقون بالصدارة وأولئك الذين انخرطوا فى سلك الموحدين ، وهم مهزومون فى موقعة البحيرة ، ثم صمدوا فى فترة الصراع بين الموحدين والمرابطين ، ذلك الصراع الذى انتهى تقريباً بموقعة وهران التى قتل فيها تاشفين — سلطان المرابطين — سنة ٥٣٩ هـ ، أقول إن هؤلاء قد برهنوا على إخلاصهم لمبادئ الموحدين ، فهم خليقون بالتقدير ، وجديرون بأن يلوا السابقين الأولين فى المنزلة .

وهؤلاء الذين انضموا إلى الموحدين . بعد موقعة وهران وقد لاحت بشائر انتصار عبد المؤمن ، قد انضموا إلى الأقوى ، ليعيشوا ، فمنزلتهم الفئة الأخيرة . .

أما باطن هذا النظام . فهو تقويض قوة النظام الطبقى القبلى الذى وضعه المهدى .

وقد مهد عبد المؤمن بهذا ليتخذ خطوته الأخيرة فى تحقيق أمله المنشود . وهو تحطيم النظام الشورى ليحل محله نظاماً ملكياً .

وربما قام بنفس عبد المؤمن أن جعل الخلافة ميراثاً فى ذريته هو عين الحق والعدل لأن الموحدين قد تركهم ابن تومرت شبحاً هزيلاً فقد مات سنة ٥٢٤هـ وهو مهزوم فى موقعة البحيرة على ما أسلفنا . فاستطاع عبد المؤمن بدهائه وحكمته أن يخلق منهم قوة جبارة غلبت الدولة المرابطية وأسقطتها ،

---

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص٥٣ ، ٥٤ .

ثم استردت نفوذ المغاربة بالأندلس بعد أن صار نهباً للثوار الوطنيين ، وللنصارى ، ثم هو الذى أنشأ أعظم إمبراطورية مغربية فى التاريخ فضم إلى المغرب : الجزائر وتونس وطرابلس ثم بلاد الأندلس ، فكان طموحه إلى جعل الملك فى ذريته شيئاً مستساغاً عنده .

وخليق بالذكر هنا أن نشير إلى مدى دهاء عبد المؤمن فى أنه جعل الشيخ أبا حفص عمر — صاحب الحق الأول فى الخلافة — هو الذى أخذ البيعة لابنه الأمير « محمد » ومدى صرامته فى قتل القائد يصليتن الهرغى الذى حقد على عبد المؤمن فى إسناد ولاية العهد لابنه ، وفى قتل أخوى المهدى ابن تومرت لإظهارها الامتعاض لهذا التصرف [1] وكانت هذه الأعمال الجريئة التى قام بها عبد المؤمن من كسر شوكة قبائل مصمودة ، ومن جعل الحكم وراثياً فى ذريته ، ومن إعدامه المتذمرين من قرابة المهدى سبباً فى الثورة عليه ، ومجاهرة الكثير من الموحدين إياه باستنكارهم لكثير من أعماله ، بل تغالى بعضهم ففكر فى اغتياله ، ومن أجل هذا لم يجد عبد المؤمن مناصاً من العمل على استقدام قبيلته « كومية » من الجزائر — كما أشرنا فيما سبق — ليحمى بها ظهره ، وكانت نحو أربعين ألفاً .

٢

ولقد رأينا كيف كسر عبد المؤمن شوكة القبائل سياسياً فلم يعد لهيئات : العشرة والخمسين والسبعين التى ألفها المهدى ممثلة لقبائل الموحدين ، واتخذها مجالس استشارية — أى مفعول فى إدارة الدولة ، ولكن عبد المؤمن أبقى على النظام القبلى من الوجهة العسكرية ، ولم يغير ترتيب القبائل الذى صنعه المهدى ، إلا أنه وضع قبيلته كومية فى الترتيب العسكرى بعد قبيلة « هرغة » — قبيلة « ابن تومرت » .

---

(١) القرطاس ج ٢ ص١٥٣ .

وكان جيش عبد المؤمن يبلغ نحو نصف مليون جندى فى أوقات الحروب الجهادية ضد نصارى الأندلس . وينسب المؤرخون إلى عبد المؤمن ابتكار الخطة التربيعية فى الحرب . وهى عبارة عن أربعة صفوف فى كل جهة من الجهات الأربع الأصلية . وفى قلب هذا المربع يستقر القائد أو الخليفة الذى كثيراً ما كان يقود المعركة بنفسه ، تحيط به هالة من الفرسان والفدائيين .

ومتى تم تنظيم الجيش على النحو السابق ، وتأهب للقتال ، ضربت قبة الخليفة الحمراء فى مكانها بالقلب ورفع عليها العلم الموحدى الأبيض . يحيط بها الحرس القوى من المشاة والفرسان .

وكان الجيش أساسيًّا يعتمد على القبائل . إذ تقدم كل قبيلة ما فرض عليها من مشاة وفرسان عند الاستنفار العام . ولكن نظام التطوع كان يقوم إلى جانب الحشود القبيلية ، فتحشد أعداد ضخمة من الراغبين فى الجهاد ويسمون بالمطوعة[1] . وكان عبد المؤمن يدفع المتطوعين فى بدء المعركة قصد إرهاق العدو حتى إذا ما التقى الجيش النظامى به ، كسب النصر سهلا يسيراً[2] .

ولما اتسعت إمبراطورية عبد المؤمن ، واتسع فى الوقت نفسه نطاق الحروب بينه وبين النصارى فى المغرب والأندلس ولم تعد القبائل مصدراً كافياً لتأليف الجيوش الجرارة المطلوبة للجهاد فى سبيل الله ، أخذ عبد المؤمن يستميل العرب الهلالية ، ليستعين بهم فى قهر أعداء الإسلام ، ولا سيما أن عبد المؤمن لمس فى هؤلاء الأعراب بنفسه ، قوة المراس ، ورباطة الجأش ، وقد استطاع تحقيق رغبته[3]، إذ ألف من الهلاليين فرقاً بالجيش الموحدى . ولكن التجربة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب . ج٣ص١٧٤ .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس ص٤٤٨ .

(٣) وذلك بالعفو عن زللهم ، وإكرامهم بالمنح الكثيرة (المن بالإمامة ورقة ٧١ ا) .

أثبتت — وعلى الأخص في عهد يوسف بن عبد المؤمن — أن ضرر هؤلاء الأعراب أكثر من نفعهم ، لما كانوا يتصفون به من سرعة التقلب، والعناد ، وعدم الولاء من تلك الأمور التي تتنافى مع العسكرية القويمة .

وقد تميز عبد المؤمن بالاستماع إلى آراء قادته ، والانتفاع بتجاربهم في وضع خططه ، فكان قبيل الحرب يعقد مؤتمراً حربياً لدراسة أقوم السبل إلى وضع خطة الغزو ، وكسب النصر وكان لآراء قادة الأندلس مقام كبير ، واعتبار مرموق عند القيام بحرب ضد النصارى بالأندلس ، لما لهؤلاء القادة من إلمام تام بطرق بلادهم ، ومسالكها ، وفهم طبائعها ، وقد برهنت الأحداث على صحة آرائهم ، ونجاح خططهم[١] .

وقد اهتم عبد المؤمن أيضاً بالبحرية ، ولم يقف به الحد عند انضمام البحرية المرابطية إليه كما أسلفنا ، إذ عُني بإنشاء الأساطيل حتى بلغ الأسطول المغربي في عهده نحو أربعمائة قطعة ، وكانت نهضته بالبحرية أساساً لمجد البحرية الموحدية التي عمت شهرتها الآفاق في عهد حفيده الخليفة يعقوب المنصور الذي طلب الاستعانة بأسطوله بطل الحروب الصليبية الفذ «صلاح الدين الأيوبي» وكان أسطول عبد المؤمن يؤلف جسراً يربط المغرب بالأندلس فتنقل به الجنود والعتاد والمؤن بين العدوتين . كما أن هذا الأسطول قام بنصيب مشكور في انتصارات عبد المؤمن بالأندلس والمهدية وبقية الساحل الأفريقي .

وخليق بالذكر أن نشير إلى أن الجيش الموحدي لم يتمتع بقيادة حكيمة إلا في عهد عبد المؤمن . فقد اعتراه كثير من الفوضى بعد عهد عبد المؤمن ، إذ كانت قيادته تسند إلى المحظوظين دون نظر إلى الكفاءة ، كما أن الروح الاستشارية التي كانت تميز عهد عبد المؤمن ، قد اختفت في عهد ابنه يوسف الذي استأثر برأيه ، وضرب بآراء القادة عرض الحائط ، فكان ذلك سبباً في هزيمته بالأندلس في معركة « وبذة » سنة ٥٦٧ هـ ، وسبباً في كارثة

---

(١) المن بالإمامة ورقة ٤١ أ .

« شنترين » التى أصيب فيها « يوسف » بجرح قاتل ترفى بسببه فى سنة ٥٨٠هـ. على ما أسلفنا .

وكان يشرف على الجيش – فى عهد عبد المؤمن – ديوانان : الأول ديوان العسكر وعلى رأسه وزير من العسكريين . والثانى ديوان التمييز الذى كان يقوم بمهمة اختيار الجنود الصالحين للحرب . وكان التمييز يجرى قبيل القيـــام بحرب ما . ويقترن بالإنعام على الجند الذين فازوا بالصلاحية للقتال . وكان يلحق بالديوانين المذكورين . ديوان إنشاء خاص بالجيش(١) .

٣

وقد عرفنا فيما سبق أن المهدى كان يتخذ عشرة أشخاص من تابعيه بمثابة الوزراء ، وكان يطلق عليهم جماعة العشرة وأن عبد المؤمن قوض هذا النظام فألغى كل الجماعات الاستشارية ، لذلك كان من الضرورى أن يستعين بشخص أو أكثر فى إدارة ملكه الواسع . وكان أبو حفص عمر الهنتاتى أول من وزر للخليفة عبد المؤمن باعتباره كبير شيوخ الموحدين . ولما استقرت الأمور ، ربأ عبد المؤمن بمكانة الشيخ الجليل أبى حفص عمر عن الوزارة ثم استوزر كاتبه الأول « أبا جعفر بن عطية » وظل ابن عطية يجمع بين الوزارة والكتابة ، حتى قتله عبد المؤمن فى سنة ٥٥٣هـ ، واستصفى أمواله .

ثم وزر له – بعد ابن عطية – شخص من قبيلته كومية ، يدعى « عبد السلام الكومى » واستمرت وزارة عبد السلام الكومى هذا إلى أن أرسل

---

(١) المن بالإمامة ورقة ١١٥ب.

إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً فى شهورسنة ٥٥٧ هـ[١] . ثم تولى الوزارة الأمير «عمر بن عبد المؤمن» وظل بها حتى توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨هـ .

وكان وزير عبد المؤمن يماثل رئيس الوزراء فى عصرنا الحاضر إذ كان الهيئة التنفيذية للدولة ، ويشرف بنفسه على أشغال البرين أو العدوتين (المغرب والأندلس) ، وبجانبه بعض الرجال المخلصين الذين يتولون إدارة الدولة — وكانوا بمثابة الوزراء فى عصرنا — وهم : متولى المجابى[٢] ، ومتولى النفقات والمحاسبة[٣] ، ومتولى أعمال المستخلص[٤] . وصاحب ديوان الأعمال المخزنية الذى يتمتع بسلطة كبيرة . فهو يراقب إيراد الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف وله حق الإشراف على العمال ومحاسبتهم ، والقبض عليهم[٥] . وله معاونون بكل الأقاليم يسمون المشرفين ، والمشرفون بدورهم لهم معاونون . مثل خازن المال ، وخازن الطعام . وكثيراً ما تعرض هؤلاء المشرفون للاتهامات والمطاردات والحساب العسير .

ومن المناصب الكبرى أيضاً ، منصب صاحب الشرطة ، الذى كان ذا أهمية خاصة فى فترات الاضطراب والفوضى ، كما كان أداة الخليفة

---

(١) المعجب ص ١٢٨

(٢) متولى المجابى . هو المختص بتحصيل الضرائب والجزيات بمختلف أنواعها ، وله عمال فى المدن والبوادى ، وله حق طلب معاونة صاحب الشرطة . أو قائد الحامية الموحدية فى المكان الذى يجمع فيه الضرائب ، لإرغام القبائل المتخلفة عن دفع الضرائب .

(٣) فهو بمثابة وزير الخزانة فى عصرنا الحاضر .

(٤) المستخلص (بصيغة اسم المفعول) هو نصيب دار الخلافة من الأموال . والمستخلص (بصيغة اسم الفاعل) هو المشرف على تحصيل الأموال الخليفية من كل باب من أبواب الدخل .

(٥) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٠١ — ٢٣٦ .

عبد المؤمن فى إقرار العدل ، وقمع الظلم ، والتنكيل بالخارجين على الأمن والاستقرار .

ونرى مما ذكر أن عبد المؤمن كان مهتماً إلى أبلغ الحدود ، بتنظيم الأمور الاقتصادية بدولته ، وأن هؤلاء القائمين بالسلطة التنفيذية — إذا استثنينا صاحب الشرطة — كانوا أداة لجمع المال ، ومراقبة أبواب جلبه وإنفاقه .

وقد كانت أبواب الدخل محدودة فى بادئ الأمر ، إذ كانت مقصورة على ما قرره الشرع الشريف مثل الزكاة وأخماس غنائم الحرب . وكثيراً ما أكد عبد المؤمن على رجال دولته بأن يلتزموا فى جمع الأموال حدود الشرع الشريف [1] . وكانت هذه السياسة المالية نابعة من تعاليم المهدى ابن تومرت الذى كثيراً ما ندد بالدولة المرابطية لمخالفتها الشريعة فيما ركنت إليه أخيراً من جمع المغارم والمكوس . ولكن عبد المؤمن لم يستطع اتباع هذه السياسة حتى النهاية . إذ اتسعت أعمال الدولة الموحدية ، وتشعبت مسئولياتها العسكرية والمدنية بالمغرب والأندلس . وكانت الحروب الجهادية بالأندلس من أشد العوامل التى ألجأت عبد المؤمن إلى التفكير فى اجتلاب الأموال الحلال . وكان من الضرورى أن يلجأ إلى العلماء ليبحثوا له عن فتوى دينية تبيح له التوسع فى جمع المال فأفتوا بأن عبد المؤمن قد فتح المغرب الكبير (الأقصى . والأوسط . والأدنى) بالسيف . ومن هنا جاز له أن يفرض الخراج على مملكته . فأصدر عبد المؤمن أمره بمسح جميع بلاد المغرب من برقة شرقاً حتى أقصى السوس غرباً ، وأسقط منها الثلث . مقابل الجبال والأنهار والصحراء والطرق . وفرض الخراج على الثلثين [2] . ولم يحجم أيضاً عن فرض الضرائب والمكوس على أنواع المعاملات من بيع وشراء وصادر ووارد . وغير ذلك مما كان متبعاً فى عامة الدول بالعصور الوسطى — وكانت حجته الشرعية فى هذا أنه يجمع الأموال للجهاد فى سبيل الله .

---

(١) ليفى بروفنسال : رسائل موحدية : الرسالة السابقة ص ٢١ .

(٢) القرطاس ج ٢ ص ١٦١ .

هذا إلى ما كان يجمعه من غنائم الحروب المظفرة ، ومصادرة أموال الخصوم والعمال الذين تثبت خيانتهم لأموال الدولة .

٤

ومن المناصب الدينية الهامة فى عهد عبد المؤمن . منصب القضاء . ومنصب الشورى . ثم منصب الإمامة بالمساجد الجامعة . وكان رئيس القضاة يعرف « بقاضى الجماعة » ويعين بقرار خليفى ، فلا يكون لأحد سلطان عليه سوى الخليفة وهو الذ يشرف على قضاء الإقليم من حيث تعيين القضاة ، ونقلهم ، ومحاسبتهم على أعمالهم ، وعزل المستهترين منهم ، أومن يثبت انحرافه عن الصراط المستقيم . دون أن يعترض الوالى عليه فى شىء ما .

وكان الأندلسيون يستأثرون بمناصب القضاء فى بلادهم . ولم يحد خلفاء الموحدين عن هذا إلا فى القليل النادر[1] . على حين كان الخلفاء يعينون من فقهاء الأندلس قضاة بالمغرب فى كثير من الأحيان . ولا يلقى هذا أى امتعاض من فقهاء المغرب ، الذين كانوا يؤمنون بفضل الأندلسيين وتبحرهم فى علوم الدين بصفة خاصة . ويلحق بمناصب القضاء منصب صاحب الشورى . الذى كان يعين فيه من الفقهاء الممتازون أيضاً ، وتنحصر مهمة صاحب الشورى بإفتاء الناس فيما يشكل عليهم من أمور الدين . ومن هنا كان صاحب الشورى مختلطاً دائماً بالجماهير ، مما جعل القاضى أعظم منه هيبة[2] . وكان لصاحب الشورى معاون يدعى « صاحب الأحكام » وكان لصاحب الأحكام

---

(١) وذلك مثل تولية أبى عبد الله « محمد بن يخلفتن » التلمسانى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة وتولية ابن جبل الهمدانى الوهرانى قضاء أشبيلية .

(٢) التكملة جـ ٢ ص ٥٦٢ .

هذا حق فى إبداء الرأى فى الأحكام الشرعية[١] .

وكان للمواريث خطة قائمة بذاتها نظراً لأهميتها ودقتها . ويقوم بمهمتها الفقهاء الموثقون[٢] . ويلحق بالقضاء أيضاً .

خطة الحسبة : وكان لفقهاء الحسبة سلطان كبير فى الأسواق . فهم يشرفون على صحة المكاييل والموازين ، وعلى سلامة السلع ونظافتها ، وضبط التعامل و . . . إلخ[٣] .

أما وظائف الصلاة فكان يرأسها « صاحب الصلاة » وهذا المنصب يماثل منصب قاضى الجماعة فى الأهمية . إذ كان « صاحب الصلاة » يعين بقرار من الخليفة مباشرة أيضاً . وليس للولاة سلطان عليه .

وكان صاحب الصلاة يعين أئمة المساجد ، ويمدهم بإرشاداته ، ويفتش على أعمالهم ، وينظر فى شكاياتهم ويقضى فى جميع مطالبهم ، وفى العادة كان صاحب الصلاة يختار من الفقهاء الخطباء ، وكثيراً ما كان يتقدم بنفسه لإلقاء الخطب فى الجمع والأعياد بالمساجد الكبرى . مثل مسجد الكتبية بمراكش ومسجد قرطبة الأعظم ، ومسجد أشبيلية الأعظم[٤] .

---

(١) التكملة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) بينا ذلك فى باب الثقافة عند الكلام على الفقه . وانظر التكملة ج ١ ص ٦٧ .

(٣) التكملة ج ١ ص٨٢ .

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٥ .

الباب الرابع

الثقافة والفن

١

مراكز الثقافة ومعاهدها

١ — مراكز الثقافة بالمغرب الأقصى

حفظ ابن تومرت « صاحب الدعوة الموحدية — القرآن الكريم ، وجوّده، وألم بقدر من علوم الدين واللغة العربية بمسجد قريته « إيجلى » الواقعة بجبل الأطلس الصغير ببلاد السوس ، وكان هذا فى أواخر القرن الخامس الهجرى وفى أحضان الدولة المرابطية — التى ظهر الموحدون على أنقاضها — كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، فإذا كان هذا هو نصيب القرى الجبلية من التعليم حينئذ ، فكيف يكون نصيب المدن المغربية الشهيرة من الثقافة والعلم مثل : فاس ، ومراكش ، وسبتة ، وسلا ، ومكناس ، وأصيلا ووجدة وطنجة وغيرها من مدن المغرب الأقصى . ومثل : قرطبة وأشبيلية ، وغرناطة ، وبلنسية ، ومرسيه ، وشاطبه ، وجيان ، وباجة ، وسرقسطة وألمرية وبطليوس وغيرها من مدن الأندلس المتألقة بنور المعارف الجامعة . ومثل تلمسان ، ووهران ، وبجاية ، ومدينة الجزائر ببلاد الجزائر ، ومثل تونس والمهدية بأفريقية[1] ، هذا بالإضافة إلى المدن التى أحدثها عبد المؤمن بالمغرب

(١) كان بإفريقية (بلاد تونس الآن) أعظم مركز حضارى وثقافى ببلاد المغرب ألا وهو مدينة « القيروان » التى خربها العرب الهلاليون حين انتصروا على آل باديس فى موقعة « حيدران » سنة ٤٤٣ هـ وقد هدموا جامعتها ، وفى هذا يقول المراكشى : « ... وكانت القيروان ... منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب، دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ، ومناقبه ، وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة » (المعجب ص ٣٧) .

والأندلس مثل رباط الفتح ، وتازة ، وجبل طارق !

وأنه لاسبيل إلى التعريف بهذه المراكز جميعها فى هذا المقام فهى فى حاجة إلى بحث بعينه ، وجهد مستقل ولكننا سنحاول التعريف بأشهرها ، وفاء بهذا البحث .

١
فاس (١)

أنشأ الإمام « إدريس الثانى » مدينة « فاس » سنة ١٩٢ هـ . ولم يمض غير قليل من الزمن حتى شقت « فاس » طريقها إلى الشهرة والزعامة بين مدن المغرب ، سياسياً ، وثقافياً ، وحضارياً ، وكأن ذلك كان استجابة من الله لهذا الإمام الصالح ، فإنه حين شرع فى بنائها رفع يديه قائلا : « اللهم اجعلها دار علم وفقه ، يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها » . ثم أخذ الفأس بيده ، وابتدأ حفر الأساس . وينقل ابن أبى زرع عن مؤرخ يدعى « ابن غالب » أن الإمام إدريس (الثانى) لما فرغ من بناء هذه المدينة ، وأقبلت صلاة الجمعة ، صعد المنبر ، وخطب الناس ، ثم رفع يديه فى نهاية الخطبة وقال : « اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ، ولا مفاخرة ، ولا سمعة ، ولا مكابرة ، وإنما أردت ببنائها أن تعبد بها ، ويتلى بها كتابك،

(١) ذكر المؤرخون آراء كثيرة فى سبب تسمية مدينة « فاس » بهذا الاسم. ومنها أن إدريس الثانى رفع الفأس وابتدأ حفر هذه المدينة . ومنها أن أحد الرهبان أخبر « إدريس » أن المكان الذى اختير لإقامة مدينة « فاس » كانت تقوم عليه مدينة تسبق الإسلام بنحو ألف وسبعمائة سنة . وكان اسمها « ساف » فرغب إدريس فى بقاء حروف الاسم القديم مع تغيير النطق الجاهلى . فسميت المدينة « فاس » (انظر الآراء جميعها بكتاب القرطاس لابن أبى زرع ج ١ ص ٦٠ — ٦٢) .

وتقام بها حدودك ، وشرائع دينك ، وسنة نبيك – صلى الله عليه وسلم – ما أبقيت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير ، وأعنهم عليه ، وأكفهم مؤونة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق ، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق ، إنك على كل شيء قدير » ، فأمن الناس على دعائه – رضى الله عنه – ! ![1]

واتخذها إدريس عاصمة ، فكانت مهوى أفئدة الناس من مختلف مدن المغرب ، كما هاجر إليها كثير من عرب القيروان ، ومن عرب الحجاز والشام ومصر ، والأندلس فى عهد إدريس الثانى وبعده ، وتنافس سكانها جميعاً فى العلم والأدب والفن ، وفى الميادين الاقتصادية ، من زراعة ، وصناعة ، وتجارة تدفعهم نحو النهضة طبيعة فاس الممتازة[2] التى كان لها أثر فى حدة ذكائهم .

---

(١) ابن أبى زرع . القرطاس ج ١ ص ٦٨ .

(٢) فمناخها جميل . ومناظرها فاتنة ، فيها من صنوف الأزهار والفواكه مالا يقع تحت حصر ، وتختص عدوة القرويين بكثرة الأنهار والعيون والآبار العذبة ، ومن فواكهها الرمان الذى لامثيل له بالمغرب حلاوة ولذة ، والتين ، والعنب والخوخ والجوز ، واللوز والسفرجل والأترج وغير ذلك . ويصف ابن أبى زرع سكان فاس قائلا : «..سكان مدينة فاس أحدّ أهل المغرب أذهاناً وأشدهم فطنة ، وأرجحهم عقلا ، وألينهم قلوباً وأكثرهم صدقة ، وأعزهم نفوساً ، وألطفهم شمائل وأقلهم خلافاً على الملوك . وأكثرهم طاعة لحكامهم وولاتهم .. ويسمون على أهل بلاد المغرب عملا وفقهاً وديناً (القرطاس ج ١ ص ٤٧) . ويصف المراكشى مدينة فاس وأهلها قائلا : « مدينة فاس ، هى حاضرة المغرب " علمياً " فى وقتنا " حوالى سنة ٦١٥ هـ " وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان ، وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس . كما كانت القيروان حاضرة المغرب . فلما اضطرب أمر القيروان بعَيْث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبى عامر ، رحل من هذه وهذى (أى من القيروان وقرطبة) من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة . فنزل أكثرهم مدينة فاس فهى على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ، ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات (المعجب ص ٢٣٨ – ٢٣٩) .

وقد أنشئ جامع القرويين بمدينة فاس سنة ٢٤٥ هـ[1] . فكان بناؤه فتحاً جديداً بهذه المدينة العظيمة ، إذ أثل مجدها وأذاع شهرتها ، وأبقى ذكرها وصيرها عن جدارة ، حاضرة المغرب . وأم مدنه . فى مطلع القرن الرابع الهجرى استطاع جامع القرويين – الذى أنشئ قبل الأزهر الشريف بمصر بمائة وأربع عشرة سنة – أن يحمل عبء تعليم علوم الدين واللغة العربية بكفاءة تامة . ولما دمر الهلاليون مدينة القيروان وجامعتها ، اجتذبت جامعة القرويين علماء القيروان، ثم اجتذبت علماء الأندلس الفارين من بطش النصارى ، ومجون ملوك الطوائف ، فكانت مدينة فاس بهؤلاء العلماء ، وبما أنتجوه من نهضة علمية فائقة . تنافس بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق ، وكانت بحق المركز الثقافى الأول بين مدن أقطار المغرب العربى ، كما كانت حصن علماء المالكية الحصين فى العالم الإسلامى ، فما موقف « عبد المؤمن ابن على » من مدينة « فاس » وعلماء المالكية بها ؟ يقرر ابن أبى زرع أن الموحدين حينما آل إليهم حكم المغرب ، عمدوا إلى تعيين خطباء المساجد من بين العلماء الذين يؤمنون بمبادئ ابن تومرت فى التوحيد والمهدوية ، والذين يحفظون التوحيد باللسان البربرى ، ولسنا نرى غضاضة فى كون الموحدين قد جعلوا خطباء المساجد من بين علمائهم ، إذ هذا إجراء طبيعى تحتمه طبيعة الحكم ، فمن الضرورى أن يدعو الخطيب لولى الأمر ، وقد كانت خطبة الجمعة الموحدية تشمل على الدعاء للمهدى بن تومرت – الإمام المعصوم والمهدى المعلوم – ثم الدعاء لخليفته أمير المؤمنين « عبد المؤمن بن على » .

---

(١) أسس هذا المسجد امرأة صالحة تدعى « فاطمة » وتكنى أم القاسم أو أم البنين . وهى من عرب القيروان الذين هاجروا إلى فاس حباً فى الإمام إدريس رضى الله عنه .

٢

مراكش

أسس السلطان « يوسف بن تاشفين » مدينة « مراكش » ببلاد السوس جنوبى المغرب سنة ٤٥٤ هـ لتكون حاضرة للدولة المرابطية[١] .

ولم يمض على تأسيس مراكش أكثر من أربعين عاماً ، حتى كانت المركز الثقافى الثانى بالمغرب (باعتبار مدينة فاس المركز الأول) . ويرجع الفضل فى نهضة مراكش العلمية إلى اهتمام يوسف بن تاشفين بالعلم والعلماء ، ولا سيما بعد أن ضم الأندلس إلى المغرب ، وكانت الأندلس فى أوج قوتها العلمية والحضارية والأدبية فى عهد ملوك الطوائف الذين استسلموا لابن تاشفين لينقذ الأندلس من طغيان الصليبيين . وكان يوسف بن تاشفين — على الرغم من نشأته الصحراوية وبعده عن التعليم المنظم[٢] يتمتع بشخصية فذة ويستجيب لدواعى النهضة والتقدم والتحضر[٣] . فما كاد يعبر إلى الأندلس ، حتى بهرته حضارتها ورأى من الضرورى أن يغترف منها للمغرب . كما أعجب

---

(١) كان شعور « يوسف بن تاشفين » مرتبطاً بوطنه الصحراوى الأول وسط قبيلته « لمتونة » التى كثيراً ما كانت تنشب الحرب بينها وبين القبائل السودانية ، فأراد يوسف أن يعيش بالجنوب ليكون على مقربة من إنجاد قبيلته إذا دعت الضرورة . ومن جهة أخرى فإن قبيلة مصمودة — التى هى أعز قبائل المغرب وأشدها بأساً — تنتشر فى جهات « مراكش » فأراد يوسف أن يشرف عليها بنفسه ، حتى لا تحدثها نفسها بالثورة على عرشه .

(٢) تتلمذ يوسف بن تاشفين على الشيخ عبد الله بن ياسين منشئ الدولة المرابطية وزعيمها الروحى فلعله تأثر بأفكاره .

(٣) وعلى الرغم من أن يوسف اقتبس كثيراً من حضارة الأندلس ، فإنه ظل متمسكاً بعاداته الصحراوية من لبس الصوف وأكل لحم الإبل ولم يتحول عن هذا على الرغم من أنه كان أعظم ملك بالمغرب الإسلامى فى حينه .

« يوسف » بعلماء الأندلس وأدبائها ، ورجال الفن والصناعات المختلفة بها فرغب إلى صفوة مختارة منهم ، فى أن يعيشوا بجواره بمراكش ، ولم تلبث هذه الطائفة — متعاونة مع علماء مراكش — أن غيرت وجهة الحياة بمراكش وصيرتها — فى بضع سنين — مدينة علمية شهيرة ، خليقة بأن تكون حاضرة لمملكة المرابطين التى كانت تضم المغربين : الأقصى والأوسط والأندلس .
ويؤيد نهضة مراكش هذه ، قول المراكشى : ... فانقطع إلى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة (الأندلسية) من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته [١] ، حضرة بن العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه (السلطان على بن يوسف بن تاشفين) ، من أعيان الكتاب ، وفرسان البلاغة : مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار [٢] .

وقد سار السلطان على بن يوسف ، على نهج أبيه فى تشجيع العلم والعلماء ، وإكبار الفقهاء بصفة خاصة ، حتى كان « لايقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً ، لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس [٣] ، ولما آل الأمر إلى الموحدين سنة ٥٤١ هـ اتخذوا « مراكش » عاصمة لهم كذلك . فابتدأت مراكش عهداً ثقافيًّا جديداً ، يختلف كثيراً عن عهد المرابطين ، فقد كانت الثقافة المرابطية — فى عمومها — مستوردة من القيروان والأندلس ، دون أدنى تصرف ، أما الثقافة الموحدية التى وضع أساسها المهدى بن تومرت ، فقد طبعت — بفضل عبقرية ابن تومرت — بطابع مغربى محلى ، فابن تومرت درس بالمغرب والمشرق ، ثم عاد إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً

---

(١) الحضرة والحاضرة بمعنى واحد . وهى العاصمة .

(٢) المعجب — ص ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق — ص ١١٠ .

وارياً من الدين ، على حد تعبير ابن خلدون . وكان يحمل من المشرق أفكاراً إصلاحية جديدة . كما تعلم بالمشرق أيضاً التوحيد الكلامى ، وطائفة من مبادئ المهدوية . ولكنه صار فى النهاية ذا مذهب خاص به . فتوحيده الكلامى ليس أشعريـًّا بحتاً ، ومهدويته ليست شيعية متطرفة على نحو مهدوية الفاطميين مثلا . ومن هنا خرجت الثقافة المغربية لأول مرة فى التاريخ من التبعية ، وهذا أعظم حدث ثقافى وقع فى عهد الدولة الموحدية .

ب – مراكز الثقافة بالأندلس[1]

لاسبيل لنا فى هذا البحث إلى الحديث المفصل عن مراكز الثقافة الأندلسية إذ كانت كل مدن الأندلس – كبراها وصغراها – مراكز ثقافية ، وقد ظلت « مدينة قرطبة » تتزعم مدن الأندلس : سياسيـًّا وعلميـًّا[2] . حتى انتهاء عهد الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ . فلما انقسمت الأندلس بعد هذا إلى عدة ممالك – فيما عرف بعهد ملوك الطوائف – توزعت زعامة قرطبة العلمية ، بين حواضر هذه الممالك . فكان بجانب قرطبة مدن كثيرة اشتهرت بالعلم والأدب والفن ،

---

(١) يقول المقرى : « وأما حال أهل الأندلس فى فنون العلم ، فتحقيق الإنصاف فى شأنهم ، أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم ، يجتهد فى أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ، لأن عندهم هذا فى نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه • وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع حاجة (نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٥) .

(٢) على الرغم من أن الأندلس كانت تتبع مراكش سياسيـًّا فى عهد المرابطين والموحدين ، فإن المغاربة لم يغمطوها حقها من التكريم والاعتراف بسيادتها العلمية ، فاعتبروها حاضرة المغرب ثقافيا . فيقول المراكشى : « . . وجزيرة الأندلس هى حاضرة المغرب الأقصى وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ، ومعدودون فيها ، فهى مطلع شموس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها » (المعجب – ص ١٠٤) .

وصارت مقصد الطلاب من كل أنحاء العالم ، منها : أشبيلية ، وبطليوس ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وألمرية .

فأما قرطبة : فقد نافست — فى عهد الخلافة الأموية — بغداد حاضرة العباسيين والقاهرة حاضرة الفاطميين ، منافسة ثقافية تثير الإعجاب ، وتستحق التقدير ، وكانت مركز إشعاع للحضارة العربية بأوربا ، كما يرجع إليها الفضل الأكبر فى بعث النهضة الأوربية الحديثة ، إذ سبقت فى هذا الميدان « أثينا » و« روما » . ومن أبرز العوامل فى هذا السبق العلمى ، أن الخلفاء الأمويين كانوا علماء أدباء يهتمون بالثقافة ويعتبرونها أسمى المطالب ، ويهيئون أسبابها للشعب . فهذا هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى يبعث بألف دينار ذهباً إلى أبى الفرج الأصفهانى — مؤلف كتاب الأغانى — ليرسل إليه نسخة من كتابه قبل أن يخرجه للناس بالعراق . فيستجيب إليه الأصفهانى ، وقد كان الحكم هذا ، شغوفاً بجمع الكتب النادرة يرسل فى طلبها والبحث عنها فى جميع أنحاء العالم ، حتى جمع مكتبة أربت على نصف مليون كتاب فى مختلف العلوم والفنون والآداب . وربما كانت أعظم مكتبة فى العصور الوسطى ، لا من حيث عدد كتبها بل فى كيفية تكوينها وأنواع الكتب بها . وكان الحكم يقرأ بعضها ، ويعلق على كثير منها بخط يده تعليقات صائبة والناس على دين ملوكهم ..

وقد بلغت قرطبة مبلغاً كبيراً فى الشهرة العامية . فما ذكره المؤرخون . أنه كان بالجهة الشرقية منها ، مائة وسبعون امرأة كلهن كنّ يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ! ! وأنه كان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل قرية منها منبر ، وفقيه ، ومقلس (تكون الفتيا له فى الأحكام والشريعة) ؛ وكان لا يقلس من العلماء إلا من حفظ الموطأ . وقيل : من حفظ عشرة آلاف حديث . وكان هؤلاء المقلسون يصلون الجمعة دائماً مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال قراهم .

ومن مشاهير علماء قرطبة . الفيلسوف ابن رشد . أشهر فلاسفة الأندلس

وأوربا فى العصور الوسطى . والعالم المجتهد العظيم ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) الذى بلغت تآليفه نحو أربعمائة كتاب . وأحمد بن أبان — رئيس شرطة قرطبة — الذى وضع كتاباً سماه « العالم » فى مائة مجلد . وأبو مروان حيان ابن خلف (توفى سنة ٤٦٩ هـ) صاحب كتاب « المبين » فى تاريخ الأندلس وهو فى ستين مجلداً و... إلخ . وقد اهتم عبد المؤمن بمدينة قرطبة . وأمر بجعلها مركزاً للجيوش المغربية وحاضرة للحكم الموحدى . إذ كان الموحدون قد اتخذوا أشبيلية حاضرة للأندلس فى بادئ الأمر .

وأما « **أشبيلية** » فقد ارتفع ذكرها حين اتخذها « بنو عباد » حاضرة لملكهم — فى عهد ملوك الطوائف — وأضحت حاضرة الفن والأدب فى عهد المعتمد ابن عباد ذلك الملك الأديب الشاعر الذائع الصيت الذي حمله يوسف ابن تاشفين مكبلا[١] ، حيث عاش أسيراً بمدينة إغمات [٢] حتى وافته

---

(١) بعد أن هزم يوسف بن تاشفين نصارى الأندلس فى موقعة الزلاقة الخالدة سنة ٤٧٩ هـ ، رأى أن خير ضمان لصيانة الحكم الإسلامى بالأندلس . هو إلغاء عهد ملوك الطوائف . وتوحيد الأندلس تحت رايته . فتمرد المعتمد بن عباد على هذا الرأى . فأسره ابن تاشفين ، ولم يقتله لأنه هو الذى استقدم يوسف إلى الأندلس .

(٢) وفى هذا يقول المعتمد بن عباد — بعد أن نزل بأغمات أسيراً كسيراً حسيراً :

لما تماسكت الدموع وتنبه القلب الصديع

قالوا الخضوع سياسة فَلْيَبْدُ منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضو ع على فمى السم النقيع

إن تستلب منى الدنا ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

لم أستلب شرف الطبا ع أيسلب الشرف الرفيع

قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع

وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع

وبذلت نفسى كى تسيل إذا يسيل بها النجيع =

منيته ، ودفن بأغمات سنة ٤٨٧ هـ[١] وكان شجاعاً أبيّاً كريماً . ويذكر المراكشى أن المعتمد كان شعره كأنه الحلل المنشرة ، وأنه اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس . وليس من شك فى أن مدينة أشبيلية قد ازدهر بها الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة فى عهد المعتمد بن عباد الذى يعتبر من أطول الملوك باعاً فى الشعر فى عامة التاريخ العربى .

وكان من شعراء هذا الملك الشاعر : ابن زيدون[٢] وابن

= أجلى تأخر لم يكن ... بهواى ذلى والخشوع
ماسرت قط إلى القتال ... وكان من أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

(المعجب ص ٨٩ — ٩٠) .

(١) وقد رثاه الشعراء . ومن بينهم ابن اللبانة الذى رثاه بقصيدة طويلة جاء فيها :

لكل شىء من الأشياء مقيات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرض قد كتمت ... سريرة العالم العلوى أغمات . . إلخ

(٢) كان ابن زيدون شاعراً فى بلاط بنى جهور بقرطبة ثم تحول إلى بنى عباد — بأشبيلية ، وفيها قال قصيدته الشهيرة — يتشوق إلى ولادة بنت المهدى وكانت بقرطبة — التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

والتى جاء فيها :

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لو لا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غضون الأنس دانية ... قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليس عهدكم ، عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا =

وهبون[١] ، وابن عمار[٢] .

وبعد هذه النهضة الأدبية التى أتيحت لمدينة أشبيلية ، اعتراها شيء من

= ويقول متشوقا إلى ولادة ، فى قصيدة أخرى :

هل تذكرون غريباً عاده شجن
من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
يخفى لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى لديه السر والعلن !!

(١) وكان ابن وهبون هذا من الشعراء الماجنين ، ومع ذلك ألفه المعتمد لبراعته الشعرية . ومن قوله :

علل فؤادك قد أبل عليل ... واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك ألف عام كامل ... ما كان حقًّا أن يقال طويل
لا يستبيك الهم نفسك عنوة ... والكأس سيف فى يديك صقيل
بالعقل تزدحم الهموم على الفتى ... فالعقل عندى أن تزول عقول !!

(٢) وكان ابن عمار — فوق أدبه — سياسيًّا ماهراً . وكثيراً ما أرسله المعتمد سفيراً إلى الفونسو السادس ملك قشتالة فكانت سفارته تكلل بالنجاح . وقد مدح ابن عمار المعتضد والد المعتمد . مما يقوم دليلا على أنه خدم مدة طويلة بالدولة العبادية . ومن قوله يمدح المعتضد :

لاتطلبوا فى الحب عزًّا إنما ... عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم ... ياحبذاه وحبذا أضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه ... زيًّا فخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول وإنما ... شرف المهند أن ترق شفاره

وقد انتهى أمر ابن عمار بالقتل على يد صديقه الحميم ، ومليكه الأديب المعتمد ابن عباد . إذ قد أوغر أعداؤه قلب المعتمد عليه — ولم تنفعه شفاعة الناس ولا شفاعة الشعر . إذ توسل ابن عمار إلى المعتمد بقصيدة طويلة جاء فيها :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح =

الخمول فى عهد الدولة المرابطية التى اتخذت مدينة « قرطبة » حاضرة لها بالأندلس . ثم عاود أشبيلية النشاط مرة أخرى فى أكثر أيام « عبد المؤمن ابن على » إذ اتخذ الموحدون أشبيلية باعتبارها عاصمة غربى الأندلس مركزاً لجيوشهم ومقراً لدعوتهم بالأندلس . بعد دخولهم الأندلس سنة ٥٤١ هـ واستيلائهم على غربى الأندلس[1] قبل جهات الأندلس الأخرى . ولكن عبد المؤمن أمر بنقل مقر الحكم إلى قرطبة . وظل أمر الموحدين بقرطبة حتى عادت إلى أشبيلية قوتها فى عهد الخليفة الثانى يوسف بن عبد المؤمن .

وكانت مدينة « بطليوس » — حاضرة بنى الأفطس — من المراكز الثقافية الهامة فى عهد ملوك الطوائف ، ويرجع الفضل فى هذا إلى ولع ملوكهم بالعلوم الدينية والأدبية . ولا سيما « المظفر » الذى كان من أحرص الناس على جمع علوم الأدب والنحو واللغة والتاريخ . وقد ألف كتاباً فى التاريخ فى نحو عشرة أجزاء ، ذكره المراكشي وقال : وقفت على أكثره[2] ، وكانت أيام « بطليوس » فى عهد المظفر هذا أعياداً ومواسم أدبية وعلمية . ولما تولى ابنه « المتوكل » لم يتخلف عن أبيه فى تعهد الحياة الثقافية بالرعاية فقد كان المتوكل شاعراً شهيراً . وظلت بطليوس مركزاً هاماً للعلوم والآداب حتى بطش بها المرابطون الذين قتلوا « المتوكل » وولديه « الفضل » و« العباس » فى غرة سنة ٤٨٥ هـ ، لامتناعهم عن الخضوع لأمر يوسف بن تاشفين الذى يقضى بإلغاء ممالك ملوك الطوائف . وقد رثى دولة بنى الأفطس « ببطليوس » الشاعر المشهور عبد المجيد بن عبدون بقصيدة خالدة عدد فيها أعظم المصائب التى نزلت بالملوك فى التاريخ البشرى ، ثم عرج على الخسارة التى نزلت بالمسلمين فى إزهاق أرواح بنى الأفطس . ومطلعها :

= وإن كان بين الخطتين مزية   فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع   عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا ..

(١) ابن الآبار = الحلة السيراء — ص ٢٠٤ .

(٢) المعجب — ص ٤٨ — ٥١ .

الدهر يفجع بعد العين بالأثر — فما البكاء على الأشباح والصور؟
ماالليالى أقال الله عثرتنا — من الليالى وخانتها يد الغير ؟
فى كل حين لها فى كل جارحة — منا جراح وإن زاغت عن البصر

ومنها :

هوت « بداراً » وفلت غرب قاتله — وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بنى ساسان ماوهبت — ولم تدع لبنى يونان من أثر
وأنفذت فى كليب حكمها ورمت — مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

ومنها :

وخضبت شيب عثمان دماً وخطت — إلى الزبير ولم تستحى من عمر
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة — فدت علياً بمن شاءت من البشر
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم — تبق الخلافة بين الكأس والوتر ! !
وأسبلت دمعة الروح الأمين على — دم « بفخ » لآل المصطفى هدر

إلى أن قال :

بنى المظفر والأيام لا برحت — مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت — بمثاله ليلة فى غابر العمر
من للأسرة ، أومن للأعنة ، أو — من للأسنة يهديها إلى الثغر ؟ !
من لليراعة أو من للبراعة ، أو — من للسماحة أو للنفع والضر

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته — قلوبنا وعيون الأنجم الزهر ؟
أين الإباء الذى أرسوا قواعده — على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه — فلم يرد أحد منها على كدر ؟

وقد اهتم الموحدون بأمر هذه المدينة العظيمة . التى تعتبر من أعظم حصون الأندلس فى الشمال الغربى والتى تتاخم مملكة قشتالة أعظم ممالك النصارى . وأكثرها تطلعاً إلى إزالة حكم المسلمين بالأندلس . وكانت بطليوس فى عهد الموحدين تستمد حياتها الثقافية من مدينة أشبيلية . حاضرة الموحدين بالأندلس .

(حـ) مراكز الثقافة بالجزائر وأفريقية (تونس)

١ – الجزائر

تعتبر مدينة «تاهرت»[١] أقدم مركز ثقافى ببلاد الجزائر، فقد أنشأها الإمام عبد الرحمن بن رستم الفارسى الخارجى الأباضى سنة ١٤٤ هـ. وكان ابن رستم من العلماء المتمكنين فى علوم الدين والأدب والفلك وقد ابتدأ بناء المدينة بتأسيس مسجد كبير ليكون مكاناً للصلاة والتدريس فى آن واحد. وتصدر للتدريس فيه على الرغم من ضيق وقته، وشيخوخته، وانتشار عيون الدولة العباسية حوله. وقد أقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والفنادق والأسواق فى كل الأرجاء بهذه المدينة الناشئة، فصارت

(١) وصف «اليعقوبى» مدينة «تاهرت فى القرن الثالث الهجرى بقوله: . . . والمدينة العظمى «تاهرت» جليلة القدر، عظيمة الأمر، تسمى عراق المغرب؛ ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى بقواه: (تاهرت) بلد كبير كثير الخير، رحب طيب، رشيق الأسواق غزير الماء. جيد الأهل، محكم الرصف، عجيب الوصف، ووصفها «البكرى» فى القرن الخامس الهجرى بقوله: ومدينة تاهرت مدينة مسورة، لها أربعة أبواب، باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن. وهى فى سفح جبل يقال له «جزول» وإن لها قصبة مطلة على السوق تسمى «المعصومة» وتقع على نهر يسمى «منيه» ويصفها صاحب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى بقوله: ومن مدن المغرب الأوسط (الجزائر) المشهورة، مدينة تاهرت. وهى مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور ضخم وإن لها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة. (اليعقوبى: البلدان: ص ١٥٣ – المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٢٨ – طبعة ليدن سنة ١٩٠٦ – البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب – ص٦٦ نشر دى سلان – الاستبصار لمؤلف مجهول نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: ص ١٧٨. ثم انظر المغرب الكبير للدكتور السيد عبد العزيز سالم – ٥٧٤ – ص٥٧٥).

« تاهرت » — بعد قليل من الزمن — عامرة زاهرة . وكان لها موان تربطها بالعالم الخارجي مثل « وهران » و « مستغانم » فاتصلت بالأندلس ، وسرعان ما نشأ بين « تاهرت » و « الأندلس » كثير من الروابط الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لوجود عدو مشترك بينهما هو الدولة العباسية بالمشرق . فكانت « تاهرت » مهجراً لكثير من الأندلسيين المتخصصين فى العلوم والآداب والفنون . ومما جعل الناس يقبلون على استيطان « تاهرت » عدل الإمام عبد الرحمن ابن رستم ، وحسن سيرته ، وغزير علمه ، وقد رحب ابن رستم بأولئك الذين فروا إليه من المشرق خروجاً على الدولة العباسية ، وفراراً من استبدادها ، فازدهرت « تاهرت » بعلماء الأندلس والمشرق .

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن محبًّا للعلم أيضاً . مغرماً بجمع الكتب النادرة ، وشرائها من المشرق مهما كلفه ذلك من ثمن ، وللإمام عبد الوهاب هذا كتاب سماه « نوازل نفوسة » وهو عبارة عن الفتاوى التى أفتى بها « عبد الوهاب » ردًّا على أسئلة أهل جبل نفوسة فى المسائل الدينية كما كان الإمام الثالث .. أفلح بن عبد الوهاب عالماً شاعراً ، ذا دراية بالحساب والفلك من قصيدة له فى الحث على طلب العلم قوله :

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك أشخاصهم روحاً وأبكارا
حيّ ، وإن مات — ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة كميت قد ثوى فى الرمس أعصارا

ومنها قوله يحث على العلوم الدينية :

فاطلب من العلم ما تقضى الفروض به واعمل بعلمك مضطرًّا ومختـارا

وقوله يرسم غاية طلب العلم :

واجعله لله ، لا تجعله مفخرة ولا ترائى به بـدواً وأحضارا

وكانت نهضة « تاهرت » سبباً فى ظهور مراكز ثقافية بجانبها ، كانت

ذات شهرة أيضاً مثل مدينة « شروس » بجبل نفوسة ، ومدينة « جادو » وأجناون وورجلان ، وجزيرة جربة .

وكان بمدينة « تاهرت » مكتبة عظيمة تضم بين جناحيها نحو ثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم والفنون والآداب وقد خرّب الفاطميون مكتبة « تاهرت »[١] بعد أن حملوا منها كثيراً من الكتب التى تهمهم . فارتكبوا بذاك جرماً يضاف إلى جرمهم فى حمل الهلاليين على تخريب القيروان ، وجامعتها .

ولم تنل مدينة « تاهرت » عناية عبد المؤمن وخلفائه . لأن الدول التى تتابعت عليها — بعد الرستميين — كانت تنظر إليها نظرة استخفاف لأنها من مؤسسات الخوارج ! غير أن عبد المؤمن وخلفاءه نشروا بتاهرت مبادئ الموحدين ونشطوا تحفيظ القرآن الكريم . ثم انتقل إلى تاهرت مذهب الإمام مالك — رضى الله عنه — بعد الموحدين ، شأنها فى ذلك شأن مدن المغرب فى أقطاره الأربعة .

ومن المراكز الثقافية الهامة بالجزائر — فى أثناء حكم عبد المؤمن — مدينة بجاية ، وليست نهضة بجاية العلمية من مآثر الموحدين وحدهم ، فقد كانت ذات شهرة علمية فائقة فى عهد الحماديين — الذين خلفهم عبد المؤمن ببجاية — وقد زعم بعض المحدثين أنه بلغ من عظمة نهضة بجاية العلمية فى عهد بنى حماد أن ملوكهم كانوا يوزعون المنح والجوائز على العباقرة ، وأصحاب القرائح المبرزين فى العلوم والفنون والآداب ، على نحو ما تصنعه الدول الراقية فى عصرنا الحاضر . وأن الطلبة كانوا يتزاحمون فى طلب العلم ، حتى كان يجلس فى حضرة الدرس ما ينيف على مائة طالب ، وأن الإيطاليين تلقوا العلم ببجاية ، وتعلموا بها كثيراً من صنع الأشياء التى من بينها « الشمع » ، بدليل أن الشمع عند الإيطاليين ما يزال يحتفظ باسم « بجاية »

---

(١) محمد على دبوز — المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٧٦ .

إذ يسمى (Bougie) وهو لفظ بجاية فى لهجتهم[١] ، ولسنا نعترض على هذا ولا سيما أن بجاية كان لها فى هذا العهد صلة اقتصادية واجتماعية[٢] وعلمية بالأندلس ، وأنها كانت مهجراً للأندلسيين الفارين من طغيان النصارى . وقد أثبتنا فى غير موضع أن الأوربيين قد طلبوا العلم بمعاهد الأندلس . فلا عجب أن يطلبوا العلم فى بجاية العربية التى أحكم الأندلسيون نهضتها العلمية .

ومن المراكز الثقافية الجزائرية التى نالت عناية عبد المؤمن بصفة خاصة ، وعناية خلفائه بصفة عامة مدينة « تلمسان »[٣] . فقد جدد عبد المؤمن مسجد تلمسان الجامع . وبنى لنفسه بها قصر المشورة سنة ٥٤٠ هـ . وعقد بها مجالس العلم . ونشر التعليم الإجبارى .

وربما كان السبب فى عناية عبد المؤمن بتلمسان . أن هذه المدينة تعتبر مركزاً إدارياً يضم قرية « تاجرا » مسقط رأس عبد المؤمن . كما أنها تضم كثيراً من بطون زناتة وكومية : عشيرته الأقربين ، كما كانت سوقاً يعرض فيها والده بضائعه . وكانت تلمسان من حصون الموحدين الهامة ، كما كانت مركزاً هاماً لنشر دعوتهم بالجزائر .

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٢) Julien. Hist de L'Afrique, p. 95.

(٣) ابتدأت مدينة « تلمسان » تهتم بالدراسة ولاسيما الدينية واللغوية منها ، فى عهد إدريس بن إدريس – رضى الله عنهما – فقد مكث بتلمسان ثلاث سنوات عقد بها دروس العلم ، وأسس مسجدها الجامع سنة ١٩١ هـ وطرد منها الخوارج الصفرية . ومن هنا نستطيع أن نقول إن تلمسان ظهرت كمدينة علمية فى القرن الثالث الهجرى .

٢ ـ مراكز الثقافة بأفريقية (تونس)

أشرنا فيما سبق إلى أن منطقة تونس كانت المركز الثقافى الإسلامى الأول بعامة فى أقطار المغرب بفضل مدينة القيروان وجامعها الأعظم الذى طغت شهرته العلمية على شهرة جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر الإسلامية . وقد فقدت تونس زعامتها العلمية بين أقطار المغرب العربى بعد أن دمر الهلاليون مدينة القيروان وجامعتها سنة ٤٤٣ هـ وشردوا علماءها ، الذين اتجه أكثرهم إلى مدينة « فاس » بالمغرب الأقصى ، تلك التى ورثت مدينة القيروان علمياً ، فى الوقت الذى كانت فيه الأندلس تشرق بنور العلم بين بلدان أوربا بخاصة وبين دول العالم الإسلامى بعامة . ثم كان فيه الجامع الأزهر الشريف بمصر الفاطمية يزهو على جامعات العراق العباسية ، فلم يعد من اليسير على تونس أن تسترد زعامتها العلمية وسط هذه النهضة العامة فى عامة الأقطار العربية وقد زاد الطين بلة أن ملوك « منطقة تونس » الباديسيين الزيريين ، قد أصابهم داء الدول من الانغماس فى أسباب الترف والحضارة الناعمة فهاجمهم ملوك صقلية « النورمانديون » الذين استطاعوا أن يستولوا على أغلب مدن وموانى المنطقة ، وأن يستولوا على المهدية حاضرة الباديسيين سنة ٥٤٣ هـ . فعاشت منطقة أفريقية هذه نحو اثنتى عشرة سنة فى قبضة النصارى حتى قيض الله الخليفة « عبد المؤمن بن على » لها ، فأعادها إلى حظيرة الإسلام سنة ٥٥٥ هـ ، وطرد النصارى نهائيًّا من شمال أفريقية . وأعاد الثقافة الإسلامية قوية رائعة إلى المهدية وتونس . وفى مقدمة موادها مبادئ المهدى ابن تومرت بالبداهة . ولكن مبادئ الموحدين لم تحل دون حرص علماء المالكية على نصرة مذهبهم وجعله الأساس التشريعى للبلاد ، ولاسيما أن عبد المؤمن وخلفاءه لم يفرضوا مبادئ — الموحدين — بالإكراه كما أسلفنا فيما تقدم . على أن مبادئ الموحدين نفسها قد اعتراها الخمول ابتداء من

عصر يعقوب المنصور • أشهر خلفاء الموحدين — بعد عبد المؤمن — لشكه في مبادئ المهدية . ولكن الشيء الخليق بالذكر في هذا المقام أن مبادئ الموحدين سقطت بالمغرب مع سقوط الدولة سنة ٦٦٧ هـ ، ولكنها ظلت قائمة بمدينة تونس التي حكمها « الحفصيون » الذين هم فرع من الموحدين[١] ، أولئك الذين ظل ملكهم بتونس إلى نحو منتصف القرن العاشر الهجري . وقد نهض الحفصيون بمنطقة تونس نهضة مشكورة ثقافياً وحضارياً ، وسياسياً ، ومما ساعدهم على النهضة الثقافية والحضارية ، أن تونس بصفة خاصة وبقية أقاليم الدولة الحفصية بصفة عامة ، أضحت مهجراً للأندلسيين الذين تركوا الأندلس فراراً بدينهم وعروبتهم من وجه النصارى . فنشط هؤلاء الأندلسيون في جميع جوانب الحياة التونسية ولا سيما الجانب الثقافي[٢] . وقد

---

(١) تنتسب الدولة الحفصية « بتونس » إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر . وكان الشيخ أبو حفص — والد عبد الواحد مؤسس الدولة — من صحابة المهدي بن تومرت العشرة ، وله اليد الطولى في بناء جيش المهدي . إذ كان رئيس قبيلة هنتاتة — أعظم قبائل المصامدة — كما أنه صاحب الفضل في جعل عبد المؤمن خليفة للمهدي . وفي جعل الملك وراثياً في عقبه ، وينتسب الشيخ أبو حفص — في رأي بعض المؤرخين — إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب (رضي الله تعالى عنه) . وكان ابنه أبو محمد عبد الواحد من أعظم القادة وأشجعهم فأسند إليه الخليفة « الناصر » الموحدي أمر قيادة الجيش الموحدي ، الذي وجه لمحاربة يحيي بن غانية (الميورقي المرابطي) . وكان ابن غانية هذا قد استولى على جميع بلاد أفريقية (تونس) وسلخها عن الموحدين فاستطاع أبو محمد عبد الواحد الحفصي « أن يهزم يحيي بن غانية في موقعة حاسمة » بجبل تاجرا سنة ٦٠٢ هـ . وقد رأى الخليفة « الناصر » أن خير ضمان لاستقرار منطقة تونس أن يجعل ولايتها لأبي محمد عبد الواحد فحكمها — تحت سلطان مراكش — حتى توفي سنة ٦١٨ هـ . وتولى أمر تونس بعده ابنه أبو زكريا الحفصي الذي استقل بتونس . وفصلها عن سيطرة مراكش سنة ٦٣٣ هـ بسبب إلغاء الخليفة الموحدي « إدريس المأمون » لتعاليم المهدي . .

انظر الإحاطة — ص ٣٢١ — ثم رحلة التجاني ص ٣٦١ .

(٢) André, Julien : Hist. de l'Afrique, p. 95

أضحى الحفصيون — بعد سقوط الموحدين بالمغرب سنة ٦٦٧ هـ — القوة الإسلامية التى أضحت أصلاً لموحدى الأندلس فى بقاء الحكم الإسلامى بإسبانيا[١] . وقد ارتفع شأن الموحدين الحفصيين بالمشرق بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ إذ سمى ملكهم نفسه خليفة ، وأول من تلقب بهذا ، المستنصر الحفصى .

وليس من شك فى أن الحياة الثقافية قد أفادت فى هذه الحقبة أيما إفادة وإن مدينة « تونس » ازدهرت علمياً ، ازدهاراً لم تشهده من قبل .

---

(١) بايع شرق الأندلس ، ومدينة أشبيلية — التى كانت عاصمة الموحدين بالأندلس وثغر ألمرية . الخليفة الحفصى أبا زكريا ، بعد زوال حكم الموحدين بالمغرب ، وقد وجه ابن الأبار قصيدته السينية إلى أبى زكريا يستنجد به لإنقاذ المسلمين بالأندلس ومطاعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً   إن السبيل إلى منجاتها درسا

ومنها :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً   للنائبات وأمسى جدها تعسا

فى كل شارقة للعلم بائقة   يعود مأتمها عند العدى عرسا

وكل غاربة إجحاف نائبة   تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى

ومنها :

وفى بلنسية منها وقرطبة   ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسماً   جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

ما للمساجد عادت للعدا بيعاً   وللنداء يرى أثناءها جرسا

٢ ـ معاهد الثقافة

استعمل الموحدون أماكن التعليم التى عرفت قبل عصرهم ، كالكتاتيب والمساجد ، والرباطات والزوايا ، ولكن عبد المؤمن أسّس داراً لتعليم البحرية، وأخرى لتعليم إدارة الأقاليم . فكانتا أول مؤسستين تعليميتين من نوعهما بالمغرب. وقد أشرنا إليهما فيما سبق .

فأما الكتاتيب :

فكانت معروفة قبل الموحدين بالمشرق والأندلس . إذ هى أماكن المرحلة الأولى التى كان يتعلم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة ، ويأخذون بعد ذلك فى حفظ القرآن الكريم ثم يتلقون بين جدرانها أوليات علوم الدين واللغة التى تهيئهم لتلقى العلوم بالمساجد .

وكانت الكتاتيب منتشرة بالأندلس إلى حد ما ، وقليلة بالمغرب — قبل عهد عبد المؤمن — كما كان التعليم فى جميع مراحله بأجر صورة ما[1] فلما آل الأمر إلى « عبد المؤمن » — وكان راغباً فى نشر مبادئ الموحدين على أوسع مدى — عمّم تعليم الكتاتيب ، فى جميع أنحاء مملكته الكبيرة بالمدن والقرى فى الجبال والسهول ، وجعل التعليم إجبارياً مجانياً[2] . فكان أول ملك مغربى فرض على شعبه التعليم وجعله مجانياً . بل ربما كان أول ملك فعل هذا الصنيع فى العصور الوسطى .

ولم تعرف المدرسة — باسمها هذا — بالمغرب والأندلس حتى نهاية عصر

---

(١) المقرى : نفح الطيب — ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) ليفى بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ١٣١ — ١٣٧ .

الموحدين[١] . إذا نقل المرينيون — الذين تولوا الحكم بعد الموحدين — النظام المدرسى إلى المغرب عن الأيوبيين بمصر ، فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . ولما كان الأيوبيون بمصر قد عمدوا إلى إنشاء المدارس بمصر لإحياء مذاهب أهل السنة ، ومحو آثار مذهب الفاطميين الشيعيين — فكذلك أراد المرينيون بإنشاء المدارس إحياء مذهب مالك — رضى الله عنه — ومحو ما بقى من مبادئ الموحدين الذين دانوا بالمهدوية الشيعية ! ! . ومما هو خليق بالذكر أن علماء المالكية بالمغرب لم ينظروا إلى هذه المدارس بعين الارتياح — على الرغم من نصرتها لمذهب مالك — لما ينطوى تحت إنشائها من أغراض سياسية .. وظل الشعب ينظر إلى خريجيها على أنهم متخلفون عن خريجى المساجد فى أمور الدين ، واضطرت الحكومة المرينية أن تخضع للرأى العام . فحرم خريجو المدارس من المناصب الدينية .

ثم كان **الرباط** من المعاهد العلمية الهامة بالمغرب . وزادت أهميته فى عهد المرابطين ثم فى عهد الموحدين من الوجهتين الحربية والعلمية . وعلى الرغم من أن الأربطة نشأت فى أول أمرها بالمشرق فى مطالع الدولة العباسية[٢] .

---

(١) ظهرت المدرسة بالمشرق قبل ظهورها بالمغرب بنحو ثلاثة قرون . إذ كانت المدرسة البيهقية بنيسابور أول من حمل اسم مدرسة قبل نهاية القرن الرابع الهجرى . ثم أسس « نظام الملك » وزير السلطان ملك شاه السلجوقى (٤٦٥—٤٨٥ هـ) المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور ، فى أواخر القرن الخامس الهجرى . ثم اقتبس نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى هذا النظام المدرسى فبنى عدة مدارس للشافعية والحنفية فى دمشق وحلب وغيرهما . ثم اقتدى به صلاح الدين الأيوبى وبنى مدارس للشافعية حتى يقضى على مذهب الفاطميين الشيعى . فلما حكم المرينيون المغرب أنشأوا عدة مدارس كان من أهم أغراضها مقاومة ما بقى من مبادئ الموحدين . وإحلال مذهب السلف الصالح ، وفى مقدمتها مذهب مالك رضى الله عنه . « المقريزى : خطط ج ١ ص١٠٩ — ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان : ج ١ — ص ٣٥٧) .

(٢) دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٤ — ص٤٣٧ — الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ .

فإن أربطة المغرب كانت أكثر نفعاً ، وأبعد أثراً فى تطوير الحياة ، إذ لم تزد أربطة العباسيين بثغور الشام على كونها ثكنات عسكرية ، أريد بها دفع النصارى عن ثغور المسلمين . أما الرباط المغربى فكان إلى جانب مهمته الحربية مكاناً للعبادة . ومعهداً تدرس به شتى العلوم ولا سيما العلوم الدينية ، ومكتبة جامعة ، وداراً لنسخ الكتب . ومستشفى للمرضى وكثيراً ما أقيم بجانب الرباط أسواق وشيدت فى رحابه الدور . وتحول إلى مدينة ، وأبرز مثل لهذا مدينة رباط الفتح — عاصمة المغرب الآن — التى كان أساسها رباطاً أقامه عبد المؤمن فى منطقة « سلا » — على ساحل المحيط الأطلسى . ثم مدينة « تازا » التى قامت على رباط « تازا » الذى أقامه عبد المؤمن أيضاً .

ويذكر أشباخ أنه كان على سواحل المغرب — ولا سيا ساحل البحر الأبيض — ما يقرب من ألف رباط . تشتمل على ألف مسجد ومعهد ومكتبة ومستشفى ودار لنسخ الكتب . فكان الكتاب ينسخ منه نحو ألف نسخة ، وهذا ما يعلل كثرة المخطوطات النادرة ببلاد المغرب .

وليس الرباط الإسلامى تقليداً للمنستير (monastére) عند النصارى فالمنستير كانت مهمته مقصورة على التنسك والعبادة والانقطاع عن الناس . وهو بهذا نوع من ديورة رهبان النصارى . فى حين ترتكز فكرة الرباط الإسلامى إلى أصل قرآنى جهادى وهو قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . واتقوا الله لعلكم تفلحون)(١) .

وقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)(٢) .

فالرباط فى الإسلام قاعدة حربية قوية . لصد أعداء الله أو قتالهم .

---

(١) سورة آل عمران (٣ : ٢٠٠) .

(٢) سورة الأنفال (٨ : ٦٠) .

وهو بهذا الاعتبار يتفق مع أربطة العباسيين التى أقيمت لصد البيزنطيين أو قتالهم . ولا يخفى أن مهمة الرباط المغربى مهمة جهادية قبل كل شىء وهى بعينها مهمة الرباط المشرقى . غير أن طول التربص واستمرار إغارات النصارى على سواحل المغرب الإسلامى حتمت بقاء أربطة المغرب ، فاكتسبت المكث والاستقرار ، واضطر ملوك المغرب إلى توفير وسائل الحياة المستقرة فى هذه الأربطة فنشأت بين أحضانها المساجد والمعاهد والمشافى وغيرها . ومن هنا قامت حولها المدن فى كثير من الأحيان . واتخذت شكلا مخالفاً للأربطة المشرقية .

٣ ـ العلوم

(أ) العلوم النقلية

قسم علماء المسلمين فى العصور الوسطى العلوم إلى مجموعتين كبيرتين هما : العلوم النقلية . والعلوم العقلية . وتشتمل مجموعة العلوم النقلية على علوم الدين ، وعلوم اللغة العربية . وتشتمل مجموعة العلوم العقلية على ما لم يدخل فى حيز النقل من معارف ، كالفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطبيعية ، والاجتماعية والعلماء فى تقسيمهم هذا ، قد ميزوا بين العلوم القرآنية أو المتصلة بالقرآن الكريم وبين العلوم التى اقتبسها العرب من غيرهم من الأمم كالفرس والهنود واليونان والسريان وسوف نتصدى لبيان مدى عناية المغرب والأندلس بهذه العلوم النقلية والعقلية فى عهد « عبد المؤمن بن على » فى شىء من الإيجاز مبتدئين بالعلوم النقلية .

١ ـ القراءات :

كان علم القراءات فى مقدمة العلوم الدينية التى عنى المسلمون بأمرها ، باعتبار علم القراءات أول محاولة فى تفسير القرآن الكريم .

وكان المغرب الموحدى من أشد أقطار المسلمين اهتماماً بهذا العلم ، فقد كان الموحدون يتخذون كتاب الله إماماً لهم . ونبراساً يهتدون بهديه . وقد وضع لهم إمامهم « المهدى بن تومرت » نظاماً يوجب عليهم قراءة حزب من المصحف الشريف كل يوم عقب صلاة الصبح والمغرب[١] قراءة مرتلة طبقاً لقوله : (ورتل القرآن ترتيلا) وليس أدل على عناية الموحدين بهذا العلم من أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد درسه ونال حظًّا وافراً منه « فكان من أحسن الناس نطقاً بالقرآن الكريم »[٢] وقد شجع الخليفة يعقوب المنصور مؤلفى فن القراءات رغبة منه فى أن يتلو الناس القرآن الكريم تلاوة سليمة ، ومن المؤلفين الذين ظهروا فى هذه الحقبة ، المقرئ أبو الحسن على بن محمد المرادى البلنسى[٣] الذى قام بالتدريس بمراكش فى عهود عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور . ونظم المرادى هذا رجزاً فى التجويد سماه المنصف فكافأه الخليفة يعقوب المنصور عليه ، ومن علماء القراءات الذين اشتهروا فى هذه الحقبة أيضاً الشيخ أبو القاسم الرعينى الشاطبى الأندلسى المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٠ هـ[٤] . ثم أحمد بن عبد الله اللخمى الفاسى المتوفى بمصر أيضاً سنة ٥٦٠ هـ[٥] . ثم النفزى المقرئ الضرير المتوفى سنة ٥٨٨ هـ[٦] . ومنهم أيضاً الحسن بن على بن عمر البطليوسى المتوفى سنة ٥٨٥ هـ ثم يحيى بن سعدون الأزدى الأندلسى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ[٧] .

---

(١) مخطوط نظم الجمان ورقة ٣٣ أ ، والقرطاس — ص ١١٥ .

(٢) المعجب — ص ١٥٥ .

(٣) التكملة ترجمة رقم ٢٣٣٠ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١٦ — ص٢٥٣ ، المقرى : نفح الطيب ج٦—ص ٤٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٢ — ٦٥ .

(٦) نفح الطيب ج ٦ ص ٥١ .

(٧) ياقوت : معجم الأدباء — ج٢٠ — ص ٦٤ .

ومن الأئمة الذين برزوا فى النحو والقراءات والحديث الشيخ أحمد بن على ابن أحمد بن خلف المعروف بابن الباذى الجيانى . صاحب كتاب الإقناع وكتاب الطرق المتداولة[١] .

٢ – التفسير :

والتفسير هو الخطوة الثانية – بعد القراءات – فى سبيل بيان معانى القرآن الكريم . وكان بعض الأتقياء فى صدر الإسلام ، يتحرجون عن التفسير خشية الوقوع فى الزلل وعدم إصابة الهدف فيما أراده الله سبحانه وتعالى[٢] . غير أن التفسير أصبح ضرورة دينية بعد أن اتسعت رقعة الإسلام ، ودخل فيه كثير من الأعاجم الذين صعب عليهم إدراك معانى القرآن الكريم ، وما أحاط بنزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من مناسبات ، وقد اتجه المسلمون فى تفسيرهم لكتاب الله العزيز اتجاهين : اتجاهاً قام على ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أو كبار الصحابة من أمثال على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ... إلخ . واتجاهاً اعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . وهو ما سار عليه المعتزلة والشيعة وغلاة المتصوفة .

وقد سار جمهور المفسرين بالمغرب والأندلس على المأثور عن النبى الكريم ، وصحابته وتجنبوا طريق العقل والتأويل الذى التزمه المعتزلة والشيعة ، واتخذوه وسيلة لنشر مبادئهم . على أن المعتزلة اتخذوا العقل وسيلة لتقرير الصواب فى أغلب الأحيان . على حين اندفع غلاة الشيعة فى تأويلات كانت موضع اشمئزاز واستنكار أهل السنة ومعتدلى الشيعة جميعاً . من ذلك تفسير هؤلاء الغلاة لقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) بقولهم : إن الشيطان هو عمر

---

(١) ابن الخطيب – الإحاطة ج ١ ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

(٢) من هؤلاء : عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقد كان يكره البحث عن غوامض الآيات القرآنية . حتى إنه ضرب رجلا كان يسأل عن متشابه القرآن . حتى أدمى رأسه (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام : ج ١ ص ٥٠٢) .

ابن الخطاب والإنسان هو أبو بكر . ومعنى اكفر . أى لا تؤمن بإمامة على ابن أبى طالب ! كما فسروا إبليس وآدم الواردين فى القرآن الكريم بأبى بكر وعلى بن أبى طالب فيقولون : إن الله أمر أبا بكر بالسجود لعلى بن أبى طالب والطاعة له . فأبى واستكبر[١] .

وعلى الرغم من أن الموحدين ، قد اعتنق أوائلهم – ولا سيما عبد المؤمن – فكرة المهدوية الشيعية ، وأن مذهبهم التوحيدى متأثر بآراء المعتزلة إلى حد بعيد أقول على الرغم من هذا ، فإن ذلك لم يخرجهم من أثير الجو السنى مطلقاً . ففقههم سنى سلفى مقتبس من مذهب سيدنا مالك – رضى الله عنه – ومظهرهم العبادى سنى واضح فهم يسيرون على القرآن الكريم وتفسيره المأثور ويتأسون بالنبى الكريم وصحابته الأبرار . فخطبهم الدينية خطب سنية تبتدئ بالبسملة والحمد له ، وتذكر الشهادتين والصلاة على الرسول الكريم وآله وصحابته وأتباعه[٢] . وليس فى خطبهم ما يميزها عن الخطب السنية السلفية إلا دعاؤهم للمهدى المعلوم . والإمام المعصوم ابن تومرت . ولكنهم بجانب هذا لم يفتروا عن تعظيمهم فى أدعيتهم وصلواتهم وخطبهم النبى وآله وصحابته وأتباعه كما ذكرنا . وقد دفعنى سلوك الموحدين هذا إلى الاعتقاد بأن مهدوية ابن تومرت مهدوية سنية إن صح هذا التعبير ، أى أنها أقرب إلى السنة منها إلى الشيعة . فهو رجل مسلم مصلح يأمل أن يعيد إلى الإسلام مجده وقوته ليس غير .

ومن هنا لم نر تفسيراً موحدياً واحداً ينتحى ناحية المذهب التأويلى الشيعى ، بل ظلت تفاسير الموحدين كفقههم فى نطاق المذهب السلفى الذى سار عليه مالك – رضى الله عنه – .

ومن رجال التفسير فى هذا العصر . الفقيه الحافظ المفسر عبد الحق بن غالب

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٣ (نشره جولد تسيهر سنة ١٩١٦) .

(٢) المعجب ١٢٥ – ١٢٦ .

ابن عطية المحاربى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ[١] .

ثم الفقيه المحدث المفسر محمد بن يوسف بن سعادة الذى ارتحل إلى المشرق وطلب العلم بمصر ومكة ، وكان فوق براعته فى علوم الدين شغوفاً بعلوم الأدب بصيراً بالتصوف . وقد توفى سنة ٥٦٥ هـ[٢] .

والفقيه المفسر المحدث بيبش بن محمد بن على بن بيبش العبدرى الشاطبى الذى كان إلى جانب مقدرته فى علوم الدين بصيراً بالنحو . وله مؤلف فى التعليق على صحيح البخارى . توفى سنة ٥٨٢ هـ[٣] .

وكان الموحدون يدركون مدى علو مكانة الأندلس ، ويتوقون إلى أن يصبح المغرب ذا مكانة علمية كتلك التى تتمتع بها الأندلس ، فسعى عبد المؤمن وخلفاؤه إلى الاستفادة بعلماء الأندلس ، والاستعانة بهم فى نهضة المغرب ، فاستقدموا الكثير منهم إلى مراكش ، ومدوا إليهم يد الإكرام والتشجيع ، فلم يدخروا وسعاً فى سبيل تزويد إخوانهم المغاربة بلباب العلم والأدب ، وكان من أثر ذلك أن ظهرت طائفة من علماء المغرب الممتازين . ومن بين المفسرين منهم :

أبو الحسن على بن أحمد التجيبى الحرالى المراكشى صاحب كتاب اللب المقفل على فهم القرآن المنزل . ثم عبد الجليل بن موسى الأنصارى الأوسى القصرى . ثم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمران المزدغى الذى ألف كتاباً فى تفسير القرآن الكريم انتهى فيه إلى سورة الفتح .

وهؤلاء جميعاً عاشوا فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

---

(١) الضبى : بغية الملتمس ١١٣ ، الصلة رقم ٨٢٩ .

(٢) التكملة رقم ١٣٩٠ .

(٣) التكملة رقم ٦١٠ .

٣ ـ الحديث :

أما الحديث الشريف فقد نال الدرجة القصوى من اهتمام علماء المسلمين ـ بعد القرآن الكريم ـ إذ هو أحد أصلين قام عليهما التشريع الإسلامى ، وأحد نبعين انفجرت عنهما الثقـافة الإسلامية ، وازدهرت بهما الثقافة الإنسانية .

ولم تكن كل مصادر الحديث محل ثقة المسلمين ، بل تخير العلماء من بين هذه المصادر طائفة صحت روايتها عندهم ، واتصل سندها ، ولم يتعرض رجـالها للطعن . ومن هذه المصادر : الصحيحان (البخارى[١] ومسلم[٢]) وأبو داود السجستانى[٣] صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى[٤] صاحب الجامع ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة[٥] ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى[٦]

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الشهير بالبخارى ، سيد المحدثين ، وصاحب الجامع الصحيح أجل كتب الحديث ، توفى البخارى بقرية « خرتنك » إحدى قرى سمرقند سنة ٢٥٦ هـ

(٢) هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى، أحد الشيخين، وصاحب ثانى الصحيحين ، توفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ .

(٣) هو أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، صاحب السنن .

(٤) هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٣١٣ هـ .

(٦) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .

صاحب السنن ، ومالك بن أنس صاحب الموطأ[١] .

وقد عنى الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدى ابن تومرت محدثاً حافظاً غير أنه استند فى مهدويته إلى طائفة من الأحاديث المنتحلة التى نسجها خيال غلاة الشيعة ليبرروا مبادئ الإمامة والمهدوية ، ولا نستطيع الحكم فيما إذا كان ابن تومرت قد قال هذه الأحاديث مؤمناً بها أو شاكًّا فيها . على أننا نرجح أنه كان مؤمناً بها بدليل ادعائه المهدية ، وقوله بالإمامة والعصمة كما قررنا فيما سبق . أما الأحاديث التى نقطع بصحتها فيما جمعه ابن تومرت ، فهى تلك التى أخذها من موطأ الإمام مالك — رضى الله عنه — وجردها من الأسانيد وجعلها فقهاً سار عليه الموحدون .

وكان الخليفة عبد المؤمن من المتبحرين فى الحديث . غير أننا نأخذ عليه ما أخذناه على ابن تومرت من إيمانه بالمهدوية والإمامة والعصمة على ضوء الأحاديث المنتحلة التى قررها غلاة الشيعة ، وأنكرها رجال السنة . وإننا لنلاحظ أن هذه الأحاديث التى قامت عليها المهدوية بدأ بنيانها ينهار بعد عبد المؤمن . فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن ركن إلى طلب الحديث من أصوله الموثوق بها . وفى هذا يقول المراكشى : « . . . صح عندى أنه — أى يوسف بن عبد المؤمن — كان يحفظ أحد الصحيحين ، الشك منى ، إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أن البخارى حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم . . . »[٢] .

وهذا النص يمدنا بفكرة مهمة ، وهى أن يوسف مال عن أحاديث المهدوية المنتحلة إلى الأحاديث الصحيحة عند أهل السنة ، ولكنه سار

---

(١) هو إمام دار الهجرة ، وسيد فقهاء الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف باسمه ، توفى بالمدينة المنورة ، ودفن بالبقيع سنة ١٧٩هـ .

(٢) المعجب ص ١٥٥ .

على نهج أبيه فى احترام رسوم المهدوية والعصمة والإمامة ، غير أن ابنه الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، الذى كان أشد الموحدين اهتماماً بالحديث وعلمائه ، أنكر أحاديث المهدوية ورفض الاعتراف بالإمامة والعصمة ولكنه أبقى ذكر الإمام المعصوم المهدى المعلوم بخطبة الجمعة والعيدين . وظل الأمر كذلك حتى محا الخليفة المأمون — وهو أحد أبناء يعقوب المنصور — جميع رسوم المهدوية من الخطبة .

واشتهر فى عهد عبد المؤمن من المحدثين طائفة كبيرة نذكر منهم : القاضى عياض بن موسى اليحصبي السبتى المتــوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ . وكان القاضى عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أقدر أئمة عصره على تمييز صحيح الأحاديث من منتحلها . بارعاً فى علم أصول الفقه وعلم الكلام ، متمكناً من الشروط والأحكام متقناً للنحو . أديباً عالماً بالسير والأخبار . مشاركاً فى علوم كثيرة[١] .

ثم محمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون ، الذى برع فى الحديث ، واشتهر بالحفظ والضبط وبرع فى الفقه أيضاً . وتوفى بمراكش سنة ٥٦١ هـ[٢] .

ثم يوسف بن عبد العزيز بن فيرة المعروف بالدباغ . الذى نبغ فى الحديث والرواية وألف فى الحديث عدة مصنفات منها كتاب طبقات المحدثين ورسالة فى الحفاظ وتوفى بمدينة مرسية فى سنة ٥٤٦ هـ[٣] .

ثم أبو الخطاب ابن دحية السبتى الذى هاجر إلى مصر واتصل بعلماء

---

(١) التعريف بعياض مخطوط بخزانة الرباط رقم ٥٥٣ ، ووفيات الأعيان ج ١ — ص ٤٦٩ . وغيرها .

(٢) التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٣) الصلة رقم ١٥١٠ .

الأزهر ، وكان له معهم جولات فى الحديث قررت علو كعبه فى الرواية والحفظ (١) .

ثم الشيـــخ أبو الحسن على بن عبد الملك الكتامى الحميرى الفارسى المعروف بابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان الذى استقينا منه كثيراً فى هذا البحث ، فقد كان إلى جانب إلمامه بالتاريخ فى عصره ، محدثاً حافظاً ملماً برجال الحديث ورواياته (٢) .

ومن المحدثين المعمرين محمد بن إبراهيم بن خلف المعروف بابن الفخار المولود بمدينة مالقة بالأندلس سنة ٥١١ هـ . كان إماماً فى الحديث مقدماً فيه . وكان يحفظ صحيح مسلم . شديد الورع والتمسك بالحق . وقد استدعاه الخليفة الثالث يعقوب المنصور فى أواخر حياته ليسمع عليه الحديث فذهب إلى مراكش . ولكن المنية أدركته بعد قليل فدفن بمراكش سنة ٥٩٠ هـ (٣) . وليس فى وسعنا الإلمام بجميع المحدثين الذين ظهروا فى هذه الحقبة لكثرتهم وضيق المقام .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ــ ص ٣٦٩ .

(٢) التكملة رقم ١٩٢٠ .

(٣) التكملة رقم ١٤٨٠ .

٤ – علم الكلام :

يعتبر المهدى ابن تومرت – صاحب الدعوة الموحدية – أول من حمل المغاربة على الأخذ بمذهب التوحيد الكلامى . وكان المغرب – قبل دعوة ابن تومرت – يسير على مذهب السلف الصالح ويمقت علم الكلام الذى يتصدى لتأويل المتشـــابه من آى القرآن الكريم . والسلفيون يتورعون عن تأويل المتشابه ، لقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب . . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[١] .

ومن هنا جعل السلفيون شعارهم : « فر من علم الكلام فى أى صورة كما تفر من الأسد »[٢] .

بينما يرى المعتزلة أن فى القرآن الكريم آيات تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى . كقوله جل شأنه : « ليس كمثله شىء » وفيه آيات متشابهات ظاهرها يدل على التجسيم والتشبيه ، وهذا الظاهر يتنافى مع توحيد الله وتنزيهه – جل شأنه – وذلك كقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فالمراد بالوجه فى الآية الكريمة ذات الله سبحانه وهكذا تؤول الآيات المتشابهات .

---

(١) سورة آل عمران ٣ (الآية ٦ – ٨) .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ – ص ١١٨ – ١١٩ .

ونرى أن التأويل إذا قصد به التنزيه على نحو طريقة المعتزلة ، فإنه غير ضار بالعقيدة بل على العكس من ذلك يصبح شيئاً ضرورياً . ليزيل الغشاوة عن أعين الذين لا يفقهون . أما إذا كان الغرض من التأويل الزيغ والضلال والتشبيه والتجسيم فهذا هو الممتنع ، وهذا هو الذى تعنيه الآية الكريمة : «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة» . أعاذنا الله من الزيغ والفتنة .

وقد كانت الدولة المرابطية تلتزم طريقة السلف التى شرعها لهم مالك رضى الله عنه ، وأخذهم بها رائدهم الشيخ عبد الله بن ياسين . ولذلك قابلت الحكومة المرابطية دعوة ابن تومرت بالرفض والإنكار ، فرماهم ابن تومرت بالتجسيم والكفر . وحرم طاعتهم ، وأوجب على الموحدين حربهم والخروج على دولتهم . وقرر وجوب تأويل المتشابه من آى القرآن الكريم تنزيهاً لله سبحانه عن مشابهة المخلوقات . ووضع عقيدة كلامية توحيدية ليسير عليها الناس .

وقد نسب عبد الواحد المراكشى[١] ثم ابن خلدون[٢] طريقة ابن تومرت التوحيدية إلى الأشعرية الذين اتخذوا مذهباً وسطاً بين المعتزلة ومذهب السلف الصالح . ولكننا بعد البحث الطويل رأينا أن عقيدة ابن تومرت أقرب إلى مذهب الحزمية[٣] . وقد ظلت مبادئ ابن تومرت — مصونة سواء منها التوحيدية أو المهدوية — فى عهد عبد المؤمن كما أشرنا من قبل . ثم أخذت مبادئه المهدوية تنهار بعد عبد المؤمن أو بعد ابنه يوسف لعدم قيامها على أسس دينيـــة قوية . أما مبادئه الكلامية فظلت قوية حتى سقطت

---

(١) المعجب ص ١٨٤ .

(٢) العبر ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٦ (طبعة بيروت) .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٣ ص ١٢٠ . ثم كتاب أعز ما يطلب للمهدى ص ٢٤٠ .

الدولة الموحدية بالمغرب . وكان من الممكن أن تعيش فى عهد المرينيين — الذين حكموا المغرب بعد الموحدين — ولكن المرينيين — ككل دولة تعقب دولة — كرهوا أن يسيروا على مبادئ أسلافهم الموحدين . ولا سيما أنهم رموا ابن تومرت بالظلم وإراقة الدماء والشعوذة ، غير أن المرينيين لم يروا الرجوع بالمغرب القهقرى فى أمور العقيدة فأقبلوا على دراسة مذهب الأشعرية والأخذ به . ومذهب الأشعرية هو مذهب أهل السنة والجماعة الذى يسير عليه جمهور المسلمين فى أنحاء الأرض .

ولنقدم بعد هـذا بعض العلماء الذين اهتموا بعلم الكلام فى عهد عبد المؤمن . فمن هؤلاء :

أبو الحسن على بن محمد بن خليد الأندلسى الأشبيلى الذى تصدى لشرح عقيدة ابن تومرت بجامع القرويين ، وبين للناس نقاءها[١] . وتوفى ابن خليد سنة ٥٥٧ هـ . وقد اتبعه كثير من العلماء . ومنهم تلميذه : أبوعمر عثمان بن عبد الله القيسى القرشى المعروف بالسلالجى ، الذى يرجع إليه الفضل الأكبر فى إقناع المغاربة بصحة العقيدة الترمرتية . وقد ألف فى هذا كتابه « العقيدة البرهانية » وتوفى السلالجى سنة ٥٦٤ هـ[٢] .

ومن الفقهاء المتكلمين أيضاً أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر السرقسطى الذى نظمه عبد المؤمن بين طلبة الموحدين، فتلقى مبادئهم وبرع فى عقيدتهم وعلمها للناس ، فولاه عبد المؤمن قضـاء غرناطة ثم قضاء أشبيلية . وتوفى أبو العباس بمراكش سنة ٥٥٩ هـ[٣] .

ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المعروف بابن الكتانى فقد كان إماماً فى علم الكلام وأصول الفقه ، وقد عكف على تدريسهما

---

(١) الصلة رقم ٢٠٥ .

(٢) نفس المصدر والترجمة .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٣ .

طوال حياته . وتوفى بفاس سنة ٥٩٦ هـ[١] .

ومنهم محمد بن إبراهيم المهدى ، وهو من بجـاية بالمغرب الأوسط (الجزائر) وقد تلقى علم الكلام بالمشرق ، وعاد ليدرسه بالمغرب ، وتولى قضاء بجاية غير مرة ثم توفى سنة ٦١٢ هـ [٢] .

ومنهم عبد الله بن باديس اليحصبى من أهل مدينة شقر بالأندلس طلب العلم بأشبيلة ، وارتحل إلى فاس، وتبحر على علمائها فى علم الكلام . وقام بتدريسه بالمغرب والأندلس . وله فيه مؤلفات لم تصل إلينا[٣] .

---

(١) التكملة رقم ١٧١٨ .
(٢) المصدر السابق رقم ١٧٢٦ .
(٣) المصدر السابق رقم ٢١٠٩ .

٥ ــ الفقه :

وضع ابن تومرت للموحدين مذهباً توحيدياً كلامياً ، ولكنه لم يحاول أن يضع لهم مذهباً فقهياً وقد هاجم علماء المالكية لوقوفهم حجر عثرة فى سبيل مذهبه التوحيدى الكلامى . ولإيغارهم صدر السلطان على بن يوسف عليه حتى هم بقتله ، ولكنه لم يهاجم مذهب مالك — رضى الله عنه — وقد عمد ابن تومرت إلى تأليف مذكرات للموحـــدين فى عقيدته التوحيدية الجديدة . وفى المهدوية والإمامة والعصمة ، فرأى ضمنا أن يضع لهم مذكرات فقهية فى العبادات . وهذه الفصول الفقهية هى عبارة عن أحاديث انتزعها من موطأ الإمام مالك . وجردها من الأسانيد ، ومن أسمـــاء العلماء واختلافاتهم ، فهى أشبه شىء بالمذكرات المدرسية التى يضعها المدرسون فى عصرنا لطلابهم مأخوذة من المراجع الكبيرة توفيراً للوقت والجهد . ولم يلزم ابن تومرت أتباعه بوجوب الأخذ بهذه الأبواب الفقهية على نحو ما ألزمهم بوجوب اتباع مذهبه التوحيدى . والإيمان بمبادئ المهدوية طبقاً لمذكراته التى وضعها لهم .

ثم انتقل المهدى ابن تومرت إلى جوار ربه سنة ٥٢٤ هـ . فرأى عبد المؤمن ابن على أن يجمع آثار المهدى العلمية سواء فى التوحيد أو المهدوية أو الفقه لتكون فى كتاب واحد ، وأشرف عبد المؤمن بنفسه على تنظيم هذا الكتاب وإملائه[1] . وسماه كتاب « أعز ما يطلب » وهذه التسمية مأخوذة

---

(١) ابتدأ ابن تومرت باب « العلم » بقوله : « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » (أعز ما يطلب لابن تومرت ص ٣) .

من أول عبارة قالها المهدى بن تومرت فى باب « العلم »[١] .

ويبدو أن طريقة المهدى فى تجريد الأحاديث الفقهيـــة من الأسانيد وغيرها ، قد استهوت عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور . فقد قام كل واحد من هؤلاء الثلاثة بمحاولة فى سبيل تجديد الفقه عامة مستنيرين بطريقة ابن تومرت الآنفة الذكر .

فأما عبد المؤمن ، فقد أصدر أمره بإحراق كتب الفقه التى تثقلها خلافات الفقهاء ، ورد الناس إلى كتب الحديث ـ وفى مقدمتها موطأ الإمام مالك ـ لاستنباط الأحكام الفقهية منها مباشرة ، وفى هذا يقول السلاوى : « ولما كانت سنة خمسين وخمسمائة هجرية أمر أمير المؤمنين " عبد المؤمن ابن على " بإصلاح المساجد وبنائها فى جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات مهما كانت وأمر مع ذلك بإحراق كتب الفروع . ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها » وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم (العلماء) فى بلاد المغرب والأندلس[٢] . ولكن عبد المؤمن ركن إلى التراجع ، ولم يتابع تنفيذ أمره هذا ، فلم تحرق كتب الفروع فى عهده ، ولم يتحقق هدفه فى وضع فقه لا يحمل أسماء علماء المالكية !! وربما كان سبب تراجع عبد المؤمن أنه خشى أن يثور فى وجهه علماء المالكية الذين كانوا يحتلون أعظم مكانة فى نفس الشعب المغربى .

وقد حاول الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » أن ينفذ فكرة أبيه فى إلغاء كتب الفروع ، والرجوع فى أمر الفقه إلى الكتاب والسنة . ولكن الزمن

---

(١) وجدت بظهر النسخة الخطية التى تحتفظ بها جامعة القرويين لكتاب أعز ما يطلب . العبارة الآتية : هذا سفر فيه جميع تعاليق الإمام المعصوم المهدى المعلوم ـ رضى الله عنه ـ مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن على أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ، ومكن سعودهم .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ـ ص ١١٢ .

لم يمهله . فقد ذكر المراكشى عن أبى بكر بن الجد أنه لما دخل على الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » أول مرة دخلها عليه . وجد بين يديه كتاب يونس فى الفقه ، فقال : « يا أبا بكر !! أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحدثت فى دين الله أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أو أكثر من هذا ؟ » .

فأى هذه الأقوال هو الحق ، وأيها يجب أن يأخذ به النقاد ؟ ؟ ثم يزيد ابن الجد قائلا : « فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك . فقال لى وقطع كلامى : يا أبا بكر . ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود — وكان عن يمينه — أو هذا وأشار إلى السيف[1] ! ! ولكن وعيد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لعلماء المالكية . كان كوعيد أبيه لهم ، فلم يستطع أن يقدم على تنفيذ شىء ضد كتبهم ، أو لم تمهله حياته ليقوم بالتنفيذ . إذ مات متأثراً بجراحه التى أصابته فى إحدى معارك الأندلس .

ثم جاء دور الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، الذى قام بالخطوة الحاسمة فى أمر الفقه إذ أقدم على تنفيذ رغبة أبيه وجده فى صرامة وحزم ، فأصدر أمره بإحراق كتب مذهب مالك بعد أن يؤخذ منها ما اشتملت عليه من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول المراكشى — وكان من شهود الحريق — لقد شهدت منها (أى من كتب الفقه المالكى) — وأنا يومئذ بمدينة فاس — ما يؤتى منها بالأحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار ! !

ويزيد المراكشى قائلا : « وتقدم المنصور إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوعد فى ذلك بالعقوبة الشديدة . ثم أمر جماعة ممن كان عنده من علماء الحديث بجمع الأحاديث من المصنفات

---

(١) المعجب ص ١٨٥ .

العشرة[1] فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة .

وبعد انتهاء علماء الحديث من وضع هذا الفقه[2] — القائم على الكتاب والسنة — أمر الخليفة يعقوب المنصور بجمعه فى مدونة واحدة ، وأطلق عليها اسم « موطأ الإمام المهدى » ومن المعلوم أن المهدى لم يضع فى هذه المدونة التى حملت اسمه سوى القليل ، ومن بين هذا القليل — على سبيل القطع — باب الطهارة ، الذى أشار المنصور على العلماء باحتذائه فى وضع الفقه الجديد .

وينقسم موطأ الإمام المهدى المذكور إلى سفرين كبيرين :

السفر الأول :

ويشتمل على الكتب الآتية : كتاب الأوقات — كتاب الطهارة — كتاب الصلاة — كتاب الجنائز — كتاب الصيام — كتاب الاعتكاف — كتاب الزكاة — كتاب الحج — كتاب الجهاد — كتاب الإيمان — كتاب النذور .

السفر الثانى :

ويشمل على ما يأتى : الضحايا — العقيقة — الذبائح — الصيد — الأشربة — الحدود — النكاح — الطلاق — اللعان — الظهار — الرضاع — البيوع — الشفعة — الإجارة — المساقاة — القرض — الهبة — الصدقة — الفرائض — العتق — المكاتب — التدبير — العقول — القسامة — التعدى —

(١) المصنفات العشرة هى : الصحيحان : (البخارى ومسلم) والترمذى . وموطأ مالك . وسنن أبى داود . وسنن النسائى . وسنن البزاز . ومسند ابن أبى شيبة . وسنن الدار قطنى . وسنن البيهقى . وأحاديث ابن تومرت فى الطهارة .

(٢) المعجب : ص ١٨٥ — ١٨٦ . ثم انظر تفصيل الفقه الموحدى بكتابى الدعوة الموحدية بالمغرب (طبعة دار المعرفة ١٩٦٤) ص ٣٠٤ — ٣١٩ .

الغصب ـ الأقضيـــة ـ الجامع[1] :

وموطأ المهدى المذكور ، يسير فى العموم على طريقة سرد الأحاديث التى تعرضت لموضوع من مواضيع الفقه . ومثال هذا . أن يعقد باباً عنوانه « فى القضاء بالحق » ثم يبتدئه هكذا :

« عن أم سلمة زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىّ فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار .

وعن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب ، اختصم إليه مسلم ويهودى ، فرأى أن الحق لليهودى فقضى له : فقال اليهودى : إنا نجد (أى فى التوراة) أنه ليس قاض يقضى بالحق ، إلا كان عن يمينه ملك ، وعن شماله ملك ، يسددانه ، ويوفقانه إلى الحق ، ما دام مع الحق ، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه . . . وهكذا[2] .

ونرى مما سبق أن المنصور نجح فيما لم يستطع أبوه وجده أن ينجحا فيه لأسباب منها : أن الدولة الموحدية فى عهد المنصور كانت قد تركزت ، وبلغت أوج قوتها ، فلم تعد الحكومة تخشى الثورات الداخلية . ثم إن المنصور بعد انتصاره على الصليبيين بالأندلس فى موقعة « الأرك » الشهيرة سنة ٥٩٠ هـ ، أضحى يتمتع بحب الشعب ، وتقدير العلماء فى العالم الإسلامى عامة ، وفى المغرب والأندلس خاصة ، وبعد هذا فقد كان المنصور عالماً من علماء الدين المعدودين فى عصره ، كما كان حر الرأى ، فهو أول

---

(١) يشتمل باب الجامع على مجموعة من المسائل التاريخية مثل صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفة سيدنا إبراهيم الخليل ، وصفة السيد المسيح وأشياء أخرى فى سيرة الرسول ودعائه وأسمائه وركوبه ومشيه وسكناه ومأكله . . . إلخ .

(٢) انظر موطأ الإمام المهدى ص ٦٥٩ط الشرقية بالجزائر سنة ١٨٠٥م .

خليفة جاهر ببطلان المهدوية والعصمة والإمامة ، إذ كان ملماً بالحديث الشريف ، عارفاً بصحيحه ومنتحله . فلمس بنفسه ضعف أحاديث المهدوية والعصمة والإمامة ولكن المنصور أبقى رسوم الخطبة فى الجمعة والعيدين على طريقة أبيه وجده فى ذكر الإمام المعصوم والمهدى المعلوم محمد بن تومرت . ولم يجترئ على محو هذه الرسوم سوى ابنه المأمون كما نوهنا فيما سبق .

وكان هذا الموقف الحر من المهدوية مما حبب فيه علماء المالكية فحملوا رأيه فى الفقه محملا حسناً صادراً عن اجتهاد رجل عالم تقى .

وقد نسب بعض المحدثين فكرة الرجوع بالفقه المغربى إلى الكتاب والسنة إلى الخليفة المنصور الموحدى وزعموا أنه تأثر برأى الظاهرية والحزمية(١) . والحقيقة هى ما قررناه آنفاً من أن ابن تومرت قد وضع باب الطهارة على أحاديث أخذها من موطأ مالك . وجردها من الأسانيد وغيرها ثم أراد عبد المؤمن أن يعمم فكرة المهدى فى جمع أبواب الفقه ، ولم ينفذ ما أراد ، كما لم يتمكن ابنه يوسف من التنفيذ ثم استطاع المنصور تحقيق أحلام أبيه وجده . وعلى ذلك فالفكرة هى فكرة ابن تومرت لا المنصور . وليس الموحدون مقلدين للظاهرية أو الحزمية فى فقههم . إذا الفقه الموحدى قائم على مجرد النصوص القرآنية والحديثية ، أما الفقه الحزمى — الذى هو خلاصة الفقه الظاهرى — فهو ملىء بآراء الفقهاء واختلافاتهم(٢) . وتنفيذ هذه الخلافات لإبراز الرأى القائم على الكتاب والسنة . وأن فقه الموحدين قد صدف عنه المغاربة بمجرد سقوط دولتهم سنة ٦٦٧ هـ ورجعوا إلى كتب الفروع كما كتبها فقهاؤهم مستقاة من مذهب مالك .

---

(١) محمد الرشيدى ملين — عصر المنصور الموحدى ص ٣٤٣ ، ومحمد المنونى — العلوم والآداب ص ٥٠ .

(٢) ابن حزم — المحلى ج ١ ، ٣ (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧) .

وقد اشتهرت طائفة كبيرة من الفقهاء فى هذه الحقبة ، بعضهم ظل وفيًّا لمذهب مالك لم يحد عنه قيد أنملة ، وبعضهم ظهر فى ميدان فقه الموحدين ، ولنذكر بعض هؤلاء المالكية ، وبعض هؤلاء الموحدين .

أما المالكية فكان على رأسهم جميعاً القاضى عياض اليحصبى السبتى وقد نوهنا عنه بين المحدثين ، وأشرنا إلى كتبه . ثم القاضى أبو بكر محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله العربى الذى درس بالأندلس والمغرب والمشرق وقضى حياته فى تدريس الفقه وفى عمل القضاء وكان أستاذاً لابن بشكوال المؤرخ — صاحب كتاب الصلة — ولابن العربى عدة مؤلفات فقهية منها القبس فى شرح موطأ مالك . كما ألف فى ميادين أخرى ، فله كتاب التلخيص فى النحو . وكتاب أنوار الفجر فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد لقى الخليفة عبد المؤمن بمراكش ، وعند عودته إلى بلاده وافته منيته فدفن بمدينة « فاس » سنة ٥٤٢ هـ(١) .

ومن فقهاء المالكية أيضاً إسحق بن إبراهيم بن يعمر الفاسى . درس بالمغرب والأندلس ، وتولى قضـــاء فاس وسبتة ، وكان متبحراً فى الفقه المالكى حتى قيل إنه كان يحفظ المدونة . وفقد محارباً فى موقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩ هـ(٢) .

ثم محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى المعروف بابن أبى جمرة . نشأ بمرسية ودرس فقه مالك على أقطاب عصره ، وتولى قضاء مرسية ، ثم بلنسية ، ثم شاطبة ، ثم أريولة . وكان فقيهاً بارعاً بصيراً بمذهب مالك . متخصصاً فى تدريسه فصيحاً بليغاً ، وله كتـــاب نتائج الأبكار ومناهج النظار فى معانى الآثار . وقد أحرقه الخليفة المنصور فيما أحرقه من كتب مذهب مالك . وتوفى سنة ٥٩٩ هـ(٣) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب — ج ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٧ .
(٢) التكملة رقم ٥١٧ .
(٣) التكملة رقم ١٥١٤ .

وأما فقهاء الموحدين الذين برزوا فى الفقه القائم على الكتاب والسنة فقط ، فكان من بينهم :

أبو الحسن على بن محمد بن خيار البلنسى ثم الفاسى (٥٤١ – ٦٠٥هـ)[١] وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هرون المرادى الفاسى المعروف بابن الكماد ومنهم أيضاً أبو الخطاب بن دحية الكلبى – وأخوه عمرو . وقد وصفهما ابن خلكان بالاجتهاد فى المذهب الموحدى[٢] .

ومن هؤلاء أيضاً : عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى . ولد بفاس ونشأ بالأندلس وكان فقيهاً متمكناً ، ولاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قضاء فاس وتوفى بمكناس سنة ٥٩٧ هـ[٣] .

ثم محمد بن على بن مروان بن جبـل الهمدانى من أهل وهران بالجزائر . درس بتلمسان وتولى قضاءها ثم قضاء الجماعة بمراكش ، وكان فقيهاً متمكناً ، حميد السيرة ، شديد الهيبة ، يتحرى العدل ، ولا يخشى فى الحق لومة لائم . توفى بفاس سنة ٦٠١ هـ[٤] .

ومنهم صالح بن أبى صالح خلف بن عامر الأنصارى ، درس بالأندلس ثم بمدينة تلماس ثم بتونس والمهـدية . وكان فقيهاً مشهوراً وتوفى سنة ٥٨٦ هـ[٥] :

ومن الوظائف الفقهية الكبرى التى ازدهرت فى عهد عبد المؤمن وخلفائه :

وظيفة التوثيق .

كان الموثقون يقومون بإنجاز عقود الميراث والبيع والشراء والزواج والطلاق

---

(١) التكملة رقم ١٩١٧ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٣ – ص ٤٣٢ .

(٣) التكملة ٢١٥٥ .

(٤) التكملة ١٧١٩ .

(٥) التكملة ١٨٨٧ .

طبقاً لأحكام الشريعة الغراء فكان عملهم مزيجاً من عمل المحاكم والمأذونين وإدارة المساحة في عصرنا الحاضر . وقد ظهرت طائفة كبيرة من فقهاء التوثيق في هذا العصر نذكر منهم على سبيل المثال :

الفقيه بيبش بن محمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدرى نشأ بمدينة بلنسية ودرس الفقـه حتى نبغ فيه ، ثم قام بتدريسه ، ثم تولى خطة الشورى ، وخطة الأحكام ، وكان بصيراً بعقد الشروط مدركاً لصحة الأحكام . ثم تطوع لحرب النصارى فى جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين سار لغزو مدينة وبذة سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفى سنة ٥٦٨هـ[١] .

ثم إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد خالد الغرناطى الذى درس على أقطاب عصره بغرناطة وقرطبة . وبرع فى الفقه والحديث . ومارس عقد الشروط . وتولى القضاء فى عدة جهات ثم توفى سنة ٥٧٩ هـ[٢].

ومنهم : محمد بن أيوب بن محمد بن وهب من أهل بلنسية . وكان من أشهر الفقهاء ، وانتهت إليه الرياسة فى عقد الشروط والفتيا . ويقول عنه ابن الأبار . إنه كان أغزر من لقيت علماً ، وأبعدهم صيتاً[٣] .

وممن ألف فى الوثائق : أبو الحسن الحرالى صاحب كتاب « الوافى فى الوثائق » .

ثم أبو الحسن على بن يحي الصنهاجى الريفى صاحب كتاب « المقصد المحمود فى تلخيص العقود »[٤] .

---

(١) التكملة ٦٠٩ .
(٢) التكملة ٤٠٠ .
(٣) التكملة ١٥٥٦ .
(٤) التكملة ٢٣٧٨ .

٦

(ا) علوم اللغة العربية

(١) النحو واللغة :

عنى الموحدون بالعلوم اللسانية ، ولا سيما أن ابن تومرت كان من المهتمين باللغة العربية ، وممن درسوها بالمشرق فعلى ضوئه سار خليفته عبد المؤمن الذى نشأ ابنه يوسف تنشئة دينية ولغوية ، فأضحى من علماء اللغة ومن المتبحرين فى علم النحو[١] ، والناس على دين ملوكهم ، وليس أدل على عناية الموحدين بعلوم اللغة عامة ، والنحو خاصة ، من أن أساطين النحاة بالمغرب والأندلس قد ظهروا فى عهدهم ، ففى الأندلس ظهر عمر الشلوبين مؤلف كتاب التوطئة فى النحو ، وعلى بن خروف شارح كتاب سيبويه ، ومحمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة فى النحو والصرف وصاحب لامية الأفعال ، وكان على رأس نحاة المغرب فى هذه الفترة : أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى المراكشى مؤلف الجزولية ، التى أطلق عليها النحاة عدة أسماء : فسميت القانون ، وسميت الاعتماد ، وسميت المقدمة ، وهى كتيب موجز ولكنه مشتمل على كثير من مسائل النحو التى هى أقرب إلى الألغاز والرموز منها إلى القواعد النحوية الواضحة .

وقد وضع ابن مالك صاحب الألفية — شرحاً للجزولية قال فى مطلعه :

« إن كتاب القانون فى النحو — وإن كان صغير الحجم — لكنه كثير العلم ، مستعص على الفهم ، مشتمل على أبواب الأدب ، منطو

---

(١) المعجب ص ١٥٥ .

على سر كلام العرب ، متضمن للنكات الغريبة التى خلا عنها أكثر شروح النحو[١] .

ويقول ابن خلكان واصفاً الجزولية : « إن الجزولى قد أتى فيها بالعجب العجاب وهى فى غاية الإيجاز مع الاشتمال على شىء كثير من النحو »[٢] ، وقد وضع للجزولية عدة شروح منها شرح كبير للجزولى نفسه ، وشرح كبير لابن عصفور ، وقد أكمله الشلوبين[٣] .

ومن نحاة المغرب أيضاً : ابن خلف البكرى السلوى الذى شرح المفصل وشرح الجزولية ، وابن داود الشاذلى المراكشى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى العبدرى الفاسى المعروف بالصولى[٤] .

ومن اللغويين المغاربة : محمد بن أحمد بن هشام اللخمى السبتى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ صاحب كتاب الفصول والجمل فى اللغة ، ثم كتاب لحن العامة ، ثم شرح كتاب الفصيح لثعلب .

وممن ألفوا فى العروض أبو ذر مصعب بن مسعود الخشنى ، ثم الحسن ابن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى الذى درس القراءات والحديث وبرع فى النحو والعروض وتوفى بمالقة سنة ٥٨٥ هـ[٥] .

ومن الأندلسيين أيضاً : محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف الذى درس على أقطاب عصره فكان على جانب عظيم فى علم اللغة والبلاغة

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٥٠٥ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٩٨ .

(٣) رأيت من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ونسخة ثانية بمكتبة جامعة القرويين بفاس .

(٤) انظر تراجم هؤلاء بكتاب بغية الملتمس للضبى .

(٥) التكملة ٢٠٥٨ .

وتوفى بمرسية سنة ٥٨٦ هـ[١] .

وعبد الله بن يحيي بن عبد الله الحضرمى النحوى المتوفى ببلنسية سنة ٥٧٨ هـ[٢] .

وجبة بن يحيي بن خلف الأشبيلى ، كان إماماً فى علوم اللغة والبلاغة ، وقد طال عمره حتى قام بالتدريس لأبناء الخليفة يعقوب المنصور وممن شهدوا موقعة الأرك الشهيرة ، وتوفى سنة ٥٩١ هـ[٣] .

(ب) الأدب :

كان المرابطون يتسمون بالشجاعة والبأس ، وربما كانوا أنبه ذكراً فى ميادين القتال ، وانتصاراتهم على النصارى — بصفة خاصة — أبعد أثراً من الموحدين ، كما عرف المرابطون أيضاً بالتفوق والصلاح والزهد والخشونة من تلك الصفات الضرورية لمن يريد أن يهب نفسه للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولكن المرابطين — وهم من رجال الصحراء — لم يفكروا فى إنهاض العلوم والآداب ، بل كثيراً ما كانوا حرباً على المعرفة بدعوى أنها أمر ضار بالدين الإسلامى أو فى أقل تقدير ، لا تتمشى مع ما أثر عن السلف الصالح ، المثل فى مذهب « مالك » رضى الله عنه[٤] .

(١) التكملة ١٤٦٧ .

(٢) التكملة ٢٠٦٦ .

(٣) التكملة ١٨٧٩ .

(٤) يقول المراكشى : « . . . ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين (على بن يوسف ابن تاشفين) ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من يظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد فى أشباه لهذه الأقوال حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد (المعجب — ص ١١١) .

نعم قد جذب المرابطون طائفة من أدباء الأندلس إلى بلاطهم . مثل أبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب — أحد رجال البلاغة . وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، وأخيه ابن مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم[1] ، ولكن كان المقصود بهم أن يكونوا أداة أدبية لدواوين الحكومة ، وأن يستعملوا في كتابة الرسائل التي يرسل بها سلاطين الدولة إلى الجهات المختلفة ، ومن المحتمل أيضاً أن سلاطين المرابطين قصدوا بهؤلاء الأدباء أن يكونوا وسيلة لتحسين العلاقة النفسية بين المغرب المتسم بالخشونة العسكرية وبين الأندلس التي كانت تتيه عجباً بمكانتها العلمية والأدبية في هذه الفترة .

ونريد أن نقول : إن هؤلاء الأدباء المستوردين من الأندلس لم يكونوا وسيلة لنشر المعارف والآداب بين الشعب ، ولم يطلب منهم هذا ولم يفكروا فيه ، فظلت الحياة العامية والأدبية بالمغرب في عهد المرابطين في حالة جمود .

ومهما قيل في الموحدين ودعوتهم ودولتهم فإنهم كانوا الشمس التي أشرقت بالعلم والمعرفة على المغرب ذلك أن صاحب دعوتهم المهدي ابن تومرت كان رجلا عالماً أديباً ، وقد ربى طائفة من العلماء الأدباء ، وكان تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي في مقدمتهم ، فانطبعت الدعوة والدولة بطابع العلم والأدب من أول يوم ظهرت فيه على أرض المغرب العربي إذ قامت على التدريس والخطابة لشرح الدعوة ونشرها بين القبائل ، وقد جند المهدي طائفـــة مختارة من تلاميذه لبث مبادئه ، كان منهم عبد المؤمن بن علي وأبو حفص عمر الهنتاتي ، ومحمد البشير وغيرهم ، وكان هؤلاء يخطبون باللغة العربية وكثيراً ما يستشهدون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . كما كانوا أحياناً يركنون إلى اللغة البربرية إذا اقتضى المقام

---

(١) المصدر السابق ص ١١١ — ١١٢ .

استعمالها على نحو ما يلجأ خطباء الجماهير فى عصرنا ، وكان عبد المؤمن ابن على شاعراً وأديباً ناقداً ، فنشأ أبناؤه عن شاكلته ، ونسج الشعب على منوال أمرائه ، فانتشر العلم والأدب ، وتبارى العلماء فى ميادين البلاغة، والشعر لينالوا حظهم من الحياة فى عصر عرف ملوكه وأمراؤه بالعلم والبلاغة ونال رجال الأدب الذين أنبتهم المغرب الموحدى كل تشجيع وتقدير ، فنفق سوق الأدب ، وصار أدباء المغرب ينافسون أدباء الأندلس لأول مرة فى التاريخ ، وطبع الأدب المغربى بطابع القومية والأصالة ، وصار أدباً معبراً عن المشاعر المغربية الحقة ، ومترجماً للصفات المغربية الأصيلة من الجد ، والصرامة ، والشجاعة ، وحب الدين : والبعد عن الخلاعة كما عبر الأدب الموحدى — بصفة خاصة — عن الدعوة الموحدية ، والمهدية والعصمة والإمامة ، ولكنه لم يصل بمبادئ المهدوية إلى مستوى التأليه الذى وصل إليه غلاة الشيعة .

ونورد فيما يلى وصفاً للحياة الأدبية : نثرها ، وشعرها : لعلنا نفى بحق هذا البحث الذى يدور على محور إيضاح الحياة الاجتماعية ، وما فيها من علم وفن وأدب .

١

النثر

كانت الخطابة أول أداة استعملها الموحدون – كما أشرنا إلى ذلك آنفاً – فقد اتخذها محمد بن تومرت طريقاً إلى نشر دعوته ، ابتداء من مكة المكرمة – التى كانت تحت حكم الفاطميين حينئذ – حتى استقر بين قومه بالمغرب الأقصى ، ثم أخـذ يزاولها فى قبائل المغرب حتى وافته منيته ، ولم يكن ابن تومرت بدعاً فى هذا ، فالخطابة هى أداة نشر الدعوات فى كل زمان ومكان ، وفى عامة الأمم ، ولهذا كانت أشرف أساليب الأدب جميعاً .

ومن خطبه التى دونت ، خطبته التى ألقاها فى الموحدين فقاموا بعد سماعها مبايعين إياه بالمهدوية وكان على رأس المبايعين « عبد المؤمن بن على » وقد أوردنا هذه الخطبة عند الكلام عن نشأة الموحدين فى بحثنا هذا ، ثم خطبته فى الموحدين يحثهم على اختيار تلميذه عبد المؤمن بن على للخلافة ، وقد أوردناها فى هذا البحث أيضاً عند الكلام على خلافة عبد المؤمن .

ومما قاله فى إحدى خطبه منددا بعلماء المرابطين الذين يعارضون دعوته :

« . . . . واعلموا – وفقكم الله – أن المجسمين والماكرين ، وكل من نسب منهم إلى العلم أشد فى الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولون فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسله . وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فهو خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله . ويأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق ، واتبع سنة

رسول الله صلى الله عايه وسلم ، وأناب إلى الله مخالفاً لله ورسوله .

واعلموا – وفقكم الله – أن الموحدين فى الأمن والأمان ، وفى نصر من الله وعافية وفضل منه وإحسان ، تتابعت عليهم النعم ، وترادفت عليهم المنن ولله الحمد على ذلك ، اشتغلوا بتعليم ما يلزمهم ، والاهتمام فى دينهم ، والقيام بفرائضهم ، والاستعداد للقاء ربهم . . . . أذل الله عدوهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . . . . إلخ[1] .

ونلاحظ فى خطاب ابن تومرت ، أن أسلوبه فيها – بصفة عامة – يتسم بالسهولة ، وقلة استعمال المحسنات البديعية المتكلفة على الرغم من ظهور المحسنات وشيوعها بالمشرق فى الحقبة التى عاشها ابن تومرت فى معاهد المشرق .

كما نلاحظ أنه يعتمد على عنصر التأثير ، أكثر من اعتماده على عنصر الإقناع وربما كان ذلك لأن أتباعه كانوا – غالباً – من الأميين الأغرار الذين تهزهم العبارات الدينية ، كذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، واتباع سنته أكثر مما يبسط أمامهم من الأدلة العلمية .

وبانتهاء فترة تعريف الناس بالدعوة الموحدية فى عهد صاحبها محمد بن تومرت بدأت الخطابة تنزل عن مكانها الرفيع . لتحل محلها الكتابة فى عهد عبد المؤمن بن على .

ويبدو أن الكتابة الموحدية كانت فى عصرها الذهبى فى عهد عبد المؤمن إذ جمع المستشرق الفرنسى « ليفى بروفنسال » رسائل الموحدين فكانت سبعاً وثلاثين رسالة من بينها ثلاث وعشرون كتبت فى عهد عبد المؤمن ، وإذا افترضنا أن « ليفى بروفنسال » لم يستطع جمع كل ما أنتجته الدولة الموحدية من رسائل أدبية ، فإن هذه الرسائل الثلاث والعشرين التى نسبت إلى كتاب عبد المؤمن خليقة بأن تعبر عن ازدهار الكتابة فى عهده .

---

(١) كتاب أعز ما يطلب ، للإمام المهدى ص ٢٨٥ .

وقد ثبت أن عبد المؤمن استكتب خمسة من كبار كتاب عصره هم :
أبو جعفر[١] بن عطيـــة ، وأخوه عقيل بن عطية[٢] وأبو الحسن

---

(١) ، (٢) أبو جعفر بن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية : هما ابنا جعفر بن محمد بن عطية وأبوهما فى الأصل من قرية صغيرة بناحية ظرطوشة بشرقى الأندلس ، وكان أعظم الأخوين شأناً وأرفعهما مكانة ، أبو جعفر بن عطية ، وقد ترجم لأبى جعفر هذا عدد كبير من المؤلفين منهم ، عبد الواحد المراكشى فى المعجب، وابن الأبار فى الحلة السيراء ، وابن الخطيب فى الإحاطة ، والمقرى فى نفح الطيب .

وقد ولد أبو جعفر بمراكش سنة ٥١٧ هـ ، وكتب للسلطانين المرابطين ، على ابن يوسف ، وابنه تاشفين ، وكان على ما ذكره ابن الخطيب أحظى كتابهم ، ولما أشرفت الدولة المرابطية على السقوط ، اختفى أبو جعفر ودخل فى غمار الشعب، وتطوع للقتال فى صفوف الموحدين ، وهذه سقطة خلقية كما لا يخفى ، ولكن أباجعفر ظل على الوفاء لزوجته الأميرة المرابطية (ابنة الأمير أبى بكر بن يوسف بن تاشفين) كما ظل وفيًّا لإخوتها . ولما قامت ثورة « الماسى »ضد الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٢ هـ انضم أبو جعفر بن عطية ، إلى جنود الموحدين تحت قيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، ولما انتهى القتال بانتصار الموحدين على الماسى ، طفق الشيخ أبو حفص يبحث عن كاتب قدير ليكتب بالانتصار إلى الخليفة عبد المؤمن ، وهنا برز أبو جعفر من بين صفوف الجند ، ودبج رسالة الانتصار باسم القائد العظيم أبى حفص عمر إلى الخليفة عبد المؤمن بن على ، ولما وصلت الرسالة إلى عبد المؤمن أعجب بها ، وطلب من الشيخ أبى حفص إرسال كاتبها إليه على الفور ، ولما وفد ابن عطية على الخليفة عبد المؤمن ، بالغ فى إكرامه وقلده خطة الكتابة ، ثم لم يلبث أن قلده منصب الوزارة ، وأسند إليه مهام أمور الدولة ، فنهض بمهمته على خير وجه مما أحقد عليه رجال الحاشية الذين أخذوا يحيكون له الدسائس فى الخفاء ، حتى نجحوا فى الإيقاع بينه وبين الخليفة فى قصة لا محل لذكرها فى هذا المقام ، فسجنه الخليفة عبد المؤمن وسجن معه أخاه أبا عقيل وانتهى الأمر بقتلهما ، فى صفر سنة ٥٥٣ هـ . وقد بذل ابن عطية كثيراً من الاستعطاف الذى سوف نتعرض له على غير طائل .

ابن عياش[١] . وأبو الحكم المرخى[٢] ، وأبو القاسم القالمى[٣] .

وقد كتب أبو جعفر بن عطية من الرسائل الثلاث والعشرين التى نسبت إلى كتّاب عبد المؤمن الخمسة المذكورين ست عشرة رسالة[٤] ، وكتب عقيل بن عطية ثلاث رسائل[٥] ، وكتب القالمى رسالتين[٦] ، وكتب ابن عليش رسالة[٧] ؛ وكتب ابن المرخى رسالة[٨] .

ومما جاء برسالة أبى جعفربن عطية التى أرسل بها أبو حفص عمر الهنتاتى

---

(١) هو عبد الملك بن عياش بن عبد الملك بن هرون الأزدى القرطبي وأصله من مدينة « يابرة » بغربى الأندلس ، وذكر ابن الأبار فى التكملة أنه صحب ابن حمدين بقرطبة ، وكتب له ، ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك فى الكتابة ، ويذكر ابن الأبار أيضاً أن عبد الملك بن عياش كان مع تقدمه فى النثر وتصرفه فيه شاعراً رقيقاً ، وخطاطاً بارعاً وكانت له منزلة جليلة عند الولاة ، وقد توفى سنة ٥٦٨ هـ .

(٢) هو على بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمى الإشبيلى الشهير بالمرخى ولى خطة الكتابة للموحدين ، ترجم له ابن الزبير فى صلة الصلة وابن الأبار فى التكملة ترجمة مختصرة ، ولم يعينا تاريخ ميلاده أو وفاته .

(٣) لم نستطع العثور على ترجمة مطولة لأبى القاسم القالمى . وقد نوه به المراكشى فقال عقب كلامه عن مقتل الوزير الكاتب أبى جعفر بن عطية . ثم كتب له (أى الخليفة عبد المؤمن) بعد أبى جعفر . أبوالقاسم عبدالرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف « بقالم » وكتب معه أبومحمد عياش بن عبدالملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة (المعجب ص ١٣٠) .

(٤) وهذه الرسائل هى ، الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والتاسعة عشرة والثالثة والعشرون .

(٥) ورسائله هى ، الثامنة والسادسة عشرة والسابعة عشرة .

(٦) ورسالتان هما ، الحادية والعشرون والثانية والعشرون .

(٧) ورسالته هى ، التاسعة عشرة .

(٨) ورسالته هى ، الرسالة العشرون.

إلى عبد المؤمن يعلمه بانتصار الموحدين على الماسى ، قوله بعد الديباجة :
« كتبنا هذا من وادى ماسة بعد ما تحقق من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

فتح (سرى) بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تستطيع الألسنة وصف كنهه إدراكاً ولا لحاقاً . . .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كأن أولئك المرتدين الضالين قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنى واسماً وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً . . . . . إلخ[1] .

ومن رسالة له على لسان الخليفة عبد المؤمن إلى الموحدين بالأندلس قوله :

. . . وقد اتصل بنا — وفقكم الله تعالى — أن من لا يتقى الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه فى كبيرة يغشاها وتغشاه ، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياء فى غير محلها ، ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون فى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً ويحسبونها ، ويسعون فى استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبى — صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم —

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب ! ! سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ولا يحرون[1] بآذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطرون[2] « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » هيهات هيهات ! ! إنهم ساء ما كانوا يعملون تالله ليأتينهم من العقاب الأليم فى أقرب أمد ما يهدهم هدًّا ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سدًّا ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام ، فقد جاءوا شيئاً إدًّا ، أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم فى مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم ؟ أما علموا أن أمر المهدى — رضى الله تعالى عنه — تساوى فى الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ؟ ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ؟ لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم ، إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً . وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخلص ولسارع إليه من أسرع عقابنا ، ما يمحو رسمه محو الفنا . . . . . ولقد ذكر الناس تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، إن أولياءك الخائضين فى غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغاراً للصدور وإيحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه — ما أبعد العدل — أصاحكم الله تعالى — عن هذه الأمثال والأشباه . . . . إلخ[3] .

---

(١) أى لا يقصدون إلى الاسماع .

(٢) أى لا يخطر ببالهم .

(٣) نظم الجمان لابن القطان (مخطوط لوحة ٥٦ب ، ٦٥ أ ، وانظر دواة الإسلام بالأندلس ، للأستاذ محمد عبد الله عنان جـ ١ ص ٥٥٢ .

وهذه الرسالة التى كتبها أبو جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن تشتمل على كثير من النقد الموجه للولاة ، والقائمين بشئون الحكم بالأندلس ، وموجهة بصفة خاصة إلى العلماء الذين هم أولى الناس بالغيرة على الحق والعدل[١] .

وترى فى الرسالة مدى قوة أسلوب ابن عطية ، وحسن تصرفه ، فقد سرد العيوب وأتبعها بالتهديد والوعيد ، فى لغة سهلة متينة ، غير أننا نلحظ التزامه للسجع فى شيء من التكلف كقوله . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، فقد أخر فاعل يقرع لغير ضرورة ليحقق مأربه من السجع !! ونلاحظ أن ابن عطية قد ضمن الرسالة كثيراً من عبارات القرآن الكريم والحديث الشريف مما يدل على سعة اطلاعه ، وقدرته الكتابية ، ولابن عطية كثير من الآثار النثرية ، ولا سيما تلك الرسالة التى أرسلها إلى الخليفة عبد المؤمن متوسلا فيها بالمهدى أن يفك أسره ، ويعفو عن حوبته ، وقد جاء فيها :

تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن فى الوجود وأنفت لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح فى الفلك إلى نوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا . . . . . . وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة . . . . . . وذاولت من قرع سن الحسين قضيباً . . . . ثم أتيت حضرة المعصوم عائذاً ، وبقبر الإمام المهدى لائذاً ، لآن لمقالتى أن تسمع ،وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع مع أنى مقترف ، وبالذنب معترف .

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا بِرد قلوب هدها الخفقان ؟

ثم قال :

أنوح على نفسى أم انتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى

---

(١) هذا جزء يسير جداً من هذه الرسالة التى سنجعلها ملحقاً للبحث لأهميتها التاريخية إذ ترسم سياسة عبد المؤمن بصفة عامة .

وها أنا فى ليل من السخط حائر ولا أهتدى حتى أرى للرضا صبحا[1]

وإنى أرى أن الأمور التى سردها مبالغاً فى الاعتذار ومستدراً لعطف الخليفة لا يقرها الدين الإسلامى ، بل يحكم بالكفر على من اتصف بواحدة منها ، وربما كانت مادة خصبة لأعدائه — الذين كانوا يحيطون بالخليفة عبد المؤمن ، ليحبطوا كل محاولة للعفو عن ابن عطية فالذى أنف من السجود لآدم هو الشيطان .

وقدار ، هو الرجل الذى عقر ناقة صالح عليه السلام ، وأولئك الذين رموا بسيدنا إبراهيم فى النار هم عبدة الأصنام والأوثان و ... إلخ فكيف يعفو عبد المؤمن عن الشيطان ، وعبدة الأصنام مثلا ، ثم ماهو قبر ابن تومرت الذى من يلوذ به تغفر ذنوبه وإن وصلت إلى مستوى الكفر ؟؟ .

وإنا لنقف عندما ذكرناه من نماذج كتابية لابن عطية باعتباره كبير كتاب عبد المؤمن . وقد ظهرت فى هذا العهد **الرسائل الإخوانية** ومن ذلك رسالة عيسى بن عمران التسولى (المتوفى سنة ٥٧٨ هـ) التى كتبها إلى ولده إذ يقول :

إلى ولدى .... هداه الله وصانه ، وجمله بالعلم والتقوى وزانه ، كتبت إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله تعالى تتيسر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا ما وجدتكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، والتزام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يرضيكم وبما يزيد على أقصى تمنيكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تنال بالراحة وأن العلم لا ينال براحة الجسم ، فادرس ترؤس واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق ، ومهما ركنت إلى الدعة كنت فى أهل النعمة ، وما رأيت الناس على حمده فأجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه ، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الأوسط .

---

(١) إبراهيم الألغى : الأدب العربى ج ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه   فني صالح الأعمال نفسك فاجعل[1]

وظهرت فى هذا العهد أيضاً **رسائل التوقيعات** .

ومن هذا النوع توقيع عبد المؤمن على قصيدة الكاتب أبي جعفر بن عطية إذ أرسل أبو جعفر وهو فى السجن قصيدة يستعطف بها الخليفة عبد المؤمن ليمن عليه بالعفو . ومطلع القصيدة :

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد   بان العزاء لفرط البث والحزن

فلم يستجب له عبد المؤمن ، ووقع على القصيدة بالآية الكريمة :

« آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . .

وقد نسج على منواله خلفاؤه ، فقد كاف الخليفة يعقوب المنصور أحد القضاة بأن يختار له اثنين من المدرسين لتعليم أولاده ، فاختارهما القاضى ، ووصف أحدهما بأنه بر فى دينه ، ووصف الثانى بأنه بحر فى علمه ، ولما اختبرهما الخليفة المنصور لم يحسنا فى نظره فكتب إلى القاضى بالآية الكريمة : « ظهر الفساد فى البر والبحر . . »[2] .

كما ظهر من فنون النثر أيضاً **المناظرات** وكان أول مناظر فى الموحدين إمامهم المهدى ابن تومرت الذى ناظر علماء المرابطين وأفحمهم بمجلس السلطان على بن يوسف بن تاشفين . ثم ارتقى[3] فن المناظرات فى عهد عبد المؤمن . الذى كان فترة جدال طويل بين الموحدين وبين علماء المالكية . وفضلاً عما جبل عليه المغاربة من حرية الرأى ، فإن الموحدين قد كفلوا هذه الحرية وأطلقوها للناس ، وقد وضحت هذه الحرية بجلاء فى الأندلس ، حيث كثرت المناقشات والمجادلات فى شئون العلم عامة وحول المهدوية خاصة ،

---

(١) عبد الله كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) إبراهيم الألغى ، الأدب العربى ج ٢ ص ٤٠ هامشة (١) .

(٣) القرطاس ج ٢ ص ١٠٩ ، ١١١ .

وقد ابتكر أحد علماء الموحدين بالأندلس ويدعى أبا عبد الرحمن بن طاهر نوعاً من المناظرة الخيالية . جعلها مجادلة بين النفس المطمئنة التى يقول الله فيها : « يأيتها النفس المطمئنة . . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . . فادخلى فى عبادى . . وادخلى جنتى . . » وبين النفس النزوعية (أى التى تنزع إلى السوء) وهى التى قال الله سبحانه وتعالى فيها : « إن النفس لأمارة بالسوء » : ثم يقيم ابن طاهر بين النفسين مناظرة تنتهى بانتصار فكرة المهدوية ، وصحة مهدوية بن تومرت . ومما قاله ابن طاهر على لسان النفس المطمئنة : « . . . ألم تكن مدن الملثمين مدناً ضالة فاسقة خبيثة نذلة للغاية . . . وكان كل إنسان يظن لضعف يقينه أن خلعهم من المحال . . . فقام المهدى أبو عبد الله محمد ابن عبد الله تومرت — رضى الله تعالى عنه — بإطفاء هذه النار مستعداً إذ لم يجد فى الشريعة بداً . وبادر — رضى الله عنه — لها مشمراً ومجداً . وذكرنا بالأوضاع النبوية ، ونبه على الطرق الشرعية ، وحض على المسالك الأخروية وخسس تلك السير الجاهلية ، والسياسات الفاسقة الدنيوية ، فأعانته الحكمة الإلٓهية وأتى فى ذلك بالعجب العجيب ، والأمر الغريب . والله عز وجل يؤيده وينصره ، ويصرف إليه نفوس أهل التوحيد ويظفره ، حتى أعلى به كلمة أهل التوحيد ، وجعله رحمة لقوم مؤمنين و . . . إلخ »[1] .

وهذه المناظرة على طولها ، لم نر فيها الطرف الثانى (وهو النفس الأمارة بالسوء) يقول فيها شيئاً مذكوراً ؛ إذ كان ابن طاهر حين يتكلم بلسانها يقوله : وكيف هذا ؟ فتستمر النفس المطمئنة فى بسط الكلام : ثم تنتهى المناظرة بغلبة النفس المطمئنة أى بإقرار المهدوية . ولكن الذى يلفت النظر فى هذه المناظرة الطريفة أن ابن طاهر أقام صحة المهدوية على مسائل إصلاحية ، وهو رأى يتمشى مع منطق المجتمع ، فجميعنا يعتبر الرجل المصلح رجلا ممتازاً ، ولا بأس أن نسميه رجلا مصلحاً عظيماً ، وتسميه

---

(١) ابن القطان (مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) ورقة رقم ١٩ .

أسطورة المهدوية مهديـاً .

ومن فنون النثر التى شاعت فى هذا العصر . النثر التأليفى وكان ذلك أثراً للنهضة الفكرية فقد ظهرت مؤلفات فى عامة أنواع الثقافة كالتاريخ والفلسفة والعلوم الدينية والعلوم الأدبية إلى غير ذلك .

ومن هذا النثر قول المهدى ابن تومرت فى الإمامة : « . . . هى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان . إلى أن تقوم الساعة ما من زمان إلا وفيه إمام الله قائم بالحق فى أرضه ، من آدم إلى نوح . ومن بعده إلى إبراهيم قال الله تبارك وتعالى له (أى لإبراهيم) : « . . . إنى جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتى؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين »[1] ؟

(١) كتاب أعز ما يطلب للإمام المهدى ص ٢٠٣ .

٢
الشعر

اتصف الموحدون الأوائل بالأدب . فكان ابن تومرت — بجانب تبحره فى كثير من علوم الدين — أديباً شاعراً . وكان عبد المؤمن — بجانب مسئوليته السياسية والحربية — يقول الشعر وينقده . وقد نوهنا فيما سبق عن نقده لبعض شعراء حفل جبل طارق . وكان من أثر إدراك عبد المؤمن العميق لغث الشعر وثمينه ، أن قام شعر الموحدين على شىء غير قليل من الأسس السليمة ، والتصوير الجميل . والتعبير الصادق ولا سيما أن عبد المؤمن كان لا يتورع عن نقد الشعراء على مرأى ومسمع من الجمهور ، فقد أعلن استقباحه لمطلع قصيدة الشاعر المشهور أبى العباس بن سيد الأشبيلى المعروف باللص حين استهل قصيدته بقوله :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل   وانظر إلى الجبل الراسى على جبل

إذ نفر سمع عبد المؤمن حين قرعته كلمة « غمض » وقال مقاطعاً الشاعر : غمض . . . غمض . .

وحين قال الشاعر : وانظر إلى الجبل الراسى على جبل . قاطعه عبد المؤمن مرة أخرى قائلا : « ثقلتنا يا رجل . . ثم أمر به فأجلس . . وكان موقف عبد المؤمن هذا درساً كافياً لحمل الشعراء على الحذر والتجويد ، كما كان عبد المؤمن — باعتباره أول خليفة فى الدولة الموحدية — قدوة طيبة لمن جاء بعده من الخلفاء والأمراء فى الإقبال على الأدب وتشجيعه ، وتأثيل مجده .

وإنا لنقدم بعض النماذج التى تكشف عن حال الشعر فى هذه الحقبة

من حياة الدولة الموحدية ، قال المهدى بن تومرت مناجياً نفسه ، ومحاسباً إياها :

أخذت بأعضادهم إذا نأوا وخلفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى تسن الحديد ولا تقطع (١)

وتثبت المصادر التاريخية للخليفة عبد المؤمن شعراً جيداً . ومن ذلك قوله :

وحكّم السيف لا تعبأ بعاقبة وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة ولا ترد صدور الخيل بالكتب (٢)

والبيتان يقتربان لفظاً ومعنى من قول أبى تمام فى مطلع قصيدته التى مدح بها المعتصم وقتما فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

مما يحملنا على القول بأن عبد المؤمن كان مقتبساً من أبى تمام فيما قال :

وينسب ابن صاحب الصلاة إلى عبد المؤمن ، قصيدة ختم بها رسالته إلى ابنه الأمير يوسف مبشراً إياه بفتح المهدية ، وتطهيرها من النصارى ، وواعداً إياه بحرب نصارى الأندلس فى القريب العاجل . . والقصيدة هى :

ولما قضينا بالمشارق أمرنا وتم مراد الله فى كل مطلب
وطهر هذا الصقع من كل كافر وعاد بها الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة ونادى منادى الحق فى كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم فطار بها شأو السرور بمغرب
فأبشر أبا حفص بنصر مؤزر كفيل بما تبغيه فى كل مذهب

---

(١) إبراهيم الألغى : تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) المصدر السابق — ص ٣٨ .

ومنها :

ولابد من يوم أغر محجل يسيل دماء الكفر من كل مذنب
وتشفى صدور المؤمنين بغزوة تكون على حكم الحسام المدرب
ويغزو بلاد الروم جيش عرمرم تخير من قيس[١] وأبناء يعرب

ومنها :

فيدفع بالصمصام كل مجاهر ويقطع بالبرهان كل مشاغب
فطوبى لأهل الغرب ماذا يرونه من النصر والفتح المبين المقرب

وهذه القطعة من نوع القصص الحماسى الذى هو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر فهو يصور حقائق تصويراً يكاد يخلو من الخيال الذى هو روح الشعر . ولولا ما تشتمل عليه من الانفعال النفسى لكانت مجرد نظم .

وتنسب بعض المصادر محاورة غزلية إلى عبد المؤمن ووزيره الكاتب أبى جعفر بن عطية نعتقد أنها من الشعر المنتحل المدسوس على الخليفة عبد المؤمن . وخلاصتها أن الخليفة عبد المؤمن خرج متنزهاً ، ومعه أبوجعفر ابن عطية . فنظرت إلى عبد المؤمن فتاة جميلة من إحدى النوافذ . ولما رآها عبد المؤمن أثارت شعوره فقال :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

ثم قال لوزيره أبى جعفر : أجز . .

فقال أبو جعفر :

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن :

كأن ألحاظها فى قلب عاشقها

فأجاب الوزير :

سيف المؤيد عبد المؤمن بن على[٢]

---

(١) مخطوط المن بالإمامة ورقة رقم ١١ .

(٢) المقرى : نفح الطيب : ج ١ ص ١٠١ ، الاستقصا ج ١ ص ١٥٤ .

وهذه المباراة الأدبية . أو المحاورة الشعرية تنتهى بمدح الخليفة عبد المؤمن : وأنه مؤيد من قبل الله ، وعلى الرغم من هذا . فإننا لا نستطيع أن نسلم بأنها دارت بين عبد المؤمن ووزيره . بل لا نستطيع أن نتصور أنها صنعت فى حياته . لأن منصب الخلافة الخطير له من الوقار ما ينأى به عن السفاسف والابتذال ، ولأن عبد المؤمن خليفة المهدى المتقشف المتزهد العابد القانت ، المتصف بالصرامة والجد ، لا يسير متنزهاً ليرسل بعينيه فى إثر جمال الفتيات . كما يفعل صعاليك الناس دع عنك الملوك الصناديد .

وقد حمل لواء الشعر فى عهد عبد المؤمن شاعران مغربيان شهيران هما : أبو عبد الله بن حبوس ، وأبو العباس الجراوى .

فأما ابن حبوس [1] فكان أول شاعر ازم عبد المؤمن ، ونال لديه مكانة سامية . حتى أطلق عليه لقب شاعر الخلافة المهدوية . وقد أمر عبد المؤمن بأن يتصدر ابن حبوس طائفة الشعراء الذين اجتمعوا من أنحاء الأندلس والمغرب بجبل طارق ليكرموا عبد المؤمن بطل الإسلام ومنقذ مدينة المهدية من النصارى . وأمل المسلمين فى تطهير الأندلس من الصليبيين . ولابن حبوس ديوان شعر أشارت إليه بعض المصادر القديمة ، ولكننا لم نعثر عليه ، ومما قاله ابن حبوس فى مدح عبد المؤمن ، وهو بمدينة رباط الفتح (المطلة على المحيط الأطلسى) :

ألا أيهذا البحر جاورك البحر ... وخيم فى أرجائك النفع والضر

(١) هو الشاعر الشهير أبو عبد الله محمد بن حسين بن حبوس القاسمى وينتسب ابن حبوس إلى قبيلة « تسول » التى كانت تقيم بجوار « تازا » .

وقد ولد ابن حبوس بمدينة فاس فى صدر القرن السادس الهجرى . وتلقى علومه على مشاهير علماء جامعة القرويين ، ثم ارتحل إلى تلمسان وأقام بها فترة ، ثم ارتحل عنها إلى مدينة « مراكش » عاصمة المرابطين حينئذ . ثم فر من وجه المرابطين إلى الأندلس . ولما آل الحكم إلى عبد المؤمن ، أسرع فى الانضمام إليه وملازمته فنال فى عهد ابنه يوسف منزلة مرموقة . وتوفى ابن حبوس سنة ٥٧٠ هـ . (إبراهيم الإلغى : الأدب المغربى ص ٦٥ .

وجاش على أمواجك الحلم والحجا وفاض على أعطافك النهى والأمر
وسال عليك البر خيلا كماتها إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر

ومما قاله ابن حبوس فى الحث على الأسفار :

رد الطرف حتى توافى النميرا فرب عسير أتاح اليسيرا[١]
وأرسل قلوصك طوراً شمالا وطوراً جنوباً وطوراً دبورا[٢]
وطر حيث أنت قوى الجنا ح لا عذر عندك ألا تطيرا

ومنها :

وذو العجز يرضع ثدياً حدوداً وذو العزم يرضع ثدياً دروراً[٣]

ومما قاله فى الشرق :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم فى ربع قلبى سكان
ودوموا على حفظ الوداد فإننا بلينا بأقوام إذا استأمنوا خانوا
سلوا الليل عنى قد تناءت دياركم هل اكتملت بالغمض لى فيه أجفان
وهل جردت أسياف برق سماؤكم فكانت لها إلا جفونى أجفان[٤]

ويشبه المراكشى ابن حبوس بابن هانئ الأندلسى فى « القصد إلى الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ؛ غير أن ابن هانئ كان أجود منه طبعاً وأحلى مهيعا »[٥] .

أما الجراوى[٦] . فإنه يعتبر فخر الدولة الموحدية ، وأكبر شعرائها وقد

---

(١) رد : فعل أمر من ورد يرد . الطرف : القليل . النمير : العذب الكثير .

(٢) القلوص : الناقة . والدبور : الغرب .

(٣) الحدود : المحدود . للدرور : الكثير اللبن .

(٤) أجفان فى البيت السابق للعين . وأجفان الثانية : أوعية السلاح .

(٥) المعجب ص ١٣٧ .

(٦) هو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى الفاسى ينتسب إلى قبيلة جراوه — إحدى بطون زناتة — وتعرف أسرته ببنى غفجوم ، وهذه الأسرة لها ماض عريق فى العلم والأدب . وقد طالت حياة الجراوى الأدبية ويفهم من ذلك أنه ترك آثاراً شعرية كثيرة =

اعتبره بعض المحدثين أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وقد طالت حياته . فخدم عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر . وقد أطلق عليه لقب شاعر الخلافة الموحدية من أجل هذا . إذ كان شاعر الدولة الرسمى . وقد أشاد الخليفة عبد المؤمن به إذ قال له : يا أبا العباس إنا نباهى بك شعراء الأندلس . ولهذه العبارة مغزى بعيد بالنسبة للشاعر ، وبالنسبة لنهضة المغرب أدبيًّا . أما بالنسبة للشاعر فإن ذلك تقدير من خليفة أديب ، وأما بالنسبة للمغرب ، فقد كان هناك بون شاسع بين منزلة الأندلس الأدبية العريقة ، وبين المغرب الذى كان يسير فى بدء الطريق الأدبى ، ولكن عبد المؤمن عبر عن أمله الكبير فى أن يطاول المغرب التلميذ ، الأندلس الأستاذ ، فى عهده . .

ومن شعره فى مدح عبد المؤمن :

أعليت دين الواحد القهار ... بالمشرفية والقنا الخطار[1]

ورأى به الإسلام قرة عينه ... وغدت بك الغراء دار قرار

وملكت من طرق الهداية لاحقاً ... طوبى لمن يمشى على الآثار

وجرت معالمكم إلى الأمد الذى ... بعدت مسافته على الأسفار

لا غرو أن كنت الأخير زمانه ... فالفضل للآصال والأسحار

وافيت أندلساً فآمن خائف ... وسما لأخذ الثار رب الثار

= غير أن التاريخ لم يقدم لنا من إنتاجه الشعرى أكثر من ستمائة بيت أكثرها فى المديح ، وللجراوى ديوان أدبى يدعى « صفوة الأدب ، ونخبة ديوان العرب » كان قد صنفه للخليفة يعقوب المنصور على نمط الحماسة لأبى تمام . وقد نال كتابه هذا شهرة بالمغرب والمشرق . ثم اختصره الجراوى باسم « الحماسة المغربيه » وتحتفظ خزانة الكتب العامة بالرباط بنسخة منه منقولة عن نسخة بخزانة الكتب « بإستانبول » . وتوفى الجراوى سنة ٦٠٩ هـ مجاوزاً الثمانين عاماً .

(١) الخطار : المهلك .

ومنها :

أخليفة المهدى دمت مؤيداً   بالله منتقماً من الكفار
ترمى شياطين الأعادى فى الوغى   برجوم خيل من سماء غبار
روعت كل مروع وحفظت كـ   ـل مضيع وحميت كل ذمار

ويقول الجراوى فى مدح يوسف بن عبد المؤمن :

عن أمركم يتصرف الثقلان   وبنصركم يتعاقب الملوان[١]
وبما يسوء عدوكم ويسركم   تتحرك الأفلاك فى الدوران
جاهدتم فى الله حق جهاده   ونهضتم بحمـــاية الإيمان
وتركتم أرض العدا وقلوبهم   فى غاية الرجفان والخفقان

ومنها :

هذا مقام المصطفى يا فوزمن   حاز النيابة فيه عن حسان[٢]
من يعرف الرحمن حقًّا يعترف   بحقوقه لخليفـــة الرحمن

ويقول فى مدح الخليفة يعقوب المنصور عقب انتصاره فى موقعة الأرك :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا   وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه   فراقت به حسناً وطابت به نشرا
تميز بالأحجال والغرر التى   أقل سناها يبهر الشمس والبدرا
لقد أورد الأدفونش شيعته الردى   وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى

ومما مدح به الخليفة الناصر (ابن يعقوب المنصور) قوله :

لبست به الدنيا جمالاً كنهه   أعيا على الأفكار والأوهام
فكأنها دار السلام نعيمها   متأبد ، ودخولها بسلام

---

(١) الثقلان : الجن والإنس ، والملوان : الليل والنهار . وهنا يبالغ الجراوى كمبالغة الشيعة فى تأليه الأئمة . وهذه المبالغة أنكرها الخليفة يعقوب المنصور (ابن يوسف) وغضب على الجراوى بسببها .

(٢) جعل الشاعر منزلة يوسف بن عبد المؤمن كمنزلة المصطفى عليه الصلاة والسلام ومنزلة نفسه كمنزلة حسان بن ثابت .

وفيها يبث شكواه ، ويأمل أن يعيد إليه الناصر مكانته فيقول :

فارقت ما قد كنت فيه كأنه طيف رأته العين فى الأحلام
فعسى أرى وجه الرضا فلطالما أملت رؤيته مع الأعوام

والمتتبع لشعر الجراوى يرى أنه كان يبالغ فى تعظيم المهدوية فى عهد عبد المؤمن ويوسف ، ويظهر أن الخليفة يعقوب المنصور قد أنزل به الضر ، ونحاه عن منزلته الرفيعة التى كان يتمتع بها فى عهد عبد المؤمن وابنه يوسف . وكانت غضبة المنصور على الجراوى بسبب آرائه المتطرفة فى المهدوية إذ كان المنصور يرى العصمة والإمامة من أساطير الأولين . فلما مات المنصور . وتولى ابنه الناصر مدحه الجراوى وختم مديحه بالتوسل إليه فى أن يعيد مكانته .

وقد استمرت النهضة الأدبية التى شيد بنيانها عبد المؤمن — تؤتى أكلها بعده فظهر شعراء مجيدون آخرون مثل « ابن خبازة »[١] الذى يشبهه بعض المحدثين[٢] بالمتنبى ، ومثل أبى حفص الإغماتى[٣] ؛ وقد أعجب الخليفة المأمون « بابن خبازة » أيما إعجاب ، ولما كان المأمون أول خليفة أعلن سقوط المهدوية وألغى رسوم المهدى ابن تومرت من الخطبة ، فإن شاعره « ابن خبازة » قد سخر بالمهدوية والمهدى فى شعره ، إذ يقول ساخراً بابن تومرت :

وجـد النبـوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسرَّ حَسْواً فى ارتغاء يبتغى بمحاله نسجاً على منوالها

(١) هو ميمون بن على بن عبد الخالق الخطابى الصنهاجى المعروف بابن خبازة ، ولد بفاس فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى وتوفى بالرباط فى أوائل القرن السابع .

(٢) عبد الله كنون : النبوغ المغربى ص ٩٤ وما بعدها .

(٣) هو القاضى أبوحفص عمر بن عبد الله السلمى الأغماتى المولود سنة ٥٣٠ هـ ، والمتوفى سنة ٦٠٣ هـ . وعلى الرغم من أن الإغماتى أدرك عبد المؤمن إلا أنه لم يظهر إلا فى عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور . فيقول فى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

ألا هكذا تبنى العلا والمآثر وتسمو إلى الأمر الكبير الكبائر
نؤم لبيعات الرضا مطلع الهدى وحيث الهدايا تعتلى والأوامر

وقد قاد " ابن خبازة " الشعراء المغاربة إلى ميدان مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وصرفهم عما درجوا عليه من مدح الملوك والمهدى والمهدوية ، فأنشأ قصيدة فى مدح الرسول الكريم تزيد على مائة وخمسين بيتاً قال فى مطلعها :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا   لنفنى فى مدح الحبيب المعانيا

ونجمع أشتات الأعاريض حسبة   ونحشد فى ذات الإلّه القوافيا

ونقتـــاد للأشـــعار كل كتيبة   لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا

فألسن أرباب البيان صـــوارم   مضاربها تنسى السيوف المواضيا

لنطلع من أمداح أحمد أنجما   تلوح فتجلوا من سناه الدياجيا

كواكب إيمـــان تلوح فيهتدى   بأنوارها من بات يدلج ساريا

سهوت بمدح الخلق دهراً وهذه   سجود لجبر كل ما كنت ساهيا

فـــلا مدح إلا للذى بمـــديحه   تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

ومما سبق نرى أن المغاربة طرقوا — فى صدر الدولة الموحدية — كثيراً من الأغراض الشعرية كالمديح . والشعر الدينى المهدوى ، ووصف المعارك ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتناولوا الغزل فى شىء كثير من التحفظ والحيطة . إذ كان عبد المؤمن ينفر من الغزل المكشوف وقد أنكر الغزل الشاذ . وطرد من مجلسه العالم الشهير أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدرى القرطبى (المتوفى سنة ٥٦٧ ه) لأنه أنشد ثلاثة أبيات قالها متغزلا فى شاب من أهل أغمات . وكان هذا العالم ممن وقع عليهم الاختيار لحضور مجلس عبد المؤمن العلمى الأسبوعى ، وكان القرطبى لغزارة علمه قد كلفه عبد المؤمن بتعليم أولاده ، فمنعه من أداء هذه المهمة أيضاً[١].

ويبدو أن الشعراء قد طفقوا يقولون الغزل بعد وفاة عبد المؤمن . إذ

---

(١) بغية الملتمس للضبى ص ٦٢ ، والعلوم والآداب والفنون للمنونى — ص ٤٠ .

نرى " الأعماتى "يقول الغزل التصويرى[١] على نحو قوله :

لهـا ردف تعلق فى لطيف[٢] وذاك الردف لى ولهـا ظلوم
يعـذبنى إذا فكرت فيـه ويتعبها إذا رامت تقوم !!

وأكثر من هذا ، فقد رأينا أمراء الموحدين أنفسهم يقولون الغزل . ولكنه كان على لسان الأمراء غزلا عفيفاً . كقول أبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن :

وقفت بها أشكو وأسكب عبرة على غير بين ما علمت انسكابها
فأومت برخص من بنان مخضب وحطت عن البدر المنير نقابها
وقالت : أيبكى البين من قد أراده ويشكو النوى من قد أثار غرابها

ومنهـا :

ولمـا تنـاءت دارها وتباعدت وعاقت — على بعد المزار — خطابها
كتبت إليها أشتكى ألم النوى لعـلى أرى يوماً إلىّ كتابها
وكنت أرى أن الجواب تعلل فقد زاد ما بى أن رأيت جوابها

ثم يقول الأمير عمر المرتضى حفيد عبد المؤمن أيضاً :

ذليـل دمع مقلتـه دليـل على أن الحشا فيـه غليل
ألمّ ببـابكم يبغى شـفاء لداء البعد فهو له قتيل .
أنيلونى رضـاً منـكم وقرباً وحاشـا مجـدكم ألا تنيلوا
لئن قطعت سبيل الوصل عنى خطوب شرحها عندى يطول
فشافع ما اقترفت هـوان ذلى وأعظم شـافع أنى ذليـل
فحسبى أننى عبـد قطـوع وحسبك أنك المولى الوصـول

وقد قصدت فى بحثى هذا أن أعالج حال الأدب فى المغرب ، لأنه لم يكن

---

(١) مما لا شك فيه أن الأعماتى قد تأثر فى هذا بالأندلسيين ، إذ عمل قاضياً بأشبيلية أكثر حياته وتوفى بالأندلس .

(٢) أى فى خصر دقيق .

قبل عبد المؤمن شيئاً مذكوراً ، ولا يتسع المقام للحديث عن أدب الأندلس ثم الجزائر ثم تونس ثم طرابلس – باعتبار هذه الأقاليم أجزاء فى مملكة عبد المؤمن الكبيرة – لأن ذلك يحتاج إلى بحث قائم بذاته كما لا يخفى ، غير أنى سأعرض لبعض الفنون الشعرية التى كانت لامعة بالأندلس ، ولم يقدر لها الظهور أو الانتشار بالمغرب الأقصى فى حقبة عبد المؤمن . . فمن هذه الفنون ، الشعر النسائى ، والموشحات ، والزجل . ثم الزهد والتصوف وسوف نعرض لهذه الفنون فى شىء كثير من الإيجاز ، وفاء بهذا البحث :

فأما الشعر النسائى :

فقد بكر فى الظهور بالأندلس . إذ ظهر فى عهد الأمويين . ونكتفى هنا بالإشارة إلى بعض ما ظهر منه فى عهد الخليفة عبد المؤمن :

قالت حفصة بنت الحاج الركونية[1] عن نفسها :

ثنائى على تلك الثنايا لأننى ... أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله أننى ... رشفت بها ريقاً ألذ من الخمر[2]

وقالت « حفصة » مهنئة أبا سعيد بن عبد المؤمن أمير غرناطة بيوم عيد :

يا ذا العلا وابن الخليفة ... والإمام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى ... فيه بما تهوى ، القضا

وقالت فيمن تحب :

ولو أنى خبأتك فى عيونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى

---

(١) هى حفصة بنت الحاج الركونية ، ولدت بمدينة غرناطة بالأندلس ، وتربت تربية أدبية على أدباء غرناطة وقرطبة وأشبيلية . وكان شهيرة بالجمال والحسب واتصلت بالخليفة عبد المؤمن ومدحته ، وتوفيت فى أواخر القرن السادس الهجرى .

(٢) ابن دحية : المطرب : ص ١٠ .

ومنهن أسماء العامرية الأشبيلية التى كتبت إلى الخليفة عبد المؤمن فى رسالة قائلة :

عرفنـــا النصر والفتح المبينـــا لسيدنا أمـــير المؤمنينـــا
إذا كان الحديث عن المعالى رأيت حديثكم فيها شجونا

ومنهن حمدة أو حمدونه (خنساء الأندلس) قالت تصف وادى شنيل بالأندلس :

أباح الدمع أسرارى بوادى بـــه للحسن آثار بوادى
ومن بين الظباء مهاة رمل تبدت لى وقد ملكت قيادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السوادى
تخال البدر مات له خليل فمن حزن تسربل بالحداد
لهـــا لحظ ترقـــده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى[1]

وهذا وصف ممزوج بالغزل الذى قد يعجز الرجال عن الإتيان بمثله .

ومن شعر الزهد :

قول ابن عمران القيسى الميرتلى[2] :

سليخـــة وحصـــير لبيت مثلى كثير
وفيـــه - شكراً لربى خبـــز وماء نمـــير
وفوق جسمى ثوب من الهواء ستـــير

(١) ابن دحية : المطرب - ص ١١ .

(٢) هو موسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسى الميرتلى نزيل أشبيلية درس الدين والأدب ، وصحب أبا عبد الله بن المجاهد ، واختص به وسلك طريقه فى الزهد والورع والعبادة والعزلة . وقد لزم ابن عمران المسجد يعلم طلاب الدين والقراءات ومعظم شعره فى الزهد والتخويف من سطوة الله .

توفى سنة ٦٠٤ هـ عن ثمانين عاماً .

(التكملة - ترجمة رقم ١٧٣١) .

إن قلت : إنى مقل إنى إذاً لكفور
قررت عينـا بعيش فدون حالى الأمـير

ومن الزهد أيضاً قول الفقيه المتكلم أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر[١] :

إلهى لك الملك العظيم حقيقة وما للورى مما منعت نقير
تجافى بنو الدنيا مكانى فسرنى وما قدر مخلوق جداه حقير
وقالوا فقير ، وهو عندى جلالة نعم صدقوا إنّى إليك فقير

ومن الشعر الصوفى :

قول ابن سفيان المخزومى[٢] :

كل عطاء فإلى علة لا شك يقضى ولوجه السقم
إلا الذى منك بلا علة يا خالق العرش ومجرى القلم
كل الورى لابس ثوب الدجى لولا سنى منك يجلى الظلم

وقد ظهر فى عصر الموحدين أعظم متصوفى العصور الوسطى على الإطلاق وهو الشيخ محيي الدين بن عربى[٣] . وقد دفعنى إلى ذكره فى عصر

---

(١) ذكرنا ترجمته فى علماء الكلام من هذا البحث .

(٢) أصل المخزومى من جزيرة شقر . درس الدين والأدب ومال إلى التصوف والزهد . وكان ثرياً ينفق على الفقراء والمعوزين . وقد دعا للموحدين .
وتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

(٣) هو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله . الشيخ محيي الدين بن عربى الطائى الحاتمى . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ، وتلقى العلم على أشياخها وعبر إلى المغرب ونزل بجاية وأخذ عن أشياخها ثم ارتحل إلى المشرق حاجا فأدى الفريضة ولم يعد إلى وطنه بعدها . وسمع بمكة وبغداد ودمشق وتبحر فى الحديث ومال إلى التصوف حتى بلغ فيه الغاية .
وتوفى ابن عربى بدمشق فى ربيع الأول سنة ٦٣٨ هـ .
(التكملة ١٦٧٣) .

عبد المؤمن — على الرغم من بعده قليلا عن عصره — أنه كان متأثراً بالمهدوية ومتأثراً بطريقة عبد المؤمن فى الفقه . على الرغم من أن المهدوية فقدت أهميتها بعد عبد المؤمن كما أسلفنا ولابن عربى مؤلفات قيمة فى الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها :

١ — كتاب الفتوحات المكية فى عدة أجزاء . وقد تناول فيه ابن عربى الكلام عن المهدوية وأشراط الساعة ، بظهور المسيخ الدجال ثم المسيح عليه السلام ، والأئمه العلويين ولا سيما الأئمة الاثنا عشرية .

٢ — كتاب خيار العلماء وزهادهم .

٣ — كتاب تلقين المهتدى .

٤ — كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبى عليه الصلاة والسلام . ومنامات حدث فيها عن النبى الكريم .

٥ — كتاب التهجد .

٦ — كتاب العافية .

٧ — كتاب المعارف الإلهية .

٨ — كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم .

٩ — رسالة مشاهد الأسرار القدسية ، ومطالع الأنوار الإلهية .

١٠ — كتاب فصوص الحكم .

ولو قيس ابن عربى على غيره من كبار مؤلفى الإسلام المتفلسفين المتصوفين أمثال ابن سينا والغزالى لبزهم جميعاً فى ميدان التأليف . فقد ألف نحوا من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً على حد قوله فى مذكرة كتبها عن نفسه أو أربعمائة كتاب كما يقول الإمام الشعرانى فى كتابه " اليواقيت والجواهر " وكان لابن عربى آراء أو شطحات كما كان يسميها ، أنكرها علماء الأزهر الشريف حينئذ لخروجه عن مألوف السنة ، فاشتدوا فى محاسبته ورموه بالإلحاد والكفر ، بل طالبوا بإعدامه ، ولكن طائفة من الصوفيين ، استطاعوا أن يحولوا بين

تنفيذ حكم الإعدام فى ابن عربى . ومن شعره الصوفى قوله فى مناجاة الله سبحانه وتعالى :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى ؟

وقد سئل ابن عربى عن معنى قوله : أنه يرى الله ولا يراه الله . فقال مرتجلا :

يا من يرانى مجرماً ولا أراه آخذاً
كم ذا أراه منعماً ولا يرانى لائذاً

* * *

أما الموشحات :

فهى من فنون الشعر العربى التى ابتكرها الأندلسيون ، وقد ظهر فى عهد عبد المؤمن وشاح شهير ، هو " أبو بكر بن زهر "[1] الذى اشتهر أيضاً فى عالم الطب فاتخذه عبد المؤمن طبيباً خاصًّا له . " ولابن زهر " موشحات كثيرة فى غاية الرقة منها قوله :

سدلن ظلام الشعور على أوجه كالبدور
سفرن فلاح الصباح
هززن قدود الرماح
ضحكن ابتسام الأقاح
كأن الذى فى النحور تخيرن منه الثغور
سلوا مقلتى ساحر
عن السحر والساحر
وعن نظر حائر
يريش سهام الفتور ويرمى خبايا الصدور

---

(١) سوف نترجمه فى الأطباء .

لقد همت ويحى بها
وذال قلبى لها
أما والهوى إنها
لظبى كناس نفور تغار عليه الخدور
حرمت لذيذ الكرى
سهرت ونام الورى
ترى ليت شعرى ترى
أساعات ليلى شهور أم الليل حولى يدور
ظفرت بصب كئيب
فَنَكِّدْ وَعَذِّبْ وَجُورْ[1] أسْرِفْ!! غلامك صبور!![2]

* * *

وهذه الموشحة — كما ترى — فيها من الرقة البالغة ، والتصوير البارع ، والخيال الرائع ما يغنى عن التعليق .

ثم تطورت الموشحات بالأندلس حتى ظهر منها نوع لا تراعى فيه نواميس اللغة العربية . وهذا النوع عرف **بالزجل** . وقد ظهر فى عهد عبد المؤمن إمام الزجالين الشهير **ابن قزمان**[3] الذى يقول فيه ابن خلدون : إن أبا بكر بن

---

(١) لا يخفى ما فى الكلمة من لحن نحوى . فكان ينهض أن يقول : « فنكد وعذب وجر .. ولكن سوغ هذا اللحن ، مقام التوشيح الذى يشيع فيه اللحن كثيراً .

(٢) ابن دحية ، المطرب من أشعار المغرب ص ٢٠٤ .

(٣) هو محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان . ولد بقرطبة فى مطلع القرن السادس الهجرى ، ودرس على علمائها وأدبائها ، وبرع فى الشعر ولا سيا فى نظم القصائد الهزلية باللغة الأندلسية الدارجة . وقد عرف هذا الشعر الشعبى بالزجل . ويقول ابن الخطيب فى الزجل وفى ابن قزمان : « وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع وتنفسح الكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وقد بلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغاً =

قزمان كان أول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية ، وأذاعها فى رشاقة حفزت العوام على استعمالها ، كما يصفه بأنه إمام الزجالين على الإطلاق .

وخليق بالذكر فى هذا المقام أن نشير إلى ما أثبته الأوربيون أنفسهم من تأثر اللهجات اللاتينية (الإيطالية والفرنسية والأسبانية) بلغة العرب وآدابها ولا سيما فى باب التوشيح والزجل إذ ظهر هذا جلياً فى الأدب الشعبى اللاتينى الذى عرف عند الفرنسيين بالتروبادور وعند الإيطاليين بالتروفير (Trouvères) وفى اللغة القشتالية الأسبانية بالشوجلار (Juglares) .

ويذكر المستشرق الفرنسى ليڤى بروڤنسال كثيراً من الأدلة على تأثر لهجات اللغة اللاتينية بالأدب العربى ، ولا سيما فى باب الأزجال منها : إن العاشق ومعشوقته فى الأزجال الأندلسية وفى الأغانى اللاتينية ، تحيط بهما المذلة والخديعة والآلام فى صورة متساوية ، فالمحبان يقلق بالهما الرقيب فى الأدبين العربى واللاتينى ، ويضيقان ذرعاً بالنمامين والحساد الذين يسعون بالوقيعة بين المحبين . وهذه المعانى موجودة مثلا فى زجل ابن قزمان الذى يقول :

احتفظ يـا عاقل
ما يقـول العاذل
فهو قـول باطل
فالرقيـب والنمـام
هم يقيموا الشـر
عـلى سـاق . .

ومن الأمثلة المؤيدة أيضاً استعمال اللاتينيين صيغة المذكر فى نداء المحبوبة على نحو ما يفعل العرب ولا سيما الشعبيون منهم . إذ يقول أحدهم

= حجره الله على سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وحارسها المعلم ، والمبتدى فيها والمتمم » .

وتوفى ابن قزمان بمدينة قرطبة فى رمضان سنة ٥٥٥ هـ .

لمحبوبته يا جميل يا حلو[1] فتأثر اللاتينيون بهذا ، فهم ينادون المحبوبة بلفظ سيدى (midons) بدلا من (madonna) .

ومن هذه الأمثلة كذلك ، الطاعة التامة للمحبوبة ، طبقاً للعبارة العربية المشهورة " إن المحب لمن يحب مطيع " qui amat obedit إلخ[2] .

* * *

(١) إننا نسمع هذا كثيراً على لسان العوام .

(٢) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٢٨٠ – ٣٠٣ .

(ب) العلوم العقلية

١ – التاريخ :

عنى الموحدون بعلم التاريخ ، فظهر من بينهم كثير من المؤرخين أمثال : أبو بكر بن على الصنهاجى الذى وضع كتاباً فى أخبار المهدى وعبد المؤمن يسمى « أخبار المهدى بن تومرت »[١] وعبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة صاحب كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام بالموحدين على الملثمين وما فى مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخيراً (؟) الخلفاء الراشدين »[٢] ؛ بهذه العبارة الطويلة سمى ابن صاحب الصلاة كتابه !! ثم على بن محمد بن عبد الملك الشهير بابن القطان صاحب كتاب « نظم الجمان » الذى تناول فيه أخبار المهدى وعبد المؤمن ، وبعض خلفائه[٣] ، وظهر فى عهد الموحدين أيضاً عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »[٤] .

كما ظهر فى هذه الحقبة طائفة من مؤرخى التراجم منهم العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال . صاحب كتاب « الصلة » الذى اعتمدنا عليه كثيراً فيما ترجمنا – وسمى ابن بشكوال كتابه بالاسم المذكور ، لأنه جعله صلة وتتمة لكتاب بن الفرضى المسمى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ولابن بشكوال مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين كتاباً

---

(١) استعملنا هذا الكتاب كثيراً ، وذكرناه بين المصادر الهامة .

(٢) تحدثنا عنه بين المصادر الهامة .

(٣) تحدثنا عنه بين المخطوطات الهامة .

(٤) وضحنا قيمة الكتاب بين المصادر الهامة .

منها كتاب « المستغيثين بالله تعالى فى المهمات » والحاجات وكتاب « المحاسن والفضائل » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » و . . . . إلخ ، وتوفى ابن بشكوال بقرطبة سنة ٥٧٨ هـ وظهر فى عهد الموحدين أيضاً المؤرخ ؛ الشهير « ابن الأبار » صاحب كتاب « التكملة » الذى اعتمدنا عليه كثيراً فى بحثنا هذا ، والكتاب المذكور فى جزأين . وسمى بهذا الاسم ، لأنه أكمل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وقد ترجم فيه للعلماء والرواة وأعلام الفكر الأندلسى[١] .

ثم ظهر — فى أواخر عصر الموحدين — المؤرخ المغربى الثقة ابن عبد الملك المراكشى[٢] الذى وضع كتاب الذيل والتكملة لكتابى « الموصول والصلة » ولم يترجم ابن عبد الملك للعلماء الذين ظهروا بعد ابن الأبار فحسب ، بل استدرك على ابن الفرضى وابن بشكوال ما فاتهما من مشاهير الرجال ، كما ترسع فى كثير من التراجم التى ذكروها . وعلى نمط ابن عبد الملك المراكشى ، وضع المؤرخ أبو جعفر بن الزبير (المتوفى سنة ٧٠٨ هـ) معجماً فى التراجم الأندلسية والمغربية سماه صلة الصلة[٣] .

ومن كبار المؤرخين فى عصر الموحدين « على بن موسى بن سعيد » ، المعروف بابن سعيد المغربى وهو من بيوت المجد والعلم والأدب بالأندلس . وكان أديباً رحالة ، تجول بالأندلس والمغرب والمشرق ، (وترفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ) وقد أكمل كتاب « المشرق فى حلى المشرق ، والمغرب فى حلى المغرب » وهذا الكتاب يضم جزأين كبيرين . وقد تعاقب على

---

(١) ذكرناه بين المصادر الهامة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى المراكشى . المتوفى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى .

(٣) نشر المستشرق ليڤى بروڤنسال كتاب صلة الصلة لابن الزبير وطبعه بمدينة الرباط بالمغرب سنة ١٩٣٧ .

تأليفه خمسة علماء من بنى سعيد كان آخرهم على بن موسى المذكور . وقد تعرض الكتاب لمحاسن مدن المشرق والمغرب والأندلس . وهو دائرة معارف تاريخية أدبية جغرافية هامة . ويوجد منه عدة نسخ بدار الكتب المصرية ثم بجامعة القاهرة .

وقد انتحت طائفة من مؤرخى الموحدين ناحية التأليف فى السيرة النبوية الشريفة ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد العزفى السبتى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ صاحب كتاب « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم » . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالمكتبة الزيدية بمكناس بالمغرب .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ٦٠٣ هـ صاحب كتاب اللمعة فى ذكر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأولاده السبعة .

ومنهم ابن دحية الكلبى (المتوفى سنة ٦٣٣ هـ) صاحب كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير »[١] .

وظهر من مؤرخى الأنساب — كتاب « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار فى أنساب الصحابة . ورواة الآثار» ، للمؤرخ أبى محمد بن على بن عبد الله اللخمى المعروف بالرشاطى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ[٢] .

ثم كتاب « الأنساب فى معرفة الأصحاب » الذى عثر عليه المستشرق الفرنسى ليڤى بروڤنسال بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا وضمه إلى كتاب « أخبار المهدى بن تومرت للبيذق » ثم طبعهما فى مجلد واحد بباريس سنة ١٩٢٨ وغير ذلك من كتب لا يتسع المجال لذكرها .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٢ ، وانظر نفح الطيب ج ١ ص ٣٧١ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٧ .

ومن مؤلفي الفهارس ، عبد الرحيم بن الملجوم الفاسي المتوفى سنة ٦٠٣ هـ[١] . ثم محمد بن قاسم التميمي . الذي وضع قائمة بأسماء شيوخه وسماها « النجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثقة »[٢] . ثم ابن الصبر السبتي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ[٣] ؛ ثم أبو العباس العزفي السبتي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ[٤] و . . . . إلخ .

(١) الصلة ٣٥٨ .
(٢) التكملة رقم ١٠٦٤ .
(٣) الصلة — ص ٢٠١ .
(٤) صلة : ٣٥٧ .

٢
الجغرافيا

كان المغاربة فى العصور الوسطى — فى مقدمة الشعوب المحبة للرحلات ، والاطلاع على أحوال الأمم . وكان للدين الفضل الأكبر فى غرس عادة السياحة فى نفوسهم إذ ابتدءوا بالرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ثم إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة .

ومن الثابت تاريخياً أن الفاطميين فتحوا مصر بجيش مغربى ، وأن أغلب هذا الجيش قد استقر فى مصر وذاب فى الشعب المصرى[1] . وكان هذا من الأسباب القوية التى حملت المغاربة على حب الرحلة إلى المشرق . وبعد زوال الفاطميين ، ظل ملوك مصر يرحبون بالمغاربة حجاجاً أو رحالين ، وقد أثبت هذا[2] الرحالة المغربى « ابن جبير » الذى كان من أفذاذ الرحالين فى عهد الموحدين[3] . وحسب المغرب — فى عهد عبد المؤمن — ظهور أعظم

---

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٠٢ .

(٢) يذكر ابن جبير أن السلطان صلاح الدين الأيوبى جعل مسجد ابن طولون مسكناً للمغاربة . وجعل عليهم رئيساً منهم ينظر فى مشاكلهم ، وأجرى عليهم الأرزاق وكذلك أكرم نور الدين محمود زنكى المغاربة أيما إكرام إذ أوقف عليهم سبعة بساتين وطاحونتين ومحلين تجاريين ، وقطعة أرض زراعية ، وجعل لنساكهم زاوية المالكية بدمشق (رحلة ابن جبير — ص ١٠ ، ص ٢٥٨) .

(٣) هو الرحالة الشهير أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى ، تعلم بجامعة بلنسية وبرز فى الحديث وفنون الأدب ثم استخدمه الأمير أبو سعيد بن عبد المؤمن أميناً لسره ، ثم أذن له بالسفر لقضاء فريضة الحج فمكث فى رحلته سنتين ، زار فى أثنائهما جزيرة كريت وجزيرة صقلية ثم مصر والحجاز والعراق والشام ، وكان يدون كل مايراه فى مذكرات عرفت فيما بعد « برحلة ابن جبير » ثم عاد إلى بلاده ، ثم رجع ثانية وثالثة إلى بلاد المشرق وتوفى بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ . وكان فى آخر أيامه =

جغرافى فى العصور الوسطى من بين أبنائه ، ذلك هو « الشريف الإدريسى السبتى » الذى تعلم « بسبتة » بالمغرب الأقصى ، ثم درس بجامعة قرطبة فأتيحت له الفرصة لزيارة جميع مدن الأندلس ، ثم ساح بأوربا فزار إنجلترا وفرنسا وعاد إلى المغرب ثم استأنف الرحلة فزار أهم مدن المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر ثم الشام وآسيا الصغرى و بلاد اليونان ، وهو فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة لا يفتر عن تدوين المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتلك الأمم .

ولما انتشرت شهرة الإدريسى ، وذاع صيته أرسل فى طلبه الملك « روجار » الثانى النورماندى — ملك صقلية — فلبى الإدريسى هذه الدعوة الكريمة ، ولما لمس الملك غزارة معلومات الإدريسى كلفه بوضع مصور جغرافى للمعمورة . وكون لجنة كبيرة من جغرافى صقلية لتكون فى خدمة الإدريسى . فوجه الإدريسى كثيراً من أعضاء هذه اللجنة لزيارة أماكن من العالم عينها لهم ؛ لجمع معلومات جغرافية خاصة . كما وضع الملك تحت يد الإدريسى أربعمائة وخمسين ألف رطل من الفضة الخالصة (٤٥٠٠٠٠) ليضع له كرة ، يرسم عليها الإدريسى شكل القبة السماوية ثم ينقش المصورون هذا الرسم على هذه الكرة الفضية ثم قام الإدريسى بوضع كتاب شرح فيه مارسمه على الكرة الفضية من أشكال فلكية وما رسمه من معالم جغرافية بالمصور الجغرافى الذى وضعه للمعمورة . من بلدان وبحار وجبال وأنهار و ... إلخ . واستغرق هذا العمل الجغرافى الجليل نحو خمس عشرة سنة . وسمى كتابه الذى شرح فيه الكرة الفلكية والمصور الجغرافى — « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد قسم الأرض سبعة أقسام ، سماها الأقاليم السبعة. ثم قسم كل قسم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أجزاء . أى أنه جعل المعمورة سبعين جزءا .

= يشتغل بتدريس الحديث الشريف (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٤ — ص ٥٨٣) .

وخريطة الإدريسى تصور نصف الكرة الشمالى باعتباره القسم المعمور حينئذ ، وتصل فى النصف الجنوبى إلى منابع النيل فقط .

وقد بين فى كتابه وصف البلاد والممالك والمسالك التى تربط بين أجزاء الأرض ، ثم ذكر المسافات بالميل والفرسخ ودرجات العرض كما وصف الجبال والأنهار والبحار وأجناس الناس والحيوانات والنبات والمعادن ، وتكلم عن الصناعات والمتاجر ، وذكر الديانات والمذاهب واللغات والأزياء والعادات والتقاليد .

ومن الواضح أن مصادر التاريخ القديمة لم تتعرض – إلا فى القليل النادر لحياة الشعوب ، وإنما كان همها التحدث عن الملوك وأمجادهم ، وما صادفهم من خير أو شر .

ومما لا شكك فيه أن الإدريسى كان رائداً لغيره من الرحالين العرب الذين نسجوا على منواله فى التحدث عن الشعوب . ومن هؤلاء ابن جبير وابن بطوطة .

وكان الإدريسى – بجانب آثاره الجغرافية – شاعراً فذّاً ومن شعره قوله :

دعنى أجل مابدت لى سفينة أو مطية
لا بد يقطع سيرى أمنية أو منية

وقوله :

ليت شعرى أين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ماتشتا ق فى بر وبحر
وخبرت الناس والأرض لدى خير وشر
لم أجد جاراً ولا دا راً كما فى طىّ صدرى
فكأنى لم أسر إلا بميت أو بقفر [1]

وتوفى الإدريسى بالقاهرة فى صفر سنة ٥٤٩هـ [2] .

---

(١) إبراهيم الإلغى ج ٢ فى الأدب المغربى الأندلسى ص ٣٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٣٨ .

ومن الكتب الجغرافية التى ظهرت فى عهد عبد المؤمن أيضاً : كتاب « الاستبصار فى عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول . ولكن هذا المؤلف الذى لانعرف اسمه — كان من علماء الموحدين الأوائل الذين حباهم عبد المؤمن بعطفه ، وأشرف على تربيتهم بنفسه . إذ يذكر هذا المؤلف أنه كان يعوم هو ورفقاؤه فى البحيرة التى أنشأها عبد المؤمن . أى أنه كان من خواص طلبة الموحدين ويفهم مما دونه المؤلف بكتابه أيضاً أنه كان يعيش بمدينة فاس وقت تأليفه كتاب الاستبصار المذكور سنة ٥٥٧ هـ .

وهناك نسخ مخطوطة من كتاب الاستبصار ، اطلعنا عليها بالمكتبة العامة بالرباط وقد ترجم كتاب الاستبصار إلى الفرنسية سنة ١٩١٠ .

ثم حققه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ونشره سنة ١٩٥٨ بمدينة الإسكندرية .

٣
الفلك والنجوم

علم الفلك من العلوم التى تستهوى النفس ، وتثير فيها غريزة حب الاستطلاع ، لما يكتنفه من غموض . والنفس بطبيعتها متطلعة إلى استكناه الغامض ، ثم إن علم النجوم يجرى وراء محاولة كشف المستقبل ، وهذا الأمل هوأعظم ما تصبو إليه النفس علميًّا ، وقد كان الخلفاء والسلاطين فى العصور الوسطى لايقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين ، لتعيين الأوقات السعيدة التى تتحقق فيها الانتصارات طبقاً لحسابات علم التنجيم كما كان علماء الدين يُوْلُونَ دراسة الفلك عناية خاصة ، ولاسيما علم الميقات منه – لتعيين مواقيت الصلاة والصيام والحج .

وكان للتنجيم منزلة رفيعة فى عهد الدولة المرابطية . إذ كان رئيس مجلس علماء المرابطين « مالك بن وهيب » حزّاء ينظر فى النجوم ، وعند ظهور ابن تومرت بالمغرب . حذر « مالك بن وهيب » الملك على بن يوسف بن تاشفين من ابن تومرت ، طبقاً لعلامات ونتائج قالها المنجمون والكهان . فذكر للملك أن الكهان يتحدثون بأن ماكاً من الملوك – سوى على بن يوسف – كائن بالمغرب . ثم قال ابن وهيب للملك ، احتفظ بالدولة من الرجل – يعنى ابن تومرت – فلعله هو الملك الذى يتحدث عنه الكهان[١] . .

كما كان المهدى ابن تومرت – صاحب الدعوة الموحدية – من أئمة علم التنجيم المعدودين فى عصره فقد اختار تلميذه « عبد المؤمن بن على » واصطفاه من بين التلاميذ ليكون خليفته طبقاً لنتائج علم التنجيم . ويقول المراكشى فى هذا : « فنزل ابن تومرت – وهو آت من الشرق – بضيعة

(١) ابن خلدون : العبرج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩ (طبعة بيروت) .

يقال لها ملالة (على بعد فرسخ من مدينة بجاية بالجزائر) . وبها لقيه عبد المؤمن بن على ، وهو إذ ذاك (أى عبد المؤمن) متوجه إلى المشرق فى طلب العلم . فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التى كانت عنده . وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره فى علم خط الرمل ؛ مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن »[١] . فلا غرو — بعد اشتغال إمام الموحدين بعلم التنجيم — أن نرى بعض خلفاء الدولة الموحدية ، مقبلين على هذا العلم ، مشجعين لمن زاوله ، معتقدين بنتائجه . وأكثر من هذا ، أن نرى بعض خلفاء الموحدين يعشقون دراسة هذا العلم ، فقد اشتغل الخليفه يعقوب المنصور — حفيد عبد المؤمن — بالتنجيم ، ووضع أزياجاً فلكية عن كسوف الشمس ، وأمر بإقامة برج عال بجامع أشبيلية الأعظم للآذان ثم لرصد النجوم أيضاً ، وكان هذا البرج أول مرصد أقيم بأوربا جميعها[٢] .

ولما غضب المنصور على الفيلسوف ابن رشد ، وكره تبعاً لهذا علوم الفلسفة ، أمر بإحراق كتب الفلسفة مستثنياً منها علوم الطب والحساب ، وما يتوصل به من علوم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ومعرفة سمت القبلة[٣] .

وكان الشريف الإدريسى — بوضعه صورة القبة السماوية للملك روجار — كما ذكرنا آنفاً من أوائل الفلكيين فى عهد عبد المؤمن .

ومن علماء الفلك المشهورين فى ذلك العصر ، البتراجى المراكشى الذى وضع رسالة عن الأجرام السماوية ، ترجمها الأوربيون وطبعوها ، وانتفعوا بها فى بدء عصر النهضة الأوربية الحديثة [٤] . ثم عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكى الفاسى المعروف بابن السكاك[٥] .

---

(١) المعجب ص ١١٦ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) المعجب — ص ٢٠٥ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) توفى ابن السكاك سنة ٥٩٦ هـ (التكملة : ١٤٩) .

ثم الفيلسوف الطبيب الفلكى « أبو بكر بن الطفيل » ، الذى أشار فى رسالته الشهيرة « حى بن يقظان » إلى أن الشمس ليست حارة بذاتها ، وأنها أعظم من الأرض بكثير ، وأنها كروية الشكل . وأن الأرض كروية مثلها ، والذى يستضىء منها بالشمس دائماً أكثر من النصف . ومن غريب الأمور أن نرى الخليفة يعقوب المنصور ، يرفض الاعتراف بالمهدوية والعصمة والإمامة ويؤمن بالتنجيم . وأن نرى ابنه الخليفة المأمون ، يهدم مبادئ ابن تومرت ويحترم آراء المنجمين ونتائجهم التنجيمية ، فيقول فى خطبته التى هاجم فيها المهدوية : « لاتظنوا أنى أنا إدريس الذى تندرس دولتكم على يده (مشيراً بهذا إلى رأى تنجيمى) كلا . إنه سيأتى بعدى — إن شاء الله — خلفاء موحدون آخرون[1] ! ! .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٥٣٠ .

٤

الطب والصيدلة

نال الطب عناية الموحدين – ولا سيما فى عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل عبد المؤمن ، وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور ، فأما يوسف بن عبد المؤمن فكان من عشاق الطب ، إذ أقبل على دراسته ، حتى اعتبر فى الأطباء . وكذلك نال الطب عناية الخليفة يعقوب المنصور – ابن يوسف – فقد أنشأ مستشفى للشعب بمدينة مراكش وصفه عبد الواحد المراكشى ؛ (حين أصدر رأيه هذا ، كان قد رأى مشافى مصر ، وبغداد ، والشام) ويذكر المراكشى فى وصف مستشفى مراكش بأنه كان مبنيًّا على أرض فسيحة ، مزيناً بالزخارف والنقوش البديعة ، قد غرست به الأشجار والأزهار والرياض وجعل فيه قسم للرجال وقسم للنساء . قد زود بملابس للمرضى صيفية وشتوية ، نهارية وليلية من الصوف والقطن والحرير . وعنى فيها بالأدوية والأطعمة عناية فائقة ، وكان الخليفة يعقوب المنصور يتفقد المستشفى بنفسه ، ويزور المرضى جميعاً بصفة مستمرة عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع ويسألهم عن مطالبهم وعن مدى عناية الأطباء والممرضين بهم . وكان كل شىء بالمجان بالمستشفى ومن دخله من الفقراء يعطى بعد شفائه أموالاً سخية ليعيش بها حتى يستعيد قواه استعادة كاملة[1]. وقد بدأت النهضة الطبية فى عهد عبد المؤمن بفضل طبيبه الخاص أبى بكر ابن زهر ، الذى يعتبر – بعد الفخر الرازى[2] – أعظم أطباء العصور الوسطى .

(١) المعجب ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الكيمائى الشهير المتوفى سنة ٣١١ هـ ، وهو من الرى ، وكان يقيم أحياناً بالرى ، وأحياناً ببغداد ، ويتنقل بين البلدان وله أكثر من ٢٠٠ مؤلف .

وينتمى أبو بكر بن زهر إلى أسرة بنى زهر الأشبيلية الذين توارثوا الطب مدى أربعة أجيال متتالية[١] ، وقد تلقى أبو بكر بن زهر الطب على أبيه وجده علماً وعملا ، كما برع فى الحديث والأدب وحظى فى عهد عبد المؤمن وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور بنفوذ كبير ، وجاه عريض ، وتوفى فى صدر عهد الخليفة الناصر سنة ٥٩٥ هـ . وصلى عليه الخليفة بنفسه ، وأمر بدفنه بمقابر الأمراء بمراكش ، اعترافاً بفضله .

ومن الأطباء الذين ظهروا بهذا العصر أيضاً « عبيد الله غلنده » الذى درس بقرطبة ، ثم ارتحل إلى إشبيلية ، واشتغل بالطب ، فذاعت شهرته وفى أواخر حياته عبر إلى المغرب ، وعاش بمدينة مراكش بقية حياته ، وبها توفى سنة ٥٨١ هـ ، وقد عمر نحو مائة عام[٢] .

ومنهم ابن مروان عبد الملك بن محمد بن « جريول » المعروف بابن كنبراط ، كان من الأطباء البارزين وتلقى عليه الفيلسوف ابن رشد ، ولم تتحقق سنة وفاته[٣] .

---

(١) بنوزهر ، هم تلك الأسرة الشهيرة التى لمعت فى سماء الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية فى العصور الوسطى . وعميدهم الأكبر هو عبد الملك بن محمد بن مروان ابن زهر الأيادى الإشبيلى الأندلسى ، وقد ارتحل عبد الملك إلى المشرق للحج وطلب العلم فدرس بمصر على أقطاب الطب حينئذ ثم درس بالقيروان فترة من الزمن ، ثم عاد إلى « دانية » ــ مسقط رأسه ــ واشتغل بمهنة الطب التى ورثها عنه بنوه ، حتى عرفت الأسرة بالطب وإن كان أفرادها درسوا بجانب الطب علوم الدين وعلوم الأدب ثم جاء بعد عبد الملك ابنه أبو العلا بن زهر ، الذى طبقت شهرته الآفاق فى عصره وتوفى منكوباً فى عهد المرابطين لميوله الفلسفية . ثم ظهر بعد أبى العلا ابنه أبو مروان عبد الملك بن زهر صاحب كتاب الاقتصاد فى صلاح الأجساد » ثم كتاب التيسير الذى يعتبر من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى وتوفى بإشبيلية سنة ٥٥٧ هـ ، وخلفه ابنه أبو بكر بن زهر طبيب عبد المؤمن ويوسف والمنصور والناصر .

(٢) التكملة رقم ٢١٨٠ .

(٣) التكملة رقم ١٧١٤ .

ثم أبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان ، الذى ارتحل إلى المشرق ودرس الحديث والطب بمعاهد مصر ودمشق وبغداد ثم عاد إلى المغرب ، وبرع فى صناعة الطب ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٩ ه[١] .

ولا يتسع المقام لذكر الأطباء الذين ظهروا فى هذه الحقبة .

وممن ظهروا فى ميدان الصيدلة ، وإدراك خصائص الأعشاب أبوجعفر أحمد بن محمد الغافقى القرطبى الذى برع فى الطب ومعرفة خصائص النبات . إذ تجول فى أنحاء الأندلس وأفريقية بحثاً عن صنوف النباتات الطبية ، ثم قام بتصنيفها ، وسجلها بأسمائها العربية والبربرية واللاتينية . وكتابه الأدوية المفردة كان من أهم مراجع الصيدلة فى عصره وتوفى سنة ٥٦١ ه .

على أن أعظم علماء الأعشاب والصيدلة فى العصر الموحدى ، بل أعظم النباتيين المسلمين حينئذ هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرح الأموى المعروف بابن الرومية ، وبالعشاب والنباتى . درس ابن الرومية الحديث الشريف حتى صار إماماً حافظاً ملماً بتاريخ المحدثين وأنسابهم ، وتعديلهم وتجريحهم ، ثم مال نحو دراسة النبات ، وتمييزه ، وتصنيفه وتجول من أجل ذلك فى بلاد الأندلس والمغرب ، وبقية الشمال الإفريقى ، ثم رحل إلى المشرق بعد سنة ٥٨٠ ه ، وتجول فى مصر ، والشام ، والعراق ، والحجاز ، فاكتشف كثيراً من النباتات المجهولة ؛ ووقف على خصائصها حتى نال قدراً كبيراً من المعرفة بأسرار النباتات لم يتح لغيره . وقد وصفه ابن الخطيب قائلا : « إنه عجيبة نوع الإنسان فى عصره ، وما قبله ، وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العشب ، وتحليلها ، وإثبات أعيانها على اختلاف أقطار منابتها بمشرق أو مغرب ، حساً ومشاهدة ، وتحقيقاً لامدافع له فى ذلك ولا منازع ، حجة لاترد ولا تدفع ، قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك

---

(١) التكملة رقم ٢٤١ .

بينهما وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة ، والتقييد وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك[١] .

ولابن الرومية مؤلفات فى الحـــديث والنبات فمن مؤلفاته فى الحديث كتاب « نظم الدرارى فيما تفرد به مسلم عن البخارى » واختصار أحاديث مالك للدارقطنى ، والحافل فى تدليل الكامل وغير ذلك . ومن مؤلفاته فى النبات الأدوية المفردة (على نحو ما صنع ابن زهر) وشرح حشائش « دياسقوريدس »[٢] وأدوية « جالينوس » .

وجاء بعد ابن رومية تلميذه الشهير « أبى البيطار الملقى »[٣] . ولا ضرورة للتحدث عنه لبعده كثيراً عن عهد عبد المؤمن .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٢١٥ — ٢٢١ .

(٢) « دياسقوريدس » نباتى يونانى عاش فى القرن الأول للميلاد .

(٣) التكملة رقم ٣٠٤ .

٥

الفلسفة

كانت الفلسفة ــ سواء أكانت إسلامية كلامية أم يونانية قديمة ــ من العلوم المحرمة فى عهد المرابطين [١] . لاعتقادهم الراسخ أن الفلسفة تجر إلى الإلحاد ، وتفسد العقيدة ، وحجتهم فى هذا أن الفلسفة لم يمارسها أئمة السلف الصالح ، فالإمام مالك ــ رضى الله عنه ــ كان يفر من تأويل الآيات المتشابهات ، كما قررنا فيما سبق . والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ــ رضى الله عنهما ــ لم يؤولا المتشابه أيضاً ، كما قبحا الاشتغال بعلم الكلام [٢] الذى هو ركن أساسى من أركان الفلسفة الإسلامية ، ومن البدهى أن هؤلاء الأئمة يعتبرون الفلسفة اليونانية ــ التى لا تقيم وزناً للأديان ــ متوغلة فى الضلال المبين والكفر الصريح .

ولما أعلن تومرت دعوته ــ التى كانت تقوم على مبادئ شيعية ــ وانتصرت هذه الدعوة بزوال المرابطين ، أضحى المغرب على قدم المساواة مع المشرق فى دراسة الفلسفة الكلامية . أما الفلسفة اليونانية فلم يقدر لها الظهور بالمغرب فى عهد ابن تومرت وعهد عبد المؤمن بن على . ولما أقام عبد المؤمن ابنه يوسف والياً على أشبيلية فى سنة ٥٤٩ هـ [٣] ، انكب هذا الأمير على دراسة العلوم المختلفة على أعلام الأندلس ، ومن بينها فلسفة اليونان ولا سيما فلسفة أرسطو ، وباعتبار أن الأمير يوسف بن

---

(١) المعجب ــ ص ١١١ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ ــ ١١٩ وانظر فى هذا أيضا كتاب الدعوة الموحدية بالمغرب ــ ص ١٣٦ ــ ١٣٧ للمؤلف .

(٣) القرطاس ج ٢ ــ ص ١٥٣ .

عبد المؤمن ثمرة من ثمار عصر والده . رأينا أن نبين حال الفلسفة على يده . إذ يذكر المراكشى أن الأمير يوسف بعد أن درس اللغة والنحو والحديث طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب [١] ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى . . . ولم يزل (يوسف بن عبد المؤمن) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب [٢] . وكان أشهر الفلاسفة الذين اصطفاهم وأخذ يطارحهم مسائل الفلسفة الفيلسوف « أبو بكر بن طفيل » صاحب رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة [٣] . ثم الفيلسوف العربى الشهير ابن رشد ثم ظهر فى عصر الموحدين كذلك الفيلسوف الصوفى العظيم محيى الدين ابن عربى متأثراً بمبادئ ابن تومرت على الرغم من أن هذه المبادئ كانت قد فقدت قوتها فى فترة « ابن عربى » . وسوف نتحدث عن هؤلاء الفلاسفة بإيجاز لمكانتهم فى التاريخ الإسلامى .

أما الفيلسوف ابن رشد : فقد اتصل بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن عن طريق الفيلسوف « ابن طفيل » الذى ربط بين ابن رشد والخليفة يوسف برباط المحبة والثقة . وما كاد الخليفة المذكور يتحدث إلى ابن رشد فى مسائل الفلسفة حتى أعجب به ، وقربه منه ، وكلفه بشرح مذهب

---

(١) كان الطب محسوباً فى علوم الفلسفة . ولذلك لقب الطبيب حكيما وظلت هذه التسمية موجودة حتى يومنا هذا . ومن المعلوم أن كلمة حكيم هى لقب الفيلسوف . لأن الفاسفة هى حب الحكمة .

(٢) المعجب ص ١٥٦ .

(٣) هذه الرسالة لا تزيد عن خمسين صفحة . وتحتفظ بها مكتبات مصر والمغرب وغيرهما من الدول .

أرسطو[١] ، فوقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو ، إذ تناول كل ما أمكن الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروح هذه المؤلفات بالدراسة العميقة ، والمقارنة الدقيقة ، والتحليل الوافى ، والنقد السليم ولهذا أطلق دانتى على ابن رشد لقب « الشارح » فكان هذا اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة فيما بعد . وبفضل ابن رشد استطاع العلماء فهم فلسفة أرسطو ، وتقريبها إلى أذهان الناس[٢] .

وكان « ابن رشد » يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل ، والمفكر الأعظم الذى استطاع أن يكشف عن الحقيقة ، وبينما نرى ابن رشد يرفع أرسطو إلى أسمى مكانة ، إذ نراه فى الوقت نفسه ينقـد المعلم الثانى « أبا نصر الفارابى » (ت ٣٣٩ هـ) والرئيس أبا على بن سينا (ت ٤٢٩ هـ) وهو فى نقده لهما أشد قسوة من نقد أرسطو لأفلاطون[٣] .

وانتهى ابن رشد بالسمو بأرسطو إلى أن سماه « بالفيلسوف الإلهى » . ويفضل ابن رشد أرسطو على سقراط وأفلاطون . ويأسف لعدم إدراك سقراط وأفلاطون منطق أرسطو . إذ السعادة الحق على قدر معرفة الإنسان بالمنطق .

ولما كان ابن رشـد يرى أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو ،

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . ولد بمدينة قرطبة وتعلم بها . وابن رشد ينتسب إلى بيت عريق فى العلم والأدب . وقد أكب على تعلم الفلسفة والطب . وعرف فليسوفاً أكثر منه طبيباً . والتحق بخدمة الأمير يوسف ابن عبد المؤمن طبيباً وجليساً . ثم خدم ابنه يعقوب المنصور الذى غضب عليه آخر الأمر لآرائه الشاذة ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ .

(٢) المعجب — ص ١٥٧ .

(٣) راجع مادة ابن رشد بدائرة المعارف الإسلامية .

فإنه أخذ ينظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة . .

وكان ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص ، ولا يؤمن بعلم الكلام لأنه يهدف إلى إثبات أشياء يتعذر إثباتها بمنهج أرسطو القائم على المنطق .

وأظهر ما يميز ابن رشد عن بقية فلاسفة المسلمين — ولا سيما ابن سينا — هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغير وحدوث منذ الأزل . والعالم عند ابن رشد وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم . ويثبت ابن رشد وجود الله بطريق مخالف لما درج عليه علماء المسلمين . فهو يقول بأن العالم متحرك منذ الأزل ضرورة أنه متغير. ولا بد للحركة من محرك مخالف لما يتحرك . وهو الله .

وابن رشد يرفض المذهب القائل بعدم غناء النفوس الجزئية المتكثرة.

ومما سلف نرى أن فى آرائه أفكاراً إلحادية تتنافى مع الدين . فهو يقول بقدم العالم وينكر البعث ، ولا يرى الخلود الفردى للبشر .

ومع هذه الآراء يقول : إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به القرآن الكريم كما هو فما فى الكتاب حق . والقرآن يروى فى صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار . . ومجاوزة العامة ذلك شر لهم و . . . إلخ ويجوز تأويل القرآن ولكن للفلاسفة فقط ، وهم إذ يفهمون مراميه على حق يكون فى ذلك الحقيقة العليا وقد أثرت فلسفة ابن رشد فى الأندلس وفى الفكر الأوربى فى حين لم تلق رواجاً بالمغرب لتمسكه بمبادئ الإسلام .

وقد أسلفنا الكلام على الفيلسوف محيي الدين بن عربى فى باب الأدب ولا نرى ضرورة لذكره هنا منعاً من التكرار .

٦

علوم الرياضة

الهندسة والحساب والجبر

لقيت العلوم الرياضية رواجاً كبيراً فى عهد عبد المؤمن وخلفائه .

فأما الهندسة : فقد كانت أساساً قامت عليه المنشآت الكثيرة التى أشرنا إليها عند الكلام على الفن ، كما أن عبد المؤمن قد احتاج إلى العدد العديد من المهندسين الذين قاموا بتنفيذ أمره الخاص بمسح جميع مملكته من برقة شرقاً إلى بلاد نول بأقصى بلاد السوس بالمغرب الأقصى[(١)] . ليتسنى له فرض الضرائب على جميع الأقاليم المغربية بعدالة .

وكان من أفذاذ المهندسين فى عهد عبد المؤمن ، المهندس المعمارى الشهير الحاج يعيش المالقى والمهندس ابن باسة من أولئك الذين قاموا بتشييد مدينة جبل طارق تلك المدينة التى شيدت بأمر الخليفة عبد المؤمن لتكون نزلاً لجيشه حين يعبر إلى الأندلس .

ثم المهندس العظيم أبو جعفر أحمد بن حسان القاضى المتوفى سنة ٥٩٨ ه الذى طال به العمر حتى شيد المسجد الأعظم بالرباط فى عهد الخليفة يعقوب المنصور وقد حمل المسجد المذكور اسم حسان هذا .

وأما **الحساب** فكان مادة دراسية هامة . إذ كانت الأدلة الحكومية جميعها لا تستغنى عن طبقة الحاسبين . ولا سيا فى ميدان المحاكم ، وما تتطلبه التركات وفروض النفقة من حساب .

ومن أساتذة الحساب . ابن فرحون القيسى القرطبى (المتوفى سنة ٦٠١ ه)

(١) القرطاس س ج ٢ ص ١٦١ .

ولابن فرحون هذا كتاب اللباب فى مسائل الحساب[1] .

ومنهم : عبد الله بن محمد بن سهل الغرناطى الذى درس العلوم الرياضية بمدينة بلنسية ثم قام بتدريسها . وقد ذاعت شهرته حتى استدعاه الأمير محمد بن مسعد لتعليم أولاده علوم الرياضه وتوفى بمرسية سنة ٥٧١ﻫ .

ومنهم عبد المنعم بن محمد المراكشى المتوفى سنة ٥٩٩ ﻫ[2] .

ومن رجال علم الجبر أبو عبدالله محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسى المتوفى سنة ٦٠١ﻫ . فقد كان إماماً فى الجبر والمقابلة . وألف فيهما منظومته التى تجاوزت شهرتها المغرب . وهى مخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة القرويين بفاس . ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط . ولابن ياسمين أيضاً أرجوزة فى الجذور توجد منها نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا . وله أيضاً كتاب جامع المبادئ والغايات فى الحساب وبه مسائل فى الجبر والمقابلة .

---

(١) صلة الصلة ص ٢٣٨ .

(٢) تكملة رقم ٢١٧٥ .

٧
علم الفلاحة

وكانت الفلاحة أيضاً من العلوم التى شاعت فى عهد الموحدين الأوائل وكتبت فيها المؤلفات .

ومن أشهر مؤلفى الفلاحة أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الأشبيلى الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى .

وقد اعتمد ابن العوام فى كتابه على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلى ويقدم لنا ابن العوام فى مؤلفه الضخم عرضاً مستفيضاً للفنون الزراعية وكيفية العمل فى الزراعة ، والغراسة ، وتسميد الأرض ، وإصلاحها واختيار البذور والغراس الصالحة ، والمواسم الملائمة لزراعة كل صنف ، والوسائل التى تعين على جودة الأرض ، ووفرة الإنتاج[١] .

---

(١) نشر كتاب الفلاحة لابن العوام لأول مرة بمدريد سنة ١٨٠٢ م فى مجلدين كبيرين عن مخطوط بمكتبة الأسكوريال بعناية القس يوسف أنطونيو نكيرى مقروناً بترجمة أسبانية (كتاب دولة الإسلام بالأندلس ص ٧١٨ هامش (١) .

الفن ومظاهر الحضارة

١ – العمارة

(ا) المساجد :

١ – مسجد « تازا »

كان تقدم الدولة الموحدية فى فن العمارة والزخرفة من الآيات البينات على ما بلغته من منزلة رفيعة فى مجال الحضارة . وكان الموحدون — فى صدر حكم عبد المؤمن – يتحرجون عن الغلو فى الزخرفة ، فكان فن البناء يتسم بالمتانة والخلو من التعقيد الزخرفى . سيراً على منهج ابن تومرت فى التقشف والزهد ، ولكن لم يكد عبد المؤمن يفتح بجاية والأندلس والمهدية ، ويرى مظاهرها الحضارية الرائعة ، حتى طفق ينهل من نمير حضارة هذه البلاد ، ويقتبس من جمال عمارتها ، وبدائع زخارفها ، حتى لا يرصم بالتخلف عن الأقاليم التى خضعت له !! وكان عبد المؤمن بطبيعته محباً للتشييد والبناء والتعمير . وأول أعماله فى فن البناء ، تشييده « مسجد تازا » ثم سورها ، ثم رباطها – عقب فتحه إياها سنة ٥٢٧ هـ[١].

وكان مسجد الموحدين « بتازا » يشتمل على تسع بلاطات[٢] عمودية على جدار القبلة . والبلاطة الوسطى منها أكثر اتساعاً . ويخترق هذه البلاطات خمسة أساكيب[٣]. الأسكوب المحاذى للقباة أكثر اتساعاً من الأساكيب الأخرى .

---

(١) ابن أبى ذرع : القرطاس ج ٢ ص ١٣٤ ، السلاوى : الاستقصاج ٢ – ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) يراد بالبلاطة المسافة المحصورة بين صفين من الأعمدة .

(٣) الأسكوب : هو الصف من الأعمدة .

وكان يعلو المسجد ثلاث قباب . واحدة أمام المحراب ، واثنتان فى نهاية طرفى هذا الأسكوب وكانت المئذنة تقع فى الركن الشمالى الشرقى للمسجد .

ويشبه تخطيط هذا المسجد ، تخطيط المسجد الجامع بتينملل كل الشبه .

وقد زادت الدولة المرينية — التى أعقبت الموحدين — فى بناء مسجد تازا . ولكن من السهل تمييز الزيادة المرينية . إذ أساكيبها أكثر اتساعاً من الأساكيب الموحدية . كما أن عقود المرينيين من النوع المنفوخ المتجاوز[١] فى حين أن عقود الموحدين من النوع المنفوخ المنكسر[٢].

٢ — مسجد الكتبية بمراكش

ولما فتح عبد المؤمن مدينة مراكش — حاضرة المغرب حينئذ — امتنع الموحدون عن سكناها ، إذ كان ابن تومرت يعتبرها نجسة لوجود المرابطين بها — أولئك المجسمون الكفار فى رأيه ! ! — وقد ناشد المهدى ابن تومرت أتباعه الموحدين بألا يدخلوا مراكش ويسكنوها حتى يطهروها ، ولما شاور عبد المؤمن الفقهاء فى هذا أفتوه بوجوب بناء مسجد جديد ، وهدم مسجد السلطان على بن يوسف بن تاشفين ! ! [٣].

ولم يلبث عبد المؤمن — بعد فتوى العلماء — أن أصدر أوامره بالإسراع فى بناء مسجد بقصر الحجر[٤]. وكان هذا المسجد يتصل بالقصر بساباط

(١) العقد المنفوخ المتجاوز . يكون على شكل نصف دائرة بيضاوية .

(٢) العقد المنفوخ المنكسر يكون على شكل مثلث قائم الزاوية .

(٣) الحلل الموشية ص ١٠٨ .

(٤) وقد أثبتت الحفريات التى أجريت للكشف عن قصر الحجر المجاور له مع الكتبية أن أعمال على بن يوسف فى هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسى فى تخطيطه وزخرفته ، وقد كشف عن بهو له ممران متعامدان على النحو الذى نراه فى الأندلس فى قصر منتقوط (Monteagudo) بمرسيه (السيد عبد العزيز سالم وآخرين المغرب الكبير ج ٢ — ص ٧٦٣) .

يتردد الخليفة عن طريقه بين القصر والجامع . وطفق عبد المؤمن يتحلل فنيًّا من القيود التى وضعها المهدى ، فأمر بصنع منبر المسجد الجديد ومقصورته بالأندلس ، فكان المنبر قطعة فنية إذ صنع من العود والصندل الأحمر والأصفر وصفائحه من الذهب والفضة(١). أما المقصورة فكانت من الخشب ، ولها ستة أضلاع ، وتستوعب أكثر من ألف شخص . وكان الذى تولى صنع المنبر والمقصورة المهندس الحاج يعيش المالقى(٢) .

وكان بناء هذا المسجد عقب فتح مراكش مباشرة سنة ٥٤١ هـ ، وبهذا يعتبر مسجد الكتبية الأول المسجد الثانى بين منشآت عبد المؤمن الذى أنشأ مسجد تازا سنة ٥٢٩ هـ كما أسلفنا .

أما مسجد الكتبية الآخر ، فيشير إليه صاحب الاستبصار الذى يذكر أن عبد المؤمن حول الجزء الباقى من قصر « الحجر » إلى مسجد ثان ورفع بين المسجدين المنار العظيم ، الذى لم يشيد فى الإسلام مثله . ثم أكمله ابنه « يوسف بن عبد المؤمن »(٣)وقد بنى المسجد الثانى بالكتبية فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

ويذكر المقرى عن مؤرخ يدعى ابن رشيد أن المسجد المذكور قد تم بناؤه على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع وأفسح المساحة ، وأجمل البناء والنجارة « فى شهر شعبان من السنة المذكورة »(٤) . أى أن هذا المسجد الكبير قد أنجز فى نحو خمسة أشهر ، وهى مدة وجيزة للغاية فى إقامة مسجد كهذا . فإذا صحت هذه الرواية كانت دليلاً قاطعاً على نشاط أهل فن البناء فى زمن عبد المؤمن ، وعلى مهارة الصناع القائمين بشئون العمارة ، وعلى توفر مواد البناء ، وعلى تشجيع خلفاء الموحدين للصناع والبنائين.

---

(١) اضطر عبد المؤمن إلى مجاراة المجتمع ، وعدم الظهور بمظهر المتخلف عن مستوى المرابطين بالمغرب ، ومستوى الحضارة الأندلسية الزاهرة .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٨ .

(٣) الاستبصار ص ٢٠٩ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٨ .

وصومعة مسجد الكتبية بدئ فيها فى عهد « عبد المؤمن بن على » ثم أتمها حفيده « يعقوب المنصور » وكانت المثال الذى احتذاه بناة صومعتى الرباط وأشبيلية[1] .

وما تزال آثار جامع الكتبية الأول ماثلة ، ولا سيما زخارف محرابه ، الذى صنع بالأندلس كما أشرنا فيما سبق .

أما مسجد الكتبية الثانى . فهو فى عصرنا الحاضر فى حالة حسنة ، وتؤدى به جميع أوقات الصلاة ، وهو كبير المساحة ، مستطيل الشكل وتزيد مساحته على مساحة مسجد « تازا » وتينململ معاً .

ويعلو أسكوب المحراب بهذا المسجد خمس قباب ، واحدة أمام المحراب واثنتان على كل جانب من جانبى المحراب ومعظم أجزاء هذا المسجد — من جدران وقباب — مشيدة بالأحجار التى ليست مهذبة ، ولكن أبوابه الشرقية مبنية بالآجر . أما الأبواب الغربية فقد بنيت بالآجر والحجارة ، والجدار الشرقى للمسجد مشيد بقطع حجرية مصفوفة بفن رائع . وينتهى أعلى الجدار بصف من الآجر . كما أن دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود ، مشيدة بالآجر[2] أيضاً . ومئذنة الجامع قائمة فى الركن الشمالى الشرقى منه — بينه وبين الجامع القديم — وتختلف زخارف هذه المئذنة من وجه إلى آخر ، كما تختلف فى النوافذ والفتحات التى صنعت لتنير السلم الداخلى ، وتتنوع العقود التى تزدان بها هذه الفتحات تنوعاً يشهد بعبقرية الفنانين الذين تولوا شئون البناء والزخرفة جميعاً . فمن عقود منفوخة إلى عقود مفصصة إلى أخرى مقربصة إلى نوع تتقاطع فيه العقود مؤلفة فى بيت المؤذن شبكة من المعينات تشبه نظائرها فى مآذن مساجد الرباط وأشبيلية[3] .

---

(١) Terrasse et Basset, Sanctuaire et forteresses, Almohades, p. 107.

(٢) المصدر السابق .

(٣) تعتبر مئذنة جامع الكتبية وصومعته من أعظم آثار المسلمين وأجملها على الرغم من أنها شيدت بأحجار غير مهذبة .

ويبلغ ارتفاع المئذنة ½ ٥٧ متر حتى نهاية التفافيح الثلاثة المتوجة لقبتها . وطول كل جانب منها ½ ١٢ متر [١] .

٣ — مسجد تينملل [٢]

اختار المهدى بن تومرت قرية « تينملل » مركزاً لدعوته ، ورباطاً لجيوشه التى حاربت الدولة المرابطية والقبائل المعاندة ، ولم تلبث هذه القرية أن ضاقت بالموحدين الذين اتبعوا دعوة ابن تومرت وانخرطوا فى سلك جيشه فعمد المهدى إلى توسيع القرية المذكورة ، وإقامة سور عليها ، وتشييد مسجد بها ، فانقلبت إلى مدينة حصينة [٣] ، وأضحت حاضرة الموحدين ، وظلت محتفظة بصفتها الممتازة ، حتى بنى عبد المؤمن مدينة « تازا » ثم رباط سلا (رباط الفتح) فتحول إليهما جل جيوش الموحدين ، ثم استولى عبد المؤمن على مراكش سنة ٥٤١ هـ . واتخذها حاضرة لدولته . وبذلك أضحت تينملل مجرد قاعدة حربية من قواعد الدولة الموحدية ، وزالت عنها صفة الزعامة السياسية والحربية التى كانت لها فى عهد المهدى وشطر كبير من خلافة عبد المؤمن . ولكنها ظلت كعبة الموحدين يحجون إليها للتبرك والتيمن ، إذ تضم رفات المهدى [٤] ، وذكريات الدعوة التى انبثق منها مجد الدولة المؤمنية الشامخ ، لذلك ، قام بنفس عبد المؤمن أن من

---

(١) يروى المقرى عن ابن سعيد أن ارتفاع هذه المئذنة مائة وعشرة أذرع (المقرى نفح الطيب : ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) تقع مدينة « تينملل » فى سفح الأطلس الكبير فى الجهة الغربية الشمالية منه.

(٣) ربما كان السور زيادة فى الحيطة . إذ تتمتع تينملل بمكان حصين طبيعى ، فليس من السهل مطلقاً على أى جيش أن يقتحم تينملل لأن الوصول إليها شاق للغاية . فطريقها الوحيد الذى يربطها بالخارج عبارة عن درب جبلى ضيق منعرج لا يسمح فى أكثر جهاته بالمرور إلا لشخص واحد راكب على متن دابة .

(٤) ثم ضمت فيما بعد — رفات الخليفة عبد المؤمن بن على وابنه يوسف. وحفيده العظيم يعقوب المنصور . مما زاد تينملل قداسة فى نظر الموحدين .

واجبه تشييد مسجد جامع بتينملل فى نفس الموضع الذى بنى فيه المهدى مسجده المتواضع (١) . وقد شيد هذا المسجد فى سنة ٥٤٣ هـ فى أصح الروايات (٢) ومساحته مستطيلة طولها ٤٨ متراً ، وعرضها ٤٣,٦٠ متراً ، ومحراب المسجد يقسمه بيت الصلاة إلى قسمين متساويين متعادلين فى البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة فى العمارة المغربية ، وصحن الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة . وتحف به مجنبتان شرقية وغربية كل منهما تشتمل على رواقين ، وبجدار المحراب فتحتان يميناً وشمالا ويشتمل بيت الصلاة على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة . وتشتمل البلاطات التسع على خمسة صفوف من الدعائم . وتقوم على نقطة تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبة قبة . ويعلو الأسطوانتين المتطرفتين على أسكرب المحراب قبتان أخريان . وهذه القباب الثلاث ، مكسوة بالمقربصات . ولم يبق من هذه القباب الآن سوى قبة المحراب ، والقبة الشرقية .

ويزعم مارسيه (Marçais) (٣) أن نظام وضع هذه القباب الثلاث

(١) وكان مسجد المهدى فى الجهة الغربية بتينملل .

(٢) ذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتاب المغرب الكبير ص ٨٤٠ أن بناء جامع تينملل كان فى سنة ٥٤٨ هـ. وهذا التاريخ مخالف لما ورد فى رسالة عبد المؤمن الموجهة إلى الموحدين بالأندلس . ولا يخفى أن الرسالة تعتبر أوثق مصدر فقد جاء فيها قوله : « . . . من الحضرة العلية "بتينملل" — حرسها الله تعالى — فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . . . وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدى — رضى الله تعالى عنه — لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم . والنظر فى بناء مسجده المكرم ، تمتعاً ببركاته ، ورجاء بتضاعف الأجر بكل لبنة من لبناته . . . وقد تم بحمد الله تعالى هذا الوطر واقتضى الإياب إلى النظر فى المصالح ، والرأى الجميل النظر . . إلخ . (انظر : محمد عبد الله عنان فى كتاب المرابطين والموحدين ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ — عن نظم الجمان لابن القطان النسخة المخطوطة) .

L'Architecture musulmane. (٣)

على أسكوب المحراب تأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى بالقاهرة [١] .

وللمسجد سبعة أبواب ، اثنان بالجدار الشرقى لبيت الصلاة ، واثنان بالجدار الغربى . وواحد لكل من المجنبتين الشرقية والغربية . وباب صغير فى واجهة المسجد الشمالية . ويكتنف المحراب بابان آخران صغيران . أحدهما للإمام ، والثانى باب المنبر ، ويماثل البابان الأخيران ، ما هو مصنوع بمسجدى الكتبية بمراكش ، والقرويين بفاس ، وهو مقتبس من جامع قرطبة الكبير [٢] .

ومئذنة جامع « تينملل » تختلف عن مآذن الموحدين الأخرى . ولكنها من حيث زخارف القاعدة تقترب إلى مئذنة جامع الكتبية ومحراب هذا الجامع من أجمل المحاريب الموحدية ، وفيه تتمثل الزخرفة الإسلامية المتناسقة الجميلة ، فى سائر التكوينات الزخرفية فعقد جوفة المحراب منفوخ منكسر انكساراً طفيفاً ويحيط به عقـــد زخرفى مفصص . وبالمحراب قوقعتان . تمتد منهما دوائر تشبه رءوس المسالى ، ويحيط بطرة المحراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها تملؤه زخارف هندسية تتناوب فيها مربعات ومستطيلات ذات رءوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفى إطار آخر صغير زخارفه أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتقل الزخارف فى جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى نصل إلى قاعدة القبة ثم تبدأ من جديد تتفتح كالزهرة . حيث تقوم فى الأركان مقربصات رائعة تمتد على جوانب القاعدة ، وعلى جانبى كل من المقربصات الركنية — بقاعدة القبة — شمسيات عبارة عن شبكات من التوريقات مفرغة فى الجص فى غاية الروعة

(١) إذا صح هذا ، فإنه من المحتمل أن يكون جامع المهدى الذى أزاله عبد المؤمن ليقيم المسجد الجديد كان له قباب ثلاث بإشارة المهدى إذ هو الشخص الوحيد الذى زار القاهرة ومعالمها ومساجدها أيام الفاطميين وأن المسجد الجديد اقتبس من القديم .

(٢) Basset et Terrasse, Sanctuaires et forteresses

والجمال ، تتمثل فيها مراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة . وتعبر هذه الزخرفة عن تأثر كبير بالزخارف الأندلسية [١] .

(ب) المدن والقصور

١

مدينة « تازا »

كانت مدينة « تازا » أول مدينة أنشأها « عبد المؤمن » بن على إذ أخذت قبائلها بمبادئ الموحدين ٥٢٧ هـ . ولما أدرك – « عبد المؤمن » أهمية موضع هذه القبائل من الناحية الحربية ، عمد إلى إنشاء رباط لجيشه على أرضها ثم شيد مسجدها وأقام عليها سوراً فى سنة ٥٢٩ هـ كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وقد أمد « عبد المؤمن » رباط « تازا » بجيش كامل العدد والعدة ، فأضحى – فيما بعد – حامياً لحدود المغرب الأقصى من جهة الشرق ، وحامياً للجزائر ثم أفريقية . وبهذا استابت مدينة « تازا » مكانة « تينملل » حربياً . إذ أضحت مهمتها الحربية مقصورة على حماية جنوب المغرب . فلما فتح عبد المؤمن مدينة « مراكش » وأصبحت حاضرة المملكة الموحدية ، ومستقر قيادة الجيش العامة . انكمشت « تينملل » وأمست « مزاراً » يحج إليه الموحدون للتبرك ، لاشتمالها على رفات المهدى بن تومرت ، ولكونها مهد الدعوة الموحدية .

أما مدينة تازا فقد ظلت محتفظة بأهميتها الحربية لوقوعها على الطريق المار بين المغرب والمشرق ، وأخذت بأسباب النماء حتى أضحت مدينة كبيرة غنية بدورها وقصورها ومساجدها ، ومعاهدها العلمية وبساتينها وميادينها العامة . وهى من المدن الجميلة بالمغرب الأقصى فى عصرنا الحاضر .

---

(١) المغرب الكبير – ج ٢ – ص ٨٤٠ – ٨٤٣ .

٢

مدينة الرباط

ومن المدن الكبرى — التى أنشأها عبد المؤمن — مدينة الرباط حاضرة المغرب الآن[١] . ويرجع السبب فى تشييده إياها إلى رغبة « عبد المؤمن » فى إقامة معسكر ضخم قريب من شمال المغرب يستطيع إنجاد جيوشه بالأندلس على وجه السرعة عند الاقتضاء . وقد وقع اختيار عبد المؤمن على مدينة « سلا »[٢] ليقوم على أرضها رباطه . فابتدأ بإنشاء قصبة « الأودية »[٣] التى أقامها على مرتفع صخرى بين منحنيات المحيط الأطلسى ، وقد أنشأ عبد المؤمن بقصبة « الأودية » المذكورة ، مسجداً وقصراً ومدرسة ثم شيد بجانبها بناء واسعاً سماه رباط الفتح وأسكنه جنده ، ثم أجرى إليها الماء العذب من

---

(١) وكانت «الرباط» فى بدء أمرها تسمى « رباط سلا »ثم سميت بعد ذلك رباط الفتح ثم أضحت كلمة « الرباط » فى عصرنا الحاضر. علماً على حاضرة المغرب — دون حاجة إلى إضافات .

(٢) تعتبر مدينة « سلا » أقدم مدينة مغربية على شاطئ المحيط الأطلسى ، وربما كانت أقدم مدينة مغربية على الإطلاق . ويسميها « أبو الفداء »: « مملكة سلا » وكان بنو يفرن قد تحيزوا إلى نواحى « سلا » فاستولوا عليها . وعلى مدينة شالة . وكانت « سلا » عاصمتهم ثم ملكوا تادلا . وما والاها من البلاد (انظر مدخل إلى تاريخ المغرب للأستاذ عبد الله كنون ص ٣٥) ثم مظاهر الحضارة المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص ٢٩ وأبو الفدا ج ١ ص ٣٢٠ .

(٣) سميت الأودية بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة « أودى » التى كانت تسكن مكانها وقبيلة « أودى » بعض من قبيلة معقل (العربية) . ويحرفها العامة فيسمونها« الأودايا » وكانت تسمى المهدية نسبة إلى المهدى ابن تومرت . ويذكر صاحب الاستبصار أن الأودية يرجع إنشاؤها إلى سنة ٥٤٠ هـ عقب فتح عبد المؤمن مدينة فاس .

(مظاهر الحضارة ص ٢٨) .

عيون غيوله التى تبعد عن الرباط نحو عشرين ميلا [١] وأذن للشعب فى أن يبنى الدور والقصور بجوار « الأودية » ورباطها ، وبعد قليل أدار على الرباط ، ومنشآت الأودية سوراً . فكانت مدينة « الرباط » الحالية .

ولابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وحفيده الخليفة يعقوب المنصور منشآت تكميلية هامة بمدينة الرباط . فقد زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط سنة ٥٦٦ هـ وأمر بتجديد سقايتها — التى أقامها والده عبد المؤمن — وكانت قد أهملت وأسن ماؤها ، فعادت إلى حالتها الأولى ، ثم أنشأ بجانبها صهريجاً يمدها بالماء . ثم أقام جسراً متيناً بين سلا والرباط بجانب الجسر الذى كان قد أنشأه أبوه ، ثم أمر بتكميل سور الرباط . ولكنه لم يتم إلا فى عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الذى أكمل معالم مدينة الرباط ، وبنى بها مسجده الكبير ، والصومعة العظيمة المسماة « صومعة حسان » ولأن مدينة الرباط ، قد اتخذت شكلها الكامل فى عهد يعقوب المنصور فقد أخطأ كثير من المؤرخين ، فنسبوا إنشاءها إليه .

٣
مدينة جبل طارق أو مدينة الفتح [٣]

وتعتبر مدينة جبل طارق بقصورها التى أنشئت بها حينئذ — من المنشآت العظيمة التى تمت فى عهد عبد المؤمن ، ويصف ابن صاحب الصلاة

---

(١) الاستبصار ص ١٢٠ .

(٢) ويشفع لهؤلاء أن يعقوب المنصور قد أولى الرباط كثيراً من اهتمامه فأنشأ بها الجامع الأعظم ، وابتنى صومعة حسان بها وهذه الصومعة من مفاخر المنشآت الإسلامية .

(٣) ابتدأ بناء مدينة جبل طارق فى اليوم التاسع من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ وانتهى بناؤها فى ذى القعدة من السنة المذكورة (القرطاس ج ٢ ص ١٦١ ، والاستقصا ج ٢ — ص ١٤٥) .

هذه المدينة العسكرية[١] فيقول : « .. وأحكم البناءون بناء القصور المشيدة والديار . واخترعوا فى أسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنحوت والجيار مما هو عجب فى الآثار ، وكما قيل : الملوك تبنى على قدرها من الأقدار[٢] . . . . . وجبل طارق هذا ، شريف البقعة ، كريم التربة ، عظيم المنعة باسق إلى عنان السماء ، وفيه من جميع الفواكه : كشجر التين ، والعنب ، والتفاح ، والكمثرى ، والسفرجل ، والمشمش ، والأجاص ، والأترج ، والموز وغير ذلك ، وماؤه عذب زلال . . . وكان الحاج يعيش (المالقى) المهندس — مدة إقامته للبناء — قد صنع فى أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور .

واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح[٣] . فجاء بناء جبل طارق فرداً فى المعاقل ، التى لا يتمكن لطامع فيه طمع . ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر أو بحر[٤] .

---

(١) بنيت مدينة «جبل طارق» لتكون منزلاً للجيش الموحدى الرابض لنجدة جيوش الولايات الأندلسية ، إذا هاجمها النصارى ، فهى قاعدة ثانية بالنسبة إلى قاعدة مدينة رباط الفتح التى كان الغرض منها تجميع الجيوش على أرضها لإرسالها إلى الأندلس عند اللزوم . ويقول ابن صاحب الصلاة فى هذا : « . . وصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى . . بالجبل الميمون الساحق الشاهق جبل طارق . . لتكون هذه المدينة منزلا للأمر . عند إجازة العساكر المنصورة ، ومحلا — أى قاعدة — ريثما تتقدم الرايات المظفرة ، والأعلام المنصورة إلى بلاد الروم » . (مخطوط المن بالإمامة ورقة ١٦) .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٨ .

(٣) المصدر السابق من ورقة ١٨ — ٢١ .

(٤) المن بالإمامة ورقة ٢٠ .

منشآت عبد المؤمن بالجزائر

ومن منشآت عبد المؤمن ببلاد الجزائر ، قصر المشور : الذى أقامه فى سنة ٥٤٠ هـ بمدينة تلمسان[1] ليكون مقرًّا للاجتماعات التى كثيراً ما كان يعقدها « عبد المؤمن » مع شيوخ الموحدين عقب مهلك السلطان تاشفين ملك المرابطين بوهران سنة ٥٣٩هـ ، وثقة عبد المؤمن بنجاحه القريب فى إسقاط الدولة المرابطية وشبوب ثورة الأندلس ، واتجاه الآمال إلى عبد المؤمن بالمغرب والأندلس على السواء .

وعمد عبد المؤمن إلى تجديد كثير من أبنية بلدة « تاجرا » — مسقط رأسه ببلاد الجزائر — وكذلك بنى الجامع الكبير بندرومه ، وفاء لقبيلته كومية وبقية بطون زناتة الكبرى .

ومن أشهر منشآته بالجزائر تأسيسه مدينة « البطحاء » وكانت تعرف فى الجزائر باسم « السدرة » وموقعها على نهر « شلف » بالشمال الشرقى من « غليزان » . وكان بناؤها فى سنة ٥٥٥ هـ ، وهى السنة التى فتحت فيها مدينة المهدية عاصمة إفريقية ، والتى أنشئت فيها مدينة جبل طارق على

---

(١) أقام عبد المؤمن بعض المنشآت بالجزائر أيضاً مثل سور « تلمسان » الذى جدد فى عهد الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » وابتدأ بناءه السيد موسى بن يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦ هـ . ومثل تجديد قصرى « الرياض الرفيع » و« الرياض البديع » وهما من منشآت دولة الحماديين بمدينة بجاية (عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ص ٣٨٦) .

ما ذكرنا ولم تبن مدينة « البطحاء » لأغراض حربية . بل أقامها « عبد المؤمن » تكريماً لشيخ من شيوخ الموحدين ؛ افتدى عبد المؤمن بنفسه ودفن فى موضع هذه المدينة(١) .

---

(١) يذكر ابن أبى زرع أنه لما طالت بالموحدين الإقامة بالمشرق (فى فتح المهدية وغيرها من مدن إفريقية) والتغرب عن أولادهم وأوطانهم ، عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن ، بالفتك به فى خبائه إذا نام واتفقوا على ذلك فأتى شيخ — ممن علم بالأمر — إلى عبد المؤمن ، فأخبره الخبر وقال له : دعنى أبت الليلة فى موضعك ، فإذا فعلوا ما اتفقوا عليه ، فسوف أفديك بنفسى ، وأجرى فى ذلك على الله ، وإن كانت السلامة فمن الله تعالى ، ويكون أجرى على قدر نيتى ، فبات على فراشه ، فاستشهد . . فلما أصبح « عبد المؤمن » وصلى الصبح ، افتقده فوجده مقتولا ، فأخذه بين يديه ، وحمله على ناقته (أى ناقة عبد المؤمن) ، لايقودها أحد ، فسارت الناقة يميناً وشمالا ، حتى بركت وحدها فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عن الناقة ، وأخذ بزمامها ، وأزيلت عن مبركها ، وحفر قبر الشيخ مكان مبرك الناقة ودفن فيه ، وبنى إزاء القبة جامعاً ، ثم أمر ببناء مدينة حول المسجد سميت مدينة البطحاء . وترك بهذه المدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب الموجودة بجيشه (القرطاس ج ٢ — ص ١٦٢) .

٢

الرسوم والزخرفة

(١) البستان الكبير بمراكش

ومن أعمال عبد المؤمن الفنية إنشاؤه بستان مراكش العظيم فى سنة ٥٥٢هـ ، ويسميه البيذق « شنطولية » وقد تولى تنسيق البستان والقيام عليه أمير من أمراء الأندلس . هو « أحمد بن ملحان » ملك وادى آش[1] . وقد فر إلى عبد المؤمن حين استولى محمد بن مردنيش على وادى آش كما تقدم .

وكان للأمير المذكور خبرة واسعة بفن تنسيق البساتين . فزود بستان « شنطولية » بسائر الغروس : من أنواع الفاكهة ، وأشجار الرياض والزينة ، واجتلب من هذه الأنواع كثيراً من بلاد الأندلس مما لم يكن معروفاً بالمغرب حينئذ ، فكان أول بستان فريد فى نوعه . ولم يمض غير قليل من السنين حتى أصبح هذا البستان مصدراً من مصادر الاقتصاد بالمغرب . إذ كانت مساحته نحو ثلاثة أميالٍ فى مثلها ، وقد بيعت ثماره — بعد ثلاث سنوات من إنشائه — بنحو ثلاثين ألف دينار مؤمنى ، على الرغم من رخص الفاكهة فى هذا العصر .

وقد ألحق بهذا البستان بحيرة كبيرة ، استعملت فى تدريب طلبة

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت — ص١٢٠ .

البحرية المغربية ، وفى تعليم التلاميذ رياضة السباحة[١] . كما صار هذا السبتان متنزهاً عامًّا يتمتع به الشعب فى أيام الجمع والأعياد والمواسم .

* * *

(ب) زخرفة المصحف العثمانى

ومن الأعمال الفنية المذكورة فى عهد عبد المؤمن زخرفة المصحف العثمانى الذى كان بجامع قرطبة الأعظم من أيام خلفاء بنى أمية بالأندلس ، ثم شغف به عبد المؤمن ، وتمنى أن ينقل إلى المغرب ، واحتال لذلك كثيراً ولم يرد أن ينتزعه انتزاعاً خشية غضبة الشعب الأندلسى[٢] . فاستعمل فى ذلك الرفق والدهاء ، وقد تم له تحقيق أمنيته ، فنقل المصحف الشريف إلى المغرب فى يوم السبت الحادى عشر من شوال « سنة ٥٥٢ هـ » . وقيل إن هذا المصحف هو أحد المصاحف الأربعة التى أرساها الخليفة الثالث « عثمان بن عفان »

---

(١) يذكر صاحب الحلل الموشية أن عبد المؤمن كان يدرب الحفاظ (صغار الطلبة) على التعاليم الحربية بنفسه فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمى بالقوس ، ويوماً بالعوم فى بحيرة مربعة صنعها خارج بستان (طول ضلعها نحو ثلاثمائة باع) ويوماً بقيادة السفن فى هذه البحيرة .

(٢) يذكر السلاوى عن مؤرخ موحدى مجهول : أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام (أى قبل ورود المصحف) قد جرى ذكره (أى المصحف الشريف) فى خاطره ، وتروى مع نفسه فى كيفية جلبه من مدينة قرطبة ، محل مثواه القديم ، فتوقع (عبد المؤمن) أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه (أى بفراق المصحف) . ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشراقه فوقف (عبد المؤمن) عن ذلك . فأوصله الله إليه تحفة سنية وهدية هينة (الاستقصاء جـ٢ – ص١١٣) .

رضى الله عنه إلى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، ودمشق[١] .

وقد اهتم عبد المؤمن اهتماماً شديداً بهذا المصحف الأثرى العظيم . وشرع فى انتخاب كسوته ، واختيار حليته فحشر الصناع المتقنين ممن كان بمراكش ، وسائر بلاد المغرب والأندلس ، فاجتمع لذلك حذاق كل صنعة من المهندسين والصواغين ، والنظامين ، والحلائين ، والنقاشين ، والمرصعين والنجارين ، والزواقين والرسامين ، والمجلدين وعرفاء البنائين : ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة إلا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه ، وقد صنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة . ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الكريمة ، الغريبة النوع والشكل العديمة المثال . واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك فى غرابة الصنعة ، وبداعة الصبغة . واتخذ للمحمل كرسى على شاكلته . ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه و... إلخ[٢] .

ومما سبق نرى أن « عبد المؤمن » لم يلتزم نهج ابن تومرت فى التقشف والزهد ، والبعد عن الزخرف والإسراف فى أمور الزينة ، إلا فترة قصيرة فى مطلع حكمه ، ثم طفق يجارى تطور الحياة . وإن قوة الملك : وفخامته وروعته ، يقتضى الأخذ بأسباب الحضارة ، والظهور بمظهر العظمة ، ولا سيما أن الموحدين حكموا الأندلس ، وهى فى أوج مجدها علما وأدباً وفنًّا ، ومن هنا هيئت الأسباب لدى عبد المؤمن للاقتباس من هذا التراث الحضارى العربى الأصيل فاندفع عبد المؤمن — ومن ورائه خلفاؤه — فى ميدان الفن . ينشئ

---

(١) روى السلاوى : عن ابن عبد الملك عن أبى القاسم التجيبى السبتى قال : « أما — المصحف — الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق ، وعاينته هناك سنة سبع وخمسين وستمائة . كما عاينت — المصحف — المكى بقبة الشراب قال — أى أبو القاسم — فلعله — أى المصحف الذى بالمغرب — الكوفى أو البصرى » . (المصدر السابق والصفحة) .

(٢) السلاوى — الاستقصا جـ ٢ — ص ١١٤ .

المساجد والمدن والقصور والصوامع . ويجملها فى سخاء وبذل فموه المنابر والسقوف بالذهب والفضة ، وجمل الصوامع بتفافيح من الذهب الإبريز ، وبلغ الفن المعمارى شأوه فى عهد ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1] . وحفيده يعقوب المنصور .

(١) كان يوسف بن عبد المؤمن كلفاً بالمشاريع الإنشائية ، وربما كان أكثر أعماله الفنية فى الأندلس ، فهوالذى أنشأ قنطرة « طريانة » ومسجد أشبيلية الأعظم ، وصومعته (لا خيرالدا) التى أكملها ابنه يعقوب المنصور . وما تزال هذه الصومعة « بجمالها وسموقها ، ودقة زخارفها ، وتناسق بنيانها تثير إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء ؛ فهى بحق تمثل أسمى ما وصل إليه الفن الموحدى من التقدم والرقى . وهذه الصومعة الموحدية ما تزال حافظة لنظام بنائها الإسلامى ، غير أنها لم تعد بعد ؛ تلك المنارة التى ينطلق منها صوت المؤمن الداعى إلى الصلاة . بل أضحت برجاً للنواقيس الكنسية ! !

وقد جدد الخليفة يوسف أيضاً سور أشبيلية ، وأنشأ بها القصور والبساتين . كما أنشأ قصبة بطليوس العظيمة التى ما تزال أطلالها باقية حتّى الآن .

وكان للخليفة يوسف وابنه يعقوب المنصور الفضل الأوفر فى بناء قصور مراكش التى يذكرها المراكشى بقوله : « . . . وأجرى المصامدة (الموحدون) فيها (اى فى مراكش) مياهاً كثيرة ، لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك . فصارت بذلك فى نهاية الحسن والكمال (المعجب ص ٢٤٠) ثم انظر « كتاب المن بالإمامة »ص ٣٣٩– إعداد التازى . وكتيب المساجد والقصور (سلسلة اقرأ رم١٩٠). للدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم – ص٦٤–٦٧) .

خاتمة

نتبين من الدراسة التى قام عليها هذا البحث ، أن عبد المؤمن بن على هو المؤسس الحقيقى للدولة الموحدية الكبرى التى لم تتح لملك قبله ، أو بعده ، من ملوك المغرب أو الأندلس فى عامة التاريخ ، إذ شملت المغرب الأقصى – الذى كان يمتد جنوباً إلى السودان – ثم المغرب الأوسط (الجزائر) وأفريقية (تونس) وجزءاً كبيراً من أرض ليبيا ؛ والأندلس الإسلامية ولم يحرز عبد المؤمن شبراً واحداً من هذا الملك الكبير بطريق الميراث أو الخضوع السلمى ، بل بالكدح والعرق والنار والحديد .

ومن غريب الأمور أن ملك المغرب – بصفة خاصة – كان يقوم على العصبية القبلية . وعبد المؤمن الجزائرى الأصل ، قد ذهب إلى المغرب الأقصى – فى صحبة ابن تومرت صاحب دعوة الموحدين – تلميذاً فقيراً غريباً ، لا يعتز بقبيلة ، ولا يملك إلا إيمانه ، وإخلاصه لمبادئ ابن تومرت ، وما وهبه الله من شخصية قوية جذابة وعبقرية فذة كشفت عنها آثاره فى ميادين القتال والسياسة والعلم فيما بعد .

وكان ابن تومرت – على ما ظهر لى من معاناة البحث – يقصد بدعوته الموحدية المهدوية إيجاد خلافة إسلامية قوية تحل محل الخلافتين المترنحتين : العباسية والفاطمية اللتين دب فيهما الفساد والوهن ، مما سبب طمع النصرانية فى الإسلام والهجوم على مقدساته بالشام فى شكل حروب صليبية متتالية .

فاتخذ ابن تومرت فكرة التوحيد الكلامى سلاحاً لهدم الدولة المرابطية

بالمغرب وفكرة المهدوية سبيلا إلى السيطرة على المشرق الإسلامى ، الذى كان يتسم حينئذ بالفرقة والضعف لأسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام .

ولكن المهدى ابن تومرت لم يمهله أجله ، ولم يحقق شيئاً من طموحه فى إيجاد الخلافة الموحدية التى كانت فكرتها سراً مكتوماً أو دعه صدر تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن على . فماذا حقق عبد المؤمن من آمال المهدى ؟

إن عبد المؤمن بن على « المؤمن بفكرة المهدى ابن تومرت » قد استطاع أن يصنع إمبراطورية موحدية لم يشهدها المغرب من قبل أو من بعد – كما قلنا – ولكنه لم يحقق الخلافة الإسلامية المنشودة ! !

فقد سيطر على أكثر أرض ليبيا شرقاً . وكانت الخطوة التالية أن يضرب قلب الخلافة الفاطمية المترنحة بالقاهرة ، وأن يسير بهذا نحو القمة فى تحقيق هدف ابن تومرت فى إصلاح العالم الإسلامى . وإعادة مجده الأول . ولكن عبد المؤمن رأى أن يتجه نحو الأندلس ليضرب خصماً عنيداً يهدد كيان الموحدين الناشئين بصفة خاصة . والحكم الإسلامى بالأندلس بصفة عامة ذلك هو النصرانية المستترة فى شخص محمد بن مردنيش ملك شرقى الأندلس . الذى أخذ يناوئ الموحدين ، ويقض مضاجعهم ، محاولا السيطرة على قرطبة – قاب الأندلس – وعلى أشبيلية مركز جيوش الموحدين بالأندلس .

مما حدا بالخليفة عبد المؤمن أن يعبر بنفسه إلى جبل طارق – عقب انتصاره الرائع على النصارى بشمال أفريقية سنة ٥٥٥هـ – داعياً إلى حرب شاملة ضد النصارى وحليفهم محمد بن مردنيش .

وعاد عبد المؤمن إلى المغرب فى طليعة سنة ٥٥٦ هـ ، ليشرف على إعداد جيش الجهاد الضخم . وإنشاء الأساطيل . وبينما كان فى صدد تحقيق هذه

الغاية . إذ وافته منيته فى ١٠ جمادى الآخرة (سنة ٥٥٨ هـ / ١٥ مايو ١١٦٣م) .

وأرى أن هناك أموراً حالت دون إكمال آمال عبد المؤمن ، من أهمها : قيام الثورات الداخلية ضده ابتداء من قيام الدولة الموحدية سنة ٥٤١هـ . تلك الثورات التى لم تخمد إلا حوالى سنة ٥٤٩ هـ . فكانت جهوده فى هذه الفترة مبعثرة بين العمل على إخماد الثورات الداخلية وتثبيت قدم الموحدين بالأندلس . وتحقيق رغبته فى التوسع شرقاً . إذ سيطر على بجاية عاصمة مملكة بنى حماد الزيريين فى هذه الظروف العصيبة ثم إن عبد المؤمن لم يكد ينتهى من الثورات ، الداخلية حتى وقع فى مشاكل داخلية أخرى تتصل بجماعة الموحدين أنفسهم . فقد أخذ يعمل على تغيير نظام الحكم الاستشارى — الذى على ضوئه انتخب خليفة للمهدى — وجعل الحكم وراثياً فى ذريته وقد جرت عليه هذه الفكرة متاعب جمة وشغلت كثيراً من وقته وعرضته لنقد التاريخ . ولا سيما أنه ارتكب بسببها بعض الحماقات فقتل القائد يصليتن الهرغى — من قرابة المهدى — بل قتل أخوى المهدى (عبد العزيز وعيسى) . وكان ذلك سبباً فى مقت قبائل الموحدين الصامدة إياه ، فاستقدم قبيلته كومية ، لتحمى ظهره ، وتشد أزره .

وربما كانت هذه الإجراءات التى قام بها عبد المؤمن أمراً ضرورياً لحفظ الملك وصيانته — ولكنها تتنافى مع نبالة المقصد ، وتحقيق هدف الموحدين الذى يرمى إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح حال المسلمين . مما يصغر بجانبه مطامع شخصية فانية .

ومما لا ينسى للخليفة عبد المؤمن تطهير شمال أفريقية من النصارى وإيقاف حدة مطامعهم فى الأندلس . ونهضته بالعلوم والآداب والفنون حتى اعتبر عهده بحق مبدأ ظهور شخصية المغرب الأقصى فى مجال الثقافة والفكر .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
ونسأل الله العلى القدير أن يجعل فى عملنا هذا نفعاً محققاً للثقافة الإسلامية بخاصة ، والثقافة الإنسانية بعامة إنه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الله على علام

* * *

ملحق :

رسالة الخليفة عبد المؤمن بن على
إلى الموحدين القائمين بالأمر فى الأندلس[1]

« أمره — رضى الله تعالى عنه — بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر، وعدله ، ونهجه مناهج الحق ، وفضله ، وهى بعد البسملة والصلاة[2] :

من أمير المؤمنين — أيده الله تعالى بنصره ، وأمده بمعونته — إلى جميع الطلبة[3] الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة — وفقهم الله واستعملهم بما يرضاه[4] .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد : فالحمد لله وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم الذى بعدله قامت السموات والأرض ، وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى ، الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويريهم رحيقها المختوم .

---

(١) تكشف هذه الرسالة عن طبيعة الحكم فى عهد عبد المؤمن . فهو يأمر باتباع الشرع فى جميع الأحوال . والضرب على يد قطاع الطرق وينذر الحكام الذين يستلبون أموال التجار باسم الحكومة . والحكومة منهم براء . ويأمر بعدم قتل أحد دون الرجوع إلى الخليفة وينذر سعاة البريد الذين يفرضون كلفهم على الناس قسراً . وينذر من يشرب الخمر . . . إلخ .

(٢) هذا تقديم ابن القطان الذى نقلنا عنه هذه الرسالة .

(٣) المقصود بالطلبة العلماء .

(٤) هذه الرسالة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن، وذلك فى سنة ٥٤٣ هـ كما هو مذكور بصلب الرسالة .

وكتابنا هذا — كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمة — من الحضرة العلية بتينملل — حرسها الله تعالى — فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلناها — والحمد لله — وجناح الرحمة مخفوض وطرف المكاره مغضوض وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم — بإذن الله تعالى — مكفوف مقبوض ، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة ، زيارة قبر المكرم المهدى — رضى الله تعالى عنه — لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر فى بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ورجاء فى تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو فى الملأ الأعلى ذكره ورسمه ، ورغبة فى رفع بيت من أفضل البيوت التى أمر الله عز وجل أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتتزود بالقطوف على ما عهدته من العوارف المتممة ، كل ذلك غرضاً فى ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طاب ذلك الخير ويستنهضه . وقد تم — بحمد الله تعالى — هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر فى المصالح ، والرأى الجميل النظر وتفجرت — بحمد الله — منابع الخير وفاضت . وعادت روابض الأمر إلى شرف حالاته وآمنت ، وانبعثت موارد البركات بعد ما غارت — فى غير هذا الزمن المذكور — وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التى علت ملابسها ودعت الأفئدة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها . و . . . . . وقد اتصل بنا — وفقكم الله تعالى — أن من لا يتقى الله ولا يخشاه ولا يراقبه فى كبيرة يغشاها وتغشاه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فيما أذاعه من المنكر والفحشاء يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار يستحلون حرمات المسلمين ومن غير حلها ، ويسارعن إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة

والغلظة بطراً ورياء فى غير محلها ؛ ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ماتذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم ، بتلبسات يسيئونها ، ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله — تعالى — فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً ويحسبونها ويسعون فى استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبى — صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم — يقول : من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة — وله صراخ عند العرش يقول : يارب سل هذا فيم قتلنى عبثاً من غير منفعة . . . . ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا يحرون بآذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ، ولا يخطرون « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »[١] هيهات هيهات . . إنهم ساء ماكانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم فى أقرب أمد ما يهدهم هدًّا ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سدًّا ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إدًّا أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم فى مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدى — رضى الله تعالى عنه — تساوى فى الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله — صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم — المسلمون تنكفىء[٢] دماؤهم ، ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم[٣] لقد أمنوا مكر الله جرأة

---

(١) سورة البقرة (٢ : ٩)

(٢) هكذا فى الأصل ولعلها تتكافأ .

(٣) والحديث كما رواه صاحب « سنن النسائى » (ج ٨ ص ١٩ — ٢٠) المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . . إلخ . والذى ذكره البخارى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . (ج ٩ ص ٩٧) .

عليه وإقداماً . وأعمت الشهوات بصائرهم : إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخلص ، ولسارع إليه من أسرع بعقابنا، ما يمحو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمتا من الخنا ، ولقد ذكر لنا من تلك المعالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأدناها حين يقرع سن النادم ، إن أولياءك الخائفين فى غمرات أبحرها ، المشيرين لأسباب منكرها الصارمين لعاق الشريعة القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغاً فى الانتهاء بكثرتها وأمجاشا[1] . ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغالاً للصدور وإيحاشا[2] وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل — أصلحكم الله تعالى — عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيها يستوجب الضرب أو يستحقه ، من يظلم الأمر الشرعى أو يعقه بحدود معلومة ؛ دون إفحاش ولا انتهاك ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك . واقد ذكر أنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات [3] . وتحجير المراسى [4] وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها فى نقص الديانة عبثاً وفتكاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالى إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ووصل سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطاقه ؟ اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك مما

---

(١) الأمجاش : هو سجح الجلد (أى خدشه حتى خروج الدم).

(٢) إيحاشاً أى وحشة . وهى فساد المودة بين الناس .

(٣) استعملت هذه الكلمة بالمغرب والأندلس الدلالة على الضرائب التى كان يؤديها أهل الحرف أو السلع الرئيسية (دوزى : ملحق القواميس العربية ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٤) تحجير المراسى يقصد به منح التصرف فيها ، والحجر على حرية الانتفاع بها (دوزى ملحق القواميس العربية ج ٢ ص ٥٠) .

استعاذ منه محمد رسولك ، روى عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " . . وأعوذ بالله من المغرم والمأثم "[١] تنبيهاً على ما فى إغرام الناس من الظلم المظلم ، ولئن نقل إلينا – والله الشاهد – أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة ، أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هناك من البشر ، أو يأمر بشىء من ذلك الفعل المستنكر لنعاقبه بمحو آثاره عقاباً يبقى عظة لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وأن من ذلك الرأى الذميم ، والسعى المنقوم ، ما ذكر لنا فى أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش على ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر فى تصرفاتهم القبيحة فيقولون للرجل منهم : " عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وأن المخزن جميع ما به أتيت " ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى به المذكور من الخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، ويا عجباً لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ؟ كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم هناك للأمور رصد ؟ أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ؟ أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمات تنتهك ، ولا يمتعض لذلك منكم أحد ؟ كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وأن من وراء قولنا لتتبعاً يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص .

ولا شك – والله أعلم – فى أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغير تلك الأحوال المتغيرات قوم يتوسطون بينكم وبين الناس . يقولون ما لا يفعلون ، ذهاباً إلى التلبيس عليكم والإلباس ، ويجعلون التفسير بالظلم والعدوان بدلا من

---

(١) ذكره النسائى فى جملة ما يتعوذ به فى الصلاة (السنن ج ٣ ص ٥٧)

العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن مباشرة الأمور ومعاينتها والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى فى انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها فى البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عن قصدكم من الخير ونواياكم ، وباشروا الأحكام هناك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى ، وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا فى جانب المسلمين من كل خفيف المقال كثير الاضطراب فى الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وتثبتوا — وفقكم الله تعالى — فى الأحكام التى لابد لكم من النظر فيها تثبت الباحث عن حقائق الأمور ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد فى الخصام ، وبالغوا فى الإيصاء . ولا تظنوا أن الاجتهاد فى الأمور يؤدى إلى الهجوم عليها والاقتحام ، ويخرج النظر عن التثبت فى القضايا والأحكام فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولا تجتهدوا فى شىء لاتعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسماً ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً فى سعيه ، وبين طرفى الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها وخير الأمور — كما قال عليه الصلاة والسلام — أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح الساعين فى صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم — بعد تثقيفهم — لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله فى سد تلك الذريعة وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين الكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من

هو فى بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم ، وداخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، أينفذ فيه من قبلنا ما يوجبه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ولتباشروا إلى إعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ونجرى الحق فى مجراه .

وقد أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولا يبالى بأحسن الفعل وقبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء[1] ، ويعبث فى ذاك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء ، ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض وأن فى ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ، وإفساد الأصل من السنة والفرع ، مالا يحل سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطلاعه ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع ولتقدموا للنظر فى أسواقهن من ترضون دينه وأمانته وتتحققون ثقته وصيانته : فمن أبيح له البيع والابتياع ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع ، وتجرى السنة مجراها ، ويمتثل الأمر المطاع وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع من تغنمونه منهن فى تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته وتعلمونا من ذلك بجليته لنرسم لكم فيه ما يكون اعتمادكم ، ويجرى إليه اقتضاؤكم .

والله الله فى البحث عن الخمور ، وتقديم النظر فى أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ورأس الكبائر والفجور وهى رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم ، قال النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام

---

(١) الاستبراء انتظار المرأة حتى تحيض ، ليتأكد من عدم حملها أو تلد إن كانت حاملا .

عليه وسلم : "الخمر جماع الإثم"[١] فجدوا فى طلبها فى المواطن المهتمة بشأنها ، واجتهدوا فى إراقتها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذى يؤدى إلى التمكن منها فارعوه ، والحظوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالئ الرقيب . ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصاره ، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلا وفرعاً وأراقوه (الحلال بين والحرام بين)[٢] ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : "ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام" [٣] ، وأن من يسعى فى نوع من أنواع الفساد ويستصحب الأضرار بالمسلمين فى الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصون[٤] الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ، ويلزمونهم فى زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم فى سيرها ، وسوء رأيهم بذلك فى المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون فى الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، ويكلفونهم مؤوناتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى إنهم لا يرضون فى ضيافاتهم

---

(١) لم أعثر فى كتب الأحاديث الموثوق بها على هذا النص . ولعلها رواية بالمعنى عن حديث رواه ابن ماجة فى السنن عن أبى الدرداء : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تشرب الخمر ، فإنها مفتاح كل شر » .

(٢) ورد هذا الحديث بالبخارى (الصحيح ج ١ ص ٢٠) ومسلم ج ٥ ص ٥٠ وغيرهما من كتب الحديث الصحيحة .

(٣) يبدو أن هذا الحديث مروى بمعناه إذ نصه « ما أسكر كثيره فقليله حرام » سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٣٣٢ وسنن النساء ج ٨ ص ٣٠٠ وغيرهما .

(٤) الراقصون هم سعاة البريد .

إلا بأسمن الجزر . وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى إلى حسم هذه العلة من أصلها وبادروا إلى قطع هذه العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا . وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم فى المجىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ، ولو مثقال ذرة وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ونستعيذ به سبحانه من الحور .

وكذلك ذكرنا — وفقكم الله تعالى — من التحكم فى الأموال وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، إن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصف غرضهم الذميم ومنزعهم ، يفعلون فى أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك فيعيثون فيها ويتحكمون ويجترئون فى التعدى عليها ملء شأوهم ، وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة فى أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولا كثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لاتدخلها تعلة .

وقد خاطبنا بمثل ما خطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التى هى بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتبنا هذه إليكم ولسواكم شامل وفى جميع أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء فى العاجل والآجل ماله ومعاده ، ومن لم يمتثله بواجب الامتثال ،

ويكف يده عما رسمناه فى كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه [١] ، واستقبل من ارتكاب النهى ما يصده الانتقام به عن سواه، فاستصحبوا حدنا هذا استصحاباً مؤيداً ، واتصلوه فى كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة فى سلك التوحيد الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير — أيده الله تعالى — على بسط العدل وإفاضته على الكل ورفع العبء المثقل . وعلى الكل أن يسلكوا فى تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وسراعاً ، ويكونوا فى التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تآلفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا — وفقكم الله تعالى — أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدماً ، وإنفاذه — بأمر الله تعالى — إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل فى كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وها هى قد رفعت الأشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط إهبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة وصلوا ابتدار شأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا بالاجتماع على هذا الكتاب جميع من فى تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، لاتقدموا أمراً من الأمور على إنفاد جميع ماتضمنه، والاعتمال بكل ما شرحه وبينه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكن منكم فى تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، واقرأوه على الكافة من أعالى المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادى والحواضر ، وأسمعوا به إفصاحاً وإعلاناً وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحداناً ،وأحسنوا إيصال أغراضه

---

(١) أوحاه : أى أسرعه .

إليهم ؛ فإن الله تعالى يجزى الإحسان إحساناً ؛

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير ، وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوه عنه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل به على كل الوجوه ، وامتثال مغنمه على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان وادينا من التراؤف عليهم ، والرفق بجانبهم ، شأن لايفارقه — من فضل الله تعالى — شأن وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه على مر الزمان ، وسبرتموه فَلْتَتَلَقَّوْا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا — رعاكم الله — أن من شملته كلمة التوحيد ، فى العهد القريب أو البعيد فى مضمار واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مسؤولون ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض فى الخير أسوة . وقد قال الله تعالى : " إنما المؤمنون إخوة "(١) فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقاناً ، وكونوا عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم رعاكم الله — ظنا . وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتى هى أحسن ، وابذلوا لهم من المساعدة فى ذات الله تعالى غاية ما يمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مظهركم الجميل

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٠

ويتبين ، وسروا بمصالح عمالكم وبشروا ويسروا – كما قال عليه الصلاة والسلام – ولا تعسروا وسكنوا ، ولا تنفروا .[1] واعلموا أن السعى فى هذا الغرض واجب ، والاعمال فى رفع ذلك الحاجب لا يتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع فى الصلاح آراءكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولمن وراءكم . فعليكم بالمظافرة ، والمناصرة والمؤازرة ، فهى سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين على العهد ، وبها يعمر محل الرضا وناديه وبها أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحنا لكم فأقبلوها نصيحة ، قصدت فى ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبلوها رشدها ، ونبهناكم تنبيها بالغاً وللحال ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نية وأفرغ الرحمة على قالب سجيته، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا – وفقكم الله تعالى – على تنبيهكم وإذكاركم وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح ، وإشعاركم ما ألفيناه بحضرة مراكش – حرسها الله تعالى من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجرى مجراها فى وجوب الإزالة والإحالة ، فإننا هنا لا نبحث عن ذلك لتخيلنا إنه لا يجرؤ أحد أن يسلك فى هذا الأمر الذى أظهره الله تعالى تلك المسالك فلما كان الحث عما يجب ، وزال عن وجه المشاهد ما كان يحتجب طلعنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيراً ، وأزال بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال

---

(١) نص الحديث الشريف : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا .

والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدى – رضى الله تعالى عنه – فى القضايا والأحكام . وإذا كان الافتيات فى شىء من هذا ونحن على اقتراب فكيف فيما هو فى حكم ما كان فى بعد عنا واغتراب .

فانظروا هذا – وفقكم الله تعالى – نظرة أولى الألباب واتسعوا جهدكم فى رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المراجع

ابن الأبار : (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) . أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي .

١ – التكملة (القاهرة ١٩٥٦) .

٢ – الحلة السيراء (تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣) .

ابن أبي دينار : (١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) محمد بن أبي القاسم القيرواني .

٣ – المؤنس في ذكر بلاد أفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ) .

ابن أبي زرع : (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) أبو الحسن علي .

٤ – الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط ١٩٣٦) .

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) علي بن أحمد .

٥ – كتاب الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٥٧ هـ) .

الإدريسي : (٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) الشريف محمد بن عبد العزيز .

٦ – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (القاهرة ١٩١١ م) .

٧ – وصف أفريقة الشمالية والصحراوية (وهو مأخوذ من نزهة المشتاق) : نشر هنري بريس (الرباط ١٩٣٦) .

أشباخ : يوسف .

٨ — تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين : ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨م) .

الإلغى : إبراهيم .

٩ — تاريخ الأدب العربى (فى الأدب المغربى الأندلسى) تطوان ١٩٥٥ م .

بروفنسال : المستشرق ليڤى .

١٠ — الإسلام فى المغرب والأندلس : ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى (القاهرة ١٩٥٨) .

١١ — مجموع رسائل موحدية (الرباط ١٩٤١) .

ابن بسام : (٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) أبو الحسن على الشنتريني .

١٢ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (القاهرة ١٣٥٨ هـ) .

ابن بشكوال : (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) . خلف بن عبد الملك ابن مسعود .

١٣ — الصلة (القاهرة ١٩٥٠ م) .

البكرى : (٤٨٧ هـ / ١٠٩٧ م) عبيد الله الأندلسى .

١٤ — المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (نشره دى سلان . وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك . الجزائر ١٩١١) .

البيــذق : (القرن السادس الهجرى) أبو بكر بن على الصنهاجى .
١٥ – أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين (نشره ليڤى بروڤنسال سنة ١٩٢٨ م) .

التجـــانى : أبو محمد عبد الله بن محمد (القرن الثامن الهجرى)
١٦ – رحلة التجانى (المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨ م) .

ابن تومــرت : (٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م) المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت .
١٧ – أعز ما يطلب .
١٨ – تلخيص كتاب مسلم (مخطوط جامعة ابن يوسف بمراكش رقم ٤٠٣ ى) .
١٩ – أقوال المهدى بن تومرت فى علم الكلام (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط الآن رقم (٣٠١ وهو ملك جامعة القرويين بفاس) .
٢٠ – محاذى الموطأ (مخطوط جامعة القرويين رقم ل ٤٠ – ١٨١ . وهو مكتوب على رق الغزال .

ابن جبــير : (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد .
٢١ – رحلة ابن جبير – القاهرة ١٩٥٥ م .

جنــون : الأستاذ عبد الله .
٢٢ – النبوغ المغربى (طبعة الرباط) .
٢٣ – مدخل إلى تاريخ المغرب (تطوان ١٩٥٥) .

الجيــلالى : الأستاذ عبد القادر بن محمد .
٢٤ – تاريخ الجزائر العام (الجزائر ١٩٥٤) .

حاجي خليفة : (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) مصطفى .
٢٥ – كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (طبعة لندن ١٨٥٨) .

حــتى : الدكتور فيليب .
٢٦ – تاريخ العرب (بيروت ١٩٤٩)

ابن حــزم : (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) ابن محمد على .
٢٧ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
٢٨ – المحلى (الدار البيضاء ١٩٤٧) .

حســن : (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) الدكتور حسن إبراهيم .
٢٩ – تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) .
٣٠ – تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة ١٩٥٧) .

الحصــرى : الأستاذ ساطع (أبو خلدون) .
٣١ – نشوء الفكرة القومية (بيروت ١٩٥٦) .

الحمــيرى : ابن عبد المنعم .
٣٢ – الروض المعطار (نشره ليڤى بروڤنسال ١٩٣٧) .

ابن خاقان : (٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م) أبو نصر الفتح بن محمد ابن عبد الله القيسى .
٣٣ – قلائد العقيان (فاس ١٣٥٠ هـ).

ابن الخطيب : (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) الوزير محمد لسان الدين .
٣٤ـ الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٤٤ و ١٩٥٦م) .
٣٥ ـ أعمال الإعلام (بيروت ١٩٥٦ م) .
٣٦ ـ رقم الحلل (تونس ١٩١٦ م) .

ابن خلدون : (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد .
٣٧ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط دى سلان بالجزائر (١٨٨١ وبيروت ١٩٥٩) .
٣٨ ـ مقدمة ابن خلدون طبعة مصطفى محمد بالقاهرة.

ابن خلكان : (٦٨١ هـ / ١٢٨٧ م) .
٣٩ ـ وفيات الأعيان وأبناء الزمان .
شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (القاهرة ١٩٤٨) .

ديوز : الأستاذ محمد على :
٤٠ ـ المغرب الكبير (القاهرة ١٩٦٣ م) .

ابن دحية : (٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م) أبو الخطاب عمر بن الحسن ابن على بن محمد الجميل البلنسى الأندلسى :
٤١ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب (القاهرة ١٩٥٤) .
٤٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ العدد التاسع ـ المجلد العاشر .

ابن الزبير : (٧٥٨ هـ / ١٣٠٨ م) أحمد بن إبراهيم .
٤٣ — صلة الصلة (نشرة ليفى بروفنسال بالجزائر ١٩٣٧) .

زرقانة : الدكتور إبراهيم .
٤٤ — الأجناس البشرية (طبعة القاهرة) .

الزركشى : (القرن الحادى عشر الهجرى) أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم اللؤلوى .
٤٥ — تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ) .

سالم : الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، (والدكتور رشيد الناضورى ، والدكتور جلال يحيى) .
٤٦ — المغرب الكبير — العصر الإسلامى — (القاهرة ١٩٦٦) .
٤٧ — المساجد والقصور — سلسلة اقرأ رقم ١٩٠ — (القاهرة ١٩٦٨) .

السلاوى : (١٣١٥ هـ / ١٨٩٠ م) الشيخ أبو العباس أحمد ابن خالد الناصرى .
٤٨ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء ١٩٥٤) .

السيوطى : (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن .
٤٩ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

شعوط : الدكتور إبراهيم على .
٥٠ — الحقبة المثالية فى الإسلام . (القاهرة ١٩٦٦) .

ابن صاحب الصلاة : (نهاية القرن السادس الهجرى) .

٥١ – المن بالإمامة : (مخطوط حققه الأستاذ عبد الهادى النازى المغربى وأعده للنشر) .

العبادى : (١٣٧٦هـ/١٩٥٦ م) الأستاذ عبد الحميد .

٥٢ – المجمل فى تاريخ الأندلس (القاهرة ١٩٥٨ م) .

ابن عذارى (٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) أبو عبد الله محمد .

٥٣ – البيان المغرب (بيروت ١٩٥٠) ؛

بنعبد الله : الأستاذ عبد العزيز .

٥٤ – مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء ١٩٥٧ م) .

ابن عربى : (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م) الشيخ الإمام محي الدين بن عربى المرسى .

٥٥ – الفتوحات المكية (القاهرة ١٣١٠ هـ) :

عـلام : عبد الله على .

٥٦ – الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) .

عنـان : الأستاذ محمد عبد الله .

٥٧ – دولة الإسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٤) .

الغـزالى : (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) أبو حامد .

٥٨ – فضائح الباطنية (نشره جولد تسهير سنة ١٩١٦ م) .

الفاسى : محمد بن أحمد .

٥٩ — المورد الهنى (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط).

أبو الفدا : (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م (إسماعيل عماد الدين .

٦٠ — المختصر فى أخبار البشر (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

ابن القطان : (القرن السابع الهجرى) : أبو على حسين .

٦١ — نظم الجمان (مخطوط حققه الدكتور محمود على مكى) .

القفطى : جمال الدين .

٦٢ — أخبار العلماء بأخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

الكعاك : الأستاذ عثمان .

٦٣ — مراكز الثقافة فى المغرب (القاهرة ١٩٥٨م) .

٦٤ — مجلة المستمع العربى — السنة الثالثة العدد ١٥ .

٦٥ — مجلة الثقافة المغربية عدد أغسطس ١٩٤١ ، وعدد أكتوبر من السنة المذكورة .

٦٦ — المجلة الآسيوية الفرنسية عدد أبريل ١٨٤١ .

٦٧ — مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ؛ المجلدان السابع والثامن (سنة ١٩٥٩ — ١٩٦١ م) .

٦٨ — مجلد الرسالة مجلد ٢ عدد ٦٥ (الخزانة العامة بالرباط) .

٦٩ — مجهول — الحلل الموشية (نشر علوش : الرباط ١٩٣٦ م)

٧٠ — مجهول — الاستبصار فى عجائب الأمصار (نشره الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨) .

المراكشي : (النصف الأول من القرن السابع الهجرى) محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على .
٧١ – المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ و ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م) .

المقدسى : (٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبيد الله .
٧٢ – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (القاهرة ١٩٠٠ م) .

المقــرى : (١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) أحمد بن محمد التلمسانى .
٧٣ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .

المقريزى : (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد .
٧٤ – المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

ملــين : الأستاذ محمد الرشيد .
٧٥ – عصر المنصور الموحدى (الرباط ١٩٤٦) .

مؤنس : الدكتور حسين .
٧٦ – فتح العرب للمغرب (نشر مكتبة الآداب بمصر) .

ميراندا : امبرسيو أوثى .
٧٧ – التاريخ السياسى لدولة الموحدين (نشره الأستاذان محمد بن تاويت . وإبراهيم الكتانى تطوان ١٩٦١) .

الهرغى : إبراهيم بن موسى بن محمد (٧١٤ هـ/) .
٧٨ – كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب (نشره ليڤى بروڤنسال ١٩٢٨) .

ياقــوت : (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) شهاب الدين الرومى :

٧٩ – معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) وبيروت سنة ١٩٥٥ .

٨٠ – معجم الأدباء (القاهرة ١٩١١) :

اليعقوبى : أحمد بن يعقوب بن جعفر .

٨١ – كتاب البلدان (ليدن ١٨٩١) :

مصادر أفرنجية

1. Bousquet : Histoire et institutions Les Berbères (Alger. 1955).

2 Dozy : Histoire des musulmans d'Espagne .
ed : Lévi Provençal (Leyden. 1932).

3. Goldziher : Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger. 1903).

4. Julien (André) : Histoire de L'Afrique du Nord (1957).

5. Huddon : Races of Africa (London. 1942) .

Terrasse (Henri).

6. Les Arts décoratifs au Maroc. (Paris. 1952).

7. La grande mosqué de Taza. (Paris. 1943).

8. Histoire du Maroc (Casablanca. 1949).

9. Basset : Sanctuaires et forteresses Almohades. (Paris. 1932).

محتويات الكتاب

مدخل

التعريف بالمصادر الرئيسية

الباب الأول

نشأة الموحدين

صفحة

صفحة

الباب الثانى

فتوح عبد المؤمن الخارجية

الباب الثالث

(ا) حالة الشعب

(ب) نظام الحكم

الباب الرابع

الثقافة والفن

صفحة

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧١/٣٢٥٠

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

الدولة الموحدية

الدولة الموحدية أنصع صفحات التاريخ المغربى على الإطلاق ، ونقطة انطلاق الفكر المغربى الأصيل ، ومبدأ ظهور الثقافة المغربية القومية ، والأدب ذى الطابع المغربى المتميز ؛ إذ كان المغرب قبل الموحدين مقلداً للمشرق وللأندلس فى أدبه خاصة وفى ثقافته عامة ، فأصّل الموحدون أدبه وثقافته ، وخلقوا الشخصية المغربية ، وأدخلوها ميدان المنافسة مع المشرق ومع الأندلس . ويعد عبد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى للدولة الموحدية التى اتسعت فشملت المغرب والجزائر وتونس وبرقة والأندلس الإسلامية . وقام عبد المؤمن بمجاهدة الصليبيين فى الأندلس ، وطهـّر الساحل الإفريقى من النورمان المغيرين .

فكان ظهور عبد المؤمن بن على بالمغرب ، ونور الدين زنكى بالمشرق إنقاذاً للمسلمين بعد خيبة أملهم فى الدولتين الكبريين المترنحتين : العباسية والفاطمية ، فى وقت بدأت فيه أوربا تستيقظ من سباتها العميق ، وتنفض عن نفسها غبار العصور الوسطى استعداداً لاستعمار الشرق باسم الحروب الصليبية .